الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة

في القرن الأول الهجري

تأليف

الدكتور محمد حسين الزبيدي

مدرس التاريخ الإسلامى بكلية الآداب – جامعة بغداد

(ساعدت جامعة بغداد على نشره)

١٩٧٠

الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة

في القرن الأول الهجري

تأليف

الدكتور محمد حسين الزبيدي

مدرس التاريخ الإسلامي بكلية الآداب — جامعة بغداد

(ساعدت جامعة بغداد على نشره)

١٩٧٠

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم

الدكتور حسين أحمد محمود

أستاذ التاريخ الاسلامى — جامعة القاهرة

نواح كثيرة من حياتنا الإسلامية فى حاجة إلى تضافر جهود الباحثين لإعطائها مزيداً من الوضوح لتكتمل الصورة المشرقة التى عرفت بها حضارتنا الإسلامية .

ولعل من أهم هذه النواحى المدينة الاسلامية كيف نشأت وتطورت ونمت الحياة فيها بألوانها المختلفة سياسية كانت أو إقتصادية أو اجتماعية . وما تنظيماتها الادارية وما شخصيتها المعنوية وهل أثمرت فى نشأة المدن الأوربية فى العصور الوسطى ، وهل سارت المدن الاسلامية على نهج فى حياتها وتطورها .

ودراسة مثل هذه النواحى ليست سهلة المنال إنما تحتاج إلى جلد على البحث وصبر وأناة وتجرد للعلم وقراءة واسعة وتخير للنصوص .

ولهذا السبب أقدم الأخ الزميل الدكتور محمد حسين الزبيدى على هذه الناحية دون تردد تدفعه إلى ذلك غريزة تاريخية أصيلة ، فاختار لدراسة الماجستير مدينة الكوفة عاكفاً على حياتها الاجتماعية والاقتصادية فى فجرها الأول . فعرض لنشأة المدينة وتخطيطها وعناصر السكان فيها

وحياتها الاجتماعية ثم انصرف إلى الحياة الاقتصادية فعرض للصناعة وللتنظيمات المالية ثم ختم الدراسة بفصل ممتع عن مدينة الكوفة والمجتمع العراقى .

وقد بذل فى هذا البحث جهداً شاقاً معتمداً على ثبت حافل بالمراجع الأصلية والثانوية فكان بهذا ثانية من تصدى لتاريخ المدن الاسلامية فى العراق كاشف الكثير عن جذور نموها الأول فى أسلوب جيد وعمق وإضافة وإبتكار .

وكان لى نصيب من الإشراف على هذا البحث عندما تقدم به الدكتور الزبيدى للحصول على درجة الماجستير فى التاريخ الاسلامى من جامعة القاهرة فنال به إعجاب الممتحنين ، وإنى إذ أقدمه الآن للقراء كباحث أصيل وزميل كريم . أدعو الله أن ينفع به الإسلام والمسلمين ليسير فى نفس الطريق الذى سلكناه والله ولى التوفيق .

مقدمة الكتاب

إن الكتاب الذى بين أيدينا رسالة بعنوان «الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الكوفة حتى نهاية الحكم الأموى» تقدمت بها إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل درجة الماجستير ونوقشت هذه الرسالة فى ١٩٦٤/١٢/١٥ ونالت درجة جيد جداً .

ولقد اخترت هذا الموضوع بحثاً لى لأنى وجدت أن معظم كتب التاريخ الاسلامى أهتمت إهتماماً بالغاً بالجوانب السياسية لتاريخنا وأهملت ما سواه .

إن كل من يقرأ كتب التاريخ والسير والتراجم التى تعرض للكوفة من قريب أو بعيد ، يقف حيال صورة مضطربة المعالم لهذه المدينة منذ نشأتها حتى نهاية الحكم الأموى .

فهذه المراجع لم تعرض للحياة الاجتماعية والاقتصادية التى كان يعيشها أهل هذا البلد فى نحو قرن من الزمان إزدهرت فيه حياة الكوفة إجتماعياً وإقتصادياً وفكرياً ولعبت دوراً مهماً جعلها تصبح عاصمة للخلافة طوال خمس سنوات من حكم الامام على ، ثم مركزاً للتشيع ومركزاً لدراسة الفقه والنحو واللغة والفلسفة . كما كانت الكوفة فى تلك الفترة قاعدة حربية ترابط فيها الجيوش العربية المقاتلة فى العراق .

هذه الجوانب المجهولة من تاريخ الكوفة فى القرن الأول الهجرى ، كانت من أخصب الفترات فى حياتها وأكثرها تطوراً ونمواً وزادهاراً ليس فى تاريخها فحسب ولكن فى التاريخ الاسلامى كله ، ذلك أن الكوفة تركز فيها الصراع بين القيم العربية الاسلامية وبين القيم الفارسية ، الذى كان من نتيجة ظهور تيارات فكرية واتجاهات عقلية متباينة أثرت تأثيراً مباشراً فى حياة المسلمين .

إن مثل هذه الخطوط المشرقة والاشاعات المضيئة لم يفصلها المؤرخون لانصرافهم إلى كتابة تاريخ الحياة السياسية المضطربة وحدها فلا نكاد تتصفح كتب التاريخ أو التراجم أو السير إلا وتطالعنا صورة باهتة المعالم فى الكوفة حتى أضحى الناس لا يذكرونها إلا عرضاً ، ولا يتعرفون عليها إلا من خلال ما يذكره المؤرخون عن حكامها ، كأفراد وفتنها ومؤامراتها كأحداث سياسية . لقد أعطى المؤرخون القدامى عنايتهم للحكام كأشخاص تفردوا بالسلطة وتسنموا زمام الملك ، وغفلوا الشعوب ودورها فى الحياة وتسييرها عجلة الزمن ، فلا نجدهم يذكرون شيئاً عن حياتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، وما يتصفون به من قيم وأخلاق وإنما أهملوهم إهمالا تاماً .

فاستقر الرأى على أن أتصدى لتاريخ الكوفة فى فترة من أهم فترات تاريخها ، منذ تأسيسها الأول حتى بيعة أبى العباس السفاح . واخترت الحياة الاجتماعية والاقتصادية موضوعاً لهذا البحث . والحق أن موضوع دراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية بصفة عامة من أخطر الموضوعات وأصعبها ، فما بالك بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فى الكوفة ، فالمادة مبعثرة فى بطون الكتب ، فضلا عن أن هذه المصادر لم تكن غنية بالمواد الأمر الذى اضطرنى إلى الاعتماد على تلك الأخبار القليلة محاولا تفسيرها فى ضوء التاريخ العام للدولة الإسلامية كما أننى كنت أعقد مقارنات عديدة بين الكوفة وغيرها من الأمصار المعاصرة ، وبواسطة هذه المقارنات استطعت أن أخلص إلى بعض النتائج التى تكشف عن حياة الكوفة اقتصادياً وإجتماعياً .

ومن المشاكل التى واجهتنى وأنا بسبيل إعداد هذه الدراسة أيضاً ذلك الخلط الذى كنت أجده فى كتب الانساب التى عرضت لخطط القبائل إذ قلما فرقت بين القبيلة والبطون والأسر ، فضلا عن أنها نادراً ما كانت تحدد مكان نزول هذه القبائل ، هل سكنت البصرة أم الكوفة أم انقسمت بين المصرين الأمر الذى جعل مهمة الباحث فى هذه الناحية صعبة جداً .

كما أن الحفريات الأثرية لاتزال بدائية لم تستكشف ثرى الكوفة فلعله دفن الكثير من معالم المدينة القديمة .

* * *

لقد فرضت على طبيعة الموضوع أن أمهد لدراسة مدينة الكوفة من الناحية الجغرافية فأحدد موقعها وأوضح نشأتها كمدينة ذات طابع متميز عن باقى مدن العراق فى تلك الفترة من ناحية تخطيطها للشوارع والطرقات العامة ، والبيوت والمنازل والأسوار التى كانت تحدها ، وحدودها الخارجية ودار الإمارة وبيت المال والأسواق ، وكان هذا الفصل بمثابة الأرض التى بنيت عليها بحثى ، وتناولت فى (الباب الثانى) الحياة الاجتماعية فى مدينة الكوفةفتحدثت عن طبقةالعرب وهى الطبقة الحاكمة «الطبقة الارستقراطية» التى انفردت بنظم إجتماعية معينة ونظم إدارية وقفت عندهـــا طويلا . وحاولت إعطاء فكرة واضحة عما كان يسودهذه الطبقة من عادات الزواج والطلاق ، والوفاة ، والجنائز كما درست القبائل العربية التى سكنت الكوفة وحددت مواطنها التى نزلت به ، كما وجدت أن عناصر أخرى غير العناصر العربية سكنت المصر مع العرب جنباً إلى جنب مثل العبيدوالموالى فعرضت لهم وحددت علاقتهم بالعرب وعلاقة العرب بهم ، ووقفت عند تأثيرهم فى المجتمع الكوفى ووضحت الدور الذى لعبوه فى هذا المجتمع ، وعلى نحو ما درست الموالى أو العبيد أشرت إلى وجود طبقة رابعة وهى طبقة أهل الذمة من (اليهود والنصارى) وطبقة خامسة هى السريان وطبقة سادسة النبط .

ولم تكن دراستى لهذه الطبقات دراسة عرضية بل أنى وقفت عند كل طبقة أعرفها وأحدد خصائصها وأعرض للأدوار التى لعبتها فى حياة المجتمع الكوفى . ولكن ثمة عادات معينة وتقاليد ثابتة وملامح واضحة فى حياة

هذا المجتمع كاللهو والمجون والغناء ودور القيان والأعياد ، وحلبات الخيل كل هذه المظاهر عقدت لها (الفصل الثانى) من البحث .

* * *

واستشهدت بما ورد فى كتب الأدب وما جاء على ألسنة الشعراء فى وصف اللهو والقصور والتغني بالقيان ، وفي قص ما يحدث فى دور اللهو والمجون ، فإن حياة المجتمع لا يمكن أن تقف بأي حال من الأحوال عند حد الجد والحرب والمعارك وحدها ، ولكن لكل مجتمع وجهان : وجه جد وسياسة وحزم ، ووجه آخر هو وقت الفراغ الذي يزجى في دور اللهو والغناء ، وفى حلبات الخيل .

أما الحياة الاقتصادية فقد خصصت لها (الباب الثالث) فعرضت للثروة الزراعية فبينت سياسة الحكومة الزراعية ، وذكرت أشهر الحاصلات وشرحت أنواع الأراضى الزراعية وبينت الإقطاعات التى سادت فى ذلك العصر . كما تعرضت للتجارة وأفردت لها الفصل الأول من هذا الباب ورأيت أن أقف فى بداية هذا الفصل وقفة طويلة عند العوامل المهمة التى ساعدت على أن يكون للتجارة شأن كبير فى بلد كالكوفة ثم بعد ذلك وقفت عند التجارة الخارجية مع البلدان الأجنبية وكان لها طريقان : الطريق البحرى والطريق البرى ، وكذلك التجارة الداخلية مع البلاد العربية كدمشق والجزيرة ومصر وغيرها ، وقدمت تعريفاً دقيقاً بالمراكز التجارية والاسواق الموجودة فى الكوفة وطريقة التعامل التجارى للكوفيين مما أسميته بالمعاملات التجارية (الصكوك ، والحوالات ، والسفاتج ، والقروض ، والنقود ، والبنوك) ، وغير ذلك من واردات الكوفة وصادراتها والمدن التى تتعامل معها .

وعلى نحو ما درست التجارة بالتفصيل كان لزاماً على أن أدرس الصناعة فى الكوفة بنفس التفصيل فقدمت لهذا الفصل بمقدمة تعرضت فيها للدور الذى قامت به الصناعة فى تطوير المجتمع الكوفى فى تلك الفترة ، ووقفت عند أهم المصنوعات كالحياكة والنسيج . وكانت مختلفة الأنماط

فنها صناعة الملابس . وصناعة البسط والوسائد ، ومنها صناعة الخيم والحصر ، وكذلك الحدادة والنجارة ، وصناعة الخزف والفخار والدهون والعطور والصياغة . وصناعة الصابون والصباغة . وصناعة الأحذية والشمع والنبيذ كل ذلك كان فى (الفصل الثانى) ، وأفردت للعمال جزءاً من هذا الفصل حيث أن العامل عماد الحياة فكان للعمال طبقات ، كما أن الجميع انتظمتهم تجمعات خاصة بهم أشبه بالنقابات .

و « الفصل الثالث » من هذا الباب جعلته للتنظيمات المالية فى الكوفة ، تكلمت فيه عن واردات الكوفة من خراج وجزية وغنائم وضرائب على التجار وواردات الفتوحات الإسلامية ، وبينت طريقة جباية الواردات . كما أفردت جزءاً من هذا الفصل للمصروفات ، التى تصرفها الدول وعطاء للمسلمين ، وكيفية توزيعه عليهم ، وبينت الأسس التى سارت عليها الحكومة فى توزيعها العطاء ، ذكرت فى هذا الفصل « الرزق » الذى كان يوزع على المسلمين الذين اعتمدوا عليه فى قوتهم الشهرى وبينت مقداره ومواعيد توزيعه . وتكلمت عن « بيت المال » ودوره فى الحياة العامة ، كما جعلت جزء من هذا الفصل لرواتب الموظفين والعمال ، كما أفردت جزء من هذا الفصل لمستوى المعيشة فى الكوفة ، وأسعار الحاجات والمواد الاستهلاكية فيها .

وفى « الباب الرابع » من البحث درست علاقة مدينة الكوفة بالمجتمع العراقى فى القرن الأول الهجرى ، ذلك أن حياة الدول كالأفراد تماماً لا يمكن أن يعيش بلد فى معزل عما حوله من أمصار وأصقاع خاصة إذ كانت مدينة كالكوفة اتخذت لنفسها سمت الزعامة والقيادة فى فترة عرفت من أخصب مراحل تاريخها على الإطلاق ، وليس ذلك فحسب بل إنه فى تلك الحقبة على وجه الخصوص كان للكوفيين أثر فى الحياة السياسية ، والحياة العقلية ، كما انعكس هذا أخيراً فى الوضع الاجتماعى والاقتصادى

وأخطر من ذلك كله أن الكوفة أثرت فى الفتوحات الخارجية ولعبت دوراً خطيراً فى تلك الفتوحات مما حدد لها علاقاتها بالأمصار الأخرى واتخذت لها من تلك العلاقة لوناً خاصاً .

* * *

ومن أهم المؤرخين الذى اعتمدت عليهم اعتماداً كبيراً الطبرى فى «تاريخ الطبرى»، والبلاذرى فى كتاب «فتوح البلدان»، وابن سعد فى «طبقاته» كما أننى اعتمدت على ابن الأثير فى كتابه «الكامل»، وابن خلدون فى «تاريخه» و «مقدمته»، أما كتب الجغرافية والرحلات فقد اعتمدت عليها فى تحديد الكوفة مكانياً ، وفى تقسيمها والتعريف بالمعالم الجغرافية وبالآثار الموجودة بها وقد حفلت هذه الكتب بكثير من المعلومات ذات الشأن عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى جانب عنايتها بالمعلومات الجغرافية والعمرانية ومنها كتاب «الأعلاق النفيسة» لابن رسته و «البلدان» لليعقوبى و «معجم البلدان» لياقوت والمسالك والممالك لابن حوقل والمسالك والممالك لابن خرداذبه و «المسالك والممالك» للاصطخرى و «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» للمقدسى ومختصر «كتاب البلدان» لابن الفقيه و «رحلة ابن جبير»، ثم كان لكتب الأنساب دور كبير فى هذا البحث فقد تضمنت معلومات طيبة عن القبائل العربية التى سكنت الكوفة والعراق بوجه عام وعرفتنا بالشخصيات البارزة فى هذه الفترة ، ومن هذه الكتب «أنساب الأشراف» للبلاذرى ، و «جمهرة أنساب العرب» لابن حزم و «معجم قبائل العرب» لعمر كحاله .

ولم أهمل كتب الطبقات والتراجم «كوفيات الأعيان» لابن خلكان و «أسد الغابة فى معرفة الصحابة» لابن الأثير و «الإصابة فى معرفة

الصحابة » لابن حجر العسقلانى . ومن كتب الفقه التى اعتمدت عليها «الخراج» لأبى يوسف و « الخراج » لقدامة بن جعفر و « الخراج » ليحى ابن آدم القرشى و « الأموال » لابن سلام و « الأحكام السلطانية » للماوردى وكتب الحديث « السنن » لابن داود وكتاب « المسند » لابن حنبل و « وجامع المسانيد » لأبى حنيفة .

وأعطتنى كتب الأدب العربى مادة طيبة لدراسة الحياة الاجتماعية فى الكوفة فى القرن الأول الهجرى . فالأدب صورة صادقة ومعبرة عن حياة الشعوب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية فى مختلف العصور والبلدان . وقد وجدت فى هذه الكتب خير عون لى فى دراسة الحياة الاجتماعية بالكوفة ، ومن الكتب التى أخذت منها فى هذا الميدان مؤلفات الجاحظ « كالبيان والتبين » و « البخلاء » و « التبصير بالتجارة » وكتاب « العقد الفريد » لابن عبد ربه و « الأغانى » لأبى فرج الأصفهانى و « أدب الكتاب » للصولى و « عيون الأخبار » لابن قتيبة .

هذا إلى جانب ما كتبه الدارسون المحدثون كصالح العلى فى « التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة » و عبد العزيز الدورى « فى تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى » وما كتبه ماسنيون فى « خطط الكوفة » وكتاب « حياة الشعر فى الكوفة » ليوسف خليف .

كما اعتمدت على تقارير عن الحفريات والتنقيبات بالكوفة وما كشفت عنه من آثار كبعض القاشانى الملون المكتوب بالخط الكوفى من العصر الأموى .

كما أننى اعتمدت على مصادر أجنبية مهمة كان لها أثر كبير فى بحثى هذا مثل : Survey of Persian art و Dozy و Creswell و Repertoire وغيرها .

ولم أهمل كتب النقود مثل « شذور العقود » للمقريزى و « الدينار الإسلامى » للنقشبندى و « والنقود العربية وعلم النميات » لأنستاس الكرملى . وكتباً فى الفنون الإسلامية مثل : « فنون الإسلام » و « أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية » لزكى حسن .

فأكون بذلك قد جمعت بين المصادر الأدبية والمادية فى هذه الفترة .

والله ولى التوفيق ؟

الدكتور محمد حسين الزبيدى

٢٧ رجب ١٣٩٠ هـ
٢٨/٩/١٩٧٠ م
القاهرة

الباب الأول

مدينة الكوفة

نشــأتها وتخطيطها

تمهيد : فتح العراق

مدينة الكوفة : نشأتها وتخطيطها

فتح العراق

تمهيد :

كانت بعض القبائل العربية كقبيلة بنى شيبان وغيرها تنتشر على حدود الامبراطورية الساسانية ، وكانت تقوم بغارات متعددة على السواد من ناحية الحيرة بقيادة رئيسها المثنى بن حارثة الشيبانى[1] . ورأى المثنى أن قومه غير قادرين على محاربة الفرس وإخراجهم من العراق فذهب إلى الخليفة أبى بكر الصديق وشرح له موقف عشيرته من الساسانيين وعدد له خيرات البلاد وطلب منه أن يوليه على من أسلم من قومه لمقاتلة الفرس وأن يمده بمدد لإنجاز هذه المهمه ، فلبى أبو بكر طلب المثنى وكتب له عهداً بذلك ، فعاد المثنى إلى قومه وعشيرته .

ثم أرسل أبو بكر الصديق كتاباً إلى خالد يأمره بالتوجه إلى العراق بعد الانتهاء من حروب الردة فى اليمن ، وطلب أبو بكر من المثنى أن ينضم إلى قوات خالد وأن يكون تحت قيادته .

وكتب الخليفة إلى خالد بعد أن فرغ من أمر اليمامة أن يفتح العراق من الجنوب على أن يبدأ بفرج الهند (الأبلة)[2] وكتب أيضا إلى عياض ابن غنم ، أن يقصد العراق ويدخله من أعلاه ويسير حتى يلقى خالد فى الحيرة[3] .

فسار خالد بن الوليد إلى جنوب العراق وتوقف فى (النباج)[4] حتى التحق به المثنى بن حارثة الشيبانى هناك مع عدد كبير من القبائل التى جاءت

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٢ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٥٤ ، محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٨٨ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٢ ، الطبرى ج ٢ ص ٥٥٣ .

(٤) النباج : اسم مكان فى بادية البصرة على نصف الطريق بين البصرة ومكة .

لنصرة خالد ، وكان هدف خالد بن الوليد أن يستولى على (الأبلة) ثغر العراق.
وكان الفرس قد أقاموا فى (الأبلة) حامية قوية جداً وأقاموا حولها المسالح والحصون لحمايتها . وقد التقى خالد بن الوليد ومعه جيش كبير بلغ عدده ثمانية عشر ألف جندياً[١] بهرمز قائد الفرس سنة ١٢ هـ — ٦٣٠ م وجرت معركة حامية فى (كاظمة)[٢] انتصر فيها المسلمون. وبعث خالد بخبر الفتح والأخماس إلى أبى بكر وسميت هذه المعركة بمعركة «ذات السلاسل» لأن جنود الفرس كانوا قد شدوا أنفسهم بالسلاسل على شكل جماعات ليثبتوا فى القتال ولا يهرب أحد منهم. وكانت هذه المعركة من المعارك الفاصلة فى التاريخ الإسلامى وكانت بداية طيبة وفاتحة لانتصارات عظيمة أدت إلى سقوط الدولة الساسانية واستيلاء المسلمين على هذه البلاد . ثم تقدم خالد حتى فتح الأبلة[٣] بعد مقاومة شديد ومنها سار إلى الحيرة[٤] شمالا بعد أن خلف سويدا ابن قطبة الذهلى أميراً على البصرة .

وقد حدثت فى طريق خالد إلى الحيرة عدة مناوشات مع الفرس منها وقعة الثنى ووقعه الولجه ووقعه الليسى على نهر الفرات استطاع أن ينتصر فيها . وقد حاصرت قوات المسلمين الحيرة وتم لهم النصر بعد أن طلب أهلها الامان فصالح خالد بن الوليد أهلها وكتب لهم بذلك عهداً .

ثم اتجه خالد إلى الأنبار ففتحها بعد حصار طويل ثم سار إلى عين التمر ففتحها وهناك وجد خالد أن الفرس حشدوا قوات كبيره وانضم إليهم من نصارى العرب من بنى تغلب وأباد عدد كبير ولكن خالد استطاع بشجاعته وحزمه أن يهزم جموع الفرس وينتزع النصر انتزاعاً(٥) .

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٥٥٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٦٥ ؛ كاظمة : جون على سيف البحر فى طريق البحرين من البصرة ، بينها وبين البصرة حلقتان، وفيها ركايا كثيرة وماؤها شروب واستقاؤها ظاهر .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٩٥ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٣ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٢٩٤ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٧ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ٣٠١ .

ولما فرغ خالد من عين التمر أتاه كتاب من عياض بن غنم يطلب النجدة لمقاتلة نصارى العرب ، فسار إليه خالد ونزل دومة الجندل وقاتل نصارى العرب حتى هزمهم[١] . ثم بلغه أن الفرس قد تجمعوا لمهاجمة الأنبار فقرر العودة إلى الحيرة لمجابهة الموقف هناك .

أرسل الخليفة أبو بكر يطلب من خالد السير إلى الشام مع قسم من جيشه لمساعدة الجيوش العربية هناك على أن يستخلف المثنى بن حارثه الشيباني على البقية الباقية من جيش المسلمين[٢] . فاتخذ المثنى الحيرة قاعدة له سنة ١٣ هـ . وكان الفرس قد جمعوا جيشاً عظيما التقى بالمثنى عند بابل حيث دارت معركة حامية استطاع المثنى فيها أن ينتزع النصر من العدو ، ولكنه تبين كثرة جيش الفرس وقلة جيش المسلمين فكتب إلى أبي بكر يطلب منه العون والمدد ، ولما وجد أن الإمدادات قد أبطأت خرج إلى المدينة حيث وجد أبا بكر مريضاً وقد اشتدت عليه الحمى فقص عليه خبر العراق وطلب المثنى من أبي بكر الاستعانة بمن حسنت توبته من المرتدين لأنهم أكثر حماساً في القتال فاستدعى أبو بكر عمر بن الخطاب وطلب منه أن يندب الناس مع المثنى ولا يشغلهم موته عن أمر دينهم ، وقد توفي أبو بكر في اليوم التالي ، فتولى الخلافة عمر بن الخطاب فندب الناس إلى العراق مع المثنى وسير معه جيشاً كبيراً من المهاجرين والأنصار وجعل عليه أبا عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد سبق المثنى هذا الجيش في العودة إلى العراق ودخل الحيرة حيث وجد الفرس قد انشغلوا عن أمر المسلمين لخلاف وقع بين الأسرة الحاكمة وكان (رستم) يجمع الجيوش لملاقاة المسلمين كما أن المثنى بدوره بدأ يستعد لمقابلة الجيش الفارسي فحدثت بينهما اشتباكات صغيرة متعددة هرب الفرس

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ص ٣٠٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٢ ص ٣١٢ .

بعدها إلى كسكر[١] ثم تبعهم المسلمون إلى كسكر فهزموهم ، ولما علم رستم بخبر هذه الهزائم جهز جيشاً عظيما يقوده (بهمن جاذويه) وتوجه أبو عبيد نحو الجيش الفارسى ونزل المروحة[٢] (موضع البرج والعاقول) فطلب بهمن جاذويه من أبى عبيد إما أن يعبر المسلمون إليه أو يعبر هو إلى جيش المسلمين ، فأشار الناس على أبى عبيد بعدم العبور ولكنه لم يأخذ برأى أحد وعبر بالمسلمين فدارت رحى الحرب ، وكانت هذه الحرب قاسية على المسلمين لأن الفرس استخدموا الفيلة فى القتال حيث وضعوها أمام الجيش وقد أفزعت هذه الفيلة خيول المسلمين ، ولما استبطأ المسلمون النصر طلب أبو عبيد أن يوجهوا قتالهم نحو الفيلة فترجل أبو عبيد ومعه جماعة من أصحابه واتجه كل منهم إلى حد الفيلة ، ولكن فيلا استطاع أن يصرع أبا عبيد بقدميه فقتله[٣] ، وعندما شاهد المسلمون مصرع أبى عبيد أصابهم الفزع فحلت بهم الهزيمة فبادر رجل من ثقيف إلى قطع الجسر كى لا ينهزموا وطلب منهم أن يموتوا على ما مات عليه أمراؤهم أو يظفروا بالنصر ولكن المسلمين لم يستطيعوا أن يستعيدوا رباطة جأشهم ويلموا شعثهم فهربوا صوب الجسر المقطوع واستطاع المثنى وفرسان آخرون أن يحموا مؤخرة جيش المسلمين وجرح المثنى وذهب معظم جيشه بين قتيل وغريق ولم يبق منه إلا القليل ، فطلب النجدة من عمر بن الخطاب ولما علم عمر بهذه النكبة حزن حزناً شديداً على ما أصاب المسلمين فأعلن النفير العام وأخذ يمد العراق بإمدادات كبيرة وقد حقق المثنى بهذه الإمدادات نصراً كبيراً فى معركة (البويب) التى ثأر بها لمعركة الجسر ، وقد مهدت هذه المعارك بين العرب والفرس إلى استعداد الطرفين لخوض معركة القادسية الفاصلة . وبعد أن أعلن عمر التعبئة العامة كتب إلى عماله يقول :

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٢) المروحة : وهى موضوع قرب نهر الفرات قرب الحيرة .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٣٣٧ .

« لا تدعوا أحداً له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأى إلا انتخبتموه ثم وجهتموه إلى والعجل العجل »[١] .

كما طلب عمر من عماله إرسال كل من فرغ من تأدية فريضة الحج فاجتمع له جيش كبير وعهد بقيادته إلى سعد بن أبى وقاص[٢] فسار به نحو العراق لملاقاة الجيش الفارسي حيث بدأت الاستعدادات لمعركة القادسية فانتخب سعد من بنى تميم والرباب أربعة آلاف وانتخب من بنى أسد ثلاثة آلاف . وكان المثنى بن حارثة فى العراق فى ثمانية آلاف من ربيعة ومعظمهم من بكر بن وائل[٣] . ولكن المثنى توفى متأثراً بجراحه فى موقعة الجسر قبل أن يلتقى سعد وقد ترك المثنى وصيته له جاء فيها : « أن لا يقاتل عدوه وعدوهم (يعنى المسلمين) من أهل فارس إذ استجمع أمرهم وملؤهم فى عقر دارهم وأن يقاتلهم على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأنى مدره من أرض العجم فإن يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ماوراءهم وإن يكن الأخرى فاءوا إلى فئة ثم يكونوا أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم إلى أن يرد الله الكرة عليهم » .

وعندما استقر سعد بن أبى وقاص فى العراق كتب له الخليفة عمر ابن الخطاب كتاباً عندما كان بشراف قال فيه : « وإذا انتهيت إلى القادسية — والقادسية باب فارس فى الجاهلية — وهى أجمع تلك الأبواب لمادتهم .... وهو منزل رغيب ، خصيب ، حصين دونه قناطر أنهار ، وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ، ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ، ثم ألزم مكانك لا تبرحه ، فإنهم إذا حسوك

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ٤ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص (٩) .

(٣) الطبرى ج ٤ ص ١٦٠ .

أنغضتهم ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم بحدهم و جدهم . فإن أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الأمانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبداً إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وإن تكن الأخرى كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتى الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة »[1] .

وقد رمى سعد الفرس بهذا العدد الهائل من الجيوش فى القادسية فكانت معركة مريرة قاسية انتهت بانتصار المسلمين ، وبهزيمة الجيش الفارسى ، وقد تتبع جيش المسلمين فلولهم إلى المدائن فاستولى عليها ثم خاض (معركة جلولاء) وأحرز فيها ذلك النصر الرائع الذى هز قواعد الحكم الفارسى .

وقد وضحت الحاجة عندئذ إلى مرحلة من الاستقرار فى حياة العرب إلى إنشاء القاعدتين العربيتين الكوفة والبصرة . أما قاعدة الكوفة فهى التى سوف نتحدث عنها فيما بعد .

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٠ — ١١ .

إنشاء الكوفة

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها وإنما كان موضعها أرضاً خالية من السكان على الضفة الغربية للفرات الأوسط (إلى الشرق من مدينة الحيرة) ، وكان بينها وبين النهر لسان من الرمل يقترب عمودياً من الفرات يسمى الملطاط[1] وكانت توجد على حافة البادية مسلحة تحرس (جسر الزوارق) المنصوب على الفرات الذى يفضى إلى الطريق المؤدى إلى طيسفون (المدائن)[2] ، وفى هذا السهل الخصيب المحصور بين الفرات شرقاً والبادية الواسعة المطلة على مشارف الشام وعمان غرباً بنيت هذه المدينة التى اتخذت اسم الكوفة عند تمصيرها .

وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب لتسمية مدينة الكوفة فقيل[3] : إنه سميت الكوفة نسبة إلى أرضها التى كانت أرض رملية تخالطها حصاء . وقيل أيضاً أن سعد بن أبى وقاص عندما اختط موضع الكوفة قال للمسلمين تكوفوا أى (اجتمعوا) . وقيل أيضاً سميت الكوفة نسبة إلى جبل صغير فى وسطها يقال له كوفان وعليه اختطت . وقيل : سميت بهذا الاسم نسبة إلى جبل (ساتيدما) محيط بها كالكفافة عليها . وقيل إنها بنيت فى منطقة اسمها (كويفة) ابن عمر .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٦ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٧٥ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٤٦ ، ١٤٤ ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٦ ؛ البكرى : معجم ما استعجم ج ٤ ص ١٤٢ ، ١٥٢ ؛ ابن الفقيه : البلدان ص ١٦٢ ؛ صفى الدين : مراصد الاطلاع ج ٣ ص ١٨٧ .

وقد تم تخطيط الكوفة على يد سعد بن أبي وقاص — بعد تخطيط البصرة بسنتين أو ثلاث – وقد نزل بها المسلمون فى السنة السابعة عشرة للهجرة[1] سنة (٦٣٨) م ، وقيل أيضاً إن تخطيط الكوفة قد تم فى المحرم سنة سبع عشرة لسنتين وشهرين من موقعة القادسية ولثلاث سنين وثمانية أشهر من ولاية عمر بن الخطاب[2] . وعلى هذا فبناء الكوفة تم بعد بناء البصرة ، وأن بناء كل من الكوفة والبصرة تم بعد فتح المدائن وخروج الملك يزجرد عنها إلى حلوان بعد موقعة جلولاء .

أمر عمر بن الخطاب سعداً أن يبعث سليمان وحذيفة ليختارا منزلا برياً وبحرياً لا يفصل بينه وبين المسلمين بحراً أو جسراً[3] . وقد بحث سعد عن أماكن كثيرة لم ترق لعدم صلاحيتها للأغراض العسكرية والحربية ، أو لعدم توفر الشروط الصحية الملائمة لحياة العرب حتى اهتدى أخيراً إلى أرض الكوفة غرب الفرات دله على موضعها (نفيلة الغسانى) الذى وصفها لسعد « بأنها أرض مرتفعة عن المباق وانحدرت عن الفلاة وينبت فيها الخزامى والأقحوان والشيح والقيصوم والشقائق وغيرها[4] . وقد أشار

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٤ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٤٤ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٢٩٧ ؛ اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ص ١٧٢ ؛ لسترانج : بلدان الخلافة الشرقية ص ١٠١ ؛ Creswell, vol. 1, p. 15.

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ . ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٤١ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٤ : الطبرى ج ٣ ص ١٤٥ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٤١١ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .

البلاذرى إلى أن هذا المكان يقال له « سورستان أو خد العذراء »[١] .

إن من أهم الأسباب التى أدت إلى بناء الكوفة أن سعد بن أبى وقاص عندما تغلب على الفرس ونزل عاصمتهم المدائن بعث وفد إلى عمر بن الخطاب يخبره بخبر الفتح والغنائم ، فلما وصل وفده إلى الخليفة رأى ألوانهم تغيرت وحالهم قد تبدلت فسألهم عن ذلك فقالوا وخومة البلد قد غيرتنا فأمر أن يرتادوا منزلا يلائم المسلمين لأن العرب لا يوافقهم فى البلاد إلا ما وافق إبلهم »[٢] . فأتى سعد الأنبار وأراد أن يتخذها منزلا فوجدها لا تصلح له فتحول إلى الكوفة .

هذا ويضاف إلى صفات الكوفة المناخية كصفاء الجو وعذوبة المناخ صفات أخرى مهمة هى أنها تقع على حافة صحراء الجزيرة العربية لا يفصل بينها وبين العاصمة ماء أوجسر[٣] وهو شرط اشترطه عمر بن الخطاب على سعد فى اختيار المكان وذلك ليسهل ربط العاصمة بالكوفة وبالقوات الحربية هنا وهناك وليكون الخليفة على اتصال دائم بها ، حتى يسهل وصول المؤن والإمدادات العسكرية دون أن يعيقهم ماء أو نهر وحتى يتمكنوا أن يحموا ظهورهم بالصحراء فيتوغلوا فيها عند اشتباكهم مع الأعداء . يضاف إلى ما تقدم أن عمر أراد الاحتفاظ بالعرب بعيدين عن مراكز المدن القديمة حتى لا يتأثرون بما شاع فيها من ترف ونعومة عيش فيفقدون بذلك ميزاتهم العسكرية ، وكما أرادها أن تكون لهم داراً لهجرتهم ومحلا لإقامتهم ومعسكراً

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٦٩ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٣٧٥ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٤٥ ؛ ابن خلدون : التاريخ ج ٣ ص ٣٢١ ؛ Creswell, vol. 1, p. 15.

(٣) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٣٤ ؛ Creswell, vol. 1, p. 15.

لخاميتهم يسيطرون على العراق وفارس يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار[1] وأن يتخذها دار هجرة وقيروانا[2] . وقد أراد سعد أن يجمع جنده فى هذه البقعة التى ارتضاها أن تكون داراً للمسلمين وكوفة لجنده فكتب إلى القعقاع بن عمرو يطلب منه المجىء مع الجيش إلى المدائن وأن يخلف فى جلولاء بعده (قباذ) ويجلب معه من كان معه من الحمراء (حمراء ديلم)[3] . وكتب أيضاً إلى عبدالله بن المعتمر يطلب منه أن يخلف على (الموصل) مسلماً بن عبد الله[4] وأن يتوجه مع من يرغب من الأساورة إلى المدائن فرحل قسم من الأساورة مع عبد الله وبقى قسم آخر مع مسلم ، وعند اجتماع جند المسلمين فى المدائن ، رحل بهم سعد حتى عسكر فى موضع الكوفة فى المحرم سنة سبع عشرة[5] .

وعندما نزل سعد الكوفة كتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يخبره بأنه ترك المدائن وأنه نزل أرضاً تلائم حالتهم الصحية ووضعهم العسكرى فقال له « إنى نزلت الكوفة بين الحيرة والفرات برياً بحرياً بين الجلاء والنصر ، وخيرت الناس بينها وبين المدائن ومن أعجبته تلك جعلته فيها مسلحة »[6] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٤ .

(٣) أنظر موضوع الموالى .

(٤) كان قد أسر أيام القادسية .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٤ ، الطبرى ج ٣ ص ١٤٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٤١١ .

(٦) الطبرى ج ٣ ص ١٤٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٤١١ . ابن خلدون ؛ التاريخ ج ٢ ص ٣٤٢ .

فقد اختلفت الروايات فى طريقة الاهتداء إلى المنطقة التى اختط عليها سعد الكوفة ، ولكنها تجمع على أن اختيار المكان أو الموضع لمدينة الكوفة لم يكن أمراً مرتجلا وإنما كان بعد بحث دقيق متواصل وتفتيش طويل .

وهنا لابد لنا أن نبين الأسباب التى دعت إلى تأسيس الكوفة وبناءها أن تأسيس الكوفة يرجع إلى عاملين أساسيين هما :

عامل عسكرى : لقد توغل العرب فى فتوحاتهم إلى مناطق واسعة فى بلاد فارس وبعيدة كل البعد عن العاصمة (المدينة) وعلى هذا كان لا بد من المحافظة على خطوط المواصلات للجيوش الإسلامية المقاتلة فى هذه المنطقة والتى تحتاج إلى معسكر ثابت يتخذها القائد نقطة ارتكاز وقاعدة حربية يستريح فيها الجند بعد العناد الشديد من القتال ، ويحمى ثغور البلاد ويكون أيضاً مركزاً لتموين ساحات القتال بالجند والمؤن[1] وكما قال عمر ابن الخطاب « يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار »[2] .

وعامل جغرافى : ذلك أن اختلاف البيئة الصحراوية التى خرج منها العرب إلى بيئة أخرى وهى بيئة بلاد العراق ، أثرت على صحة الجند. فغيرت ألوانهن وذبلت أجسامهم . وقد حرص العرب أن تكون محلات بناء المدن مناطق صحية خالية من الحشرات والبق وغيرها غير موبوءة ، ولا وخم الهواء وأن تكون فيها مناظر طبيعية تريح النفس .

ولما استقر العرب فى الكوفة وجد سعد بن أبى وقاص أن حياة الخيام وحياة المعسكرات التى يحيونها لا تلائم الحياة الجديدة أو المجتمع الجديد الذى ألفوه ، أو لعلهم أرادوا ان تكون لهم مدينة على النمط الفارسى الذى

---

(١) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٤ (غير مطبوع) .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ١ .

شاهده فى أثناء حروبهم فى بلاد فارس[١] ففكروا فى بناء البيوت من القصب كى تكون أكثر ملائمة وأكثر واقعية من حياة الخيام وكتب سعد إلى عمر ابن الخطاب بذلك يستأذنه فى بناء بيوتهم من القصب فأجابهم الخليفة عمر « أن العسكر أشد لحربكم وأذكر لكم وما أحب أن أخالفكم فابتنوا بالقصب »[٢] .

من هذا يبدو أن عمر لم يكن راغباً رغبة صادقة فى سكنى العرب فى المدن واتخاذهم بيوتاً لأن هذا يبعدهم كل البعد عن حياة الخشونة وينقلهم إلى حياة الترف التى يخشاها ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام تيار هذه الرغبة الجامحة .

ولكن هذا النوع من البناء لم يصمد أمام الظروف الطبيعية القاسية التى كانت تمر بها الكوفة يومها . فاحترقت المدينة جميعها وفكر أهلها فى بناء بيوتهم من الطين واللبن حتى تكون أكثر صموداً من بيوت القصب أمام تحديات الطبيعة .

وقد بعث سعد وفداً إلى الخليفة عمر بن الخطاب خوفاً من معارضته فأذن لهم وقال لهم « إفعلوا ولا يزيد أحد على ثلاثة بيوت ولا تطاولوا فى البنيان وألزموا السنة تلزمكم الدولة »[٣] .

التخطيط :

ويهمنا هنا أن نعرف شيئاً عن خطط الكوفة كما صورها المؤرخون

---

(١) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٥ غير مطبوع .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٤٧ ؛ ابن الأثير : الكامل ، ج ٢ ص ٤١١ ؛ ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ١٤٨ ؛ ابن الأثير : الكامل ج٢ ص ٤١١ ؛ ابن خلدون : التاريخ ج ص ٣٤٢ ٢ .

المعاصرون لنبين معالم هذه المدينة منذ ظهورها للمرة الأولى حتى آخر العصر الأموى .

كان المسجد الجامع من أهم ملامح هذه المدينة الجديدة ويسوق الطبرى فى معرض حديثه عن هذا المسجد خبراً طريفاً فيقول « قام رجل فى وسطه رام شديد النزع (قوى) فرمى عن يمينه فأمر من شاء أن يبنى وراء موقع ذلك السهم ورمى بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء أن يبنى وراء موقع السهمين[١] . وكان المسجد مربع الشكل متسع الرقعة وقد اختط على عدد المقاتلة فى الكوفة وكان عددهم يومها أربعين ألف مقاتل[٢] .

وكانت ظلة المسجد مائتى ذراع أقيمت على أعمدة من الرخام جلبت من بلاد فارس وقد حفروا حول الصحن خندقاً لئلا يقحمه أحد بالبنيان[٣] .

هذا وكان المسجد فى أول الأمر لم تكن له جدران تحيط به حيث كان الرجل الجالس فى المسجد يرى باب الجسر ودير هند[٤] .

وبقى المسجد على هذا الوضع إلى زمن معاوية (فزاد فيه المغيرة بن شعبة وبناه)[٥] أيام ولايته للكوفة ، ولما ولى زياد بن أبيه الكوفة زاد فى سعة المسجد أيضاً حيث زاد فيه عشرين ذراعاً وجعله يتسع لستين ألف شخص[٦] .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٥ ؛ الطبرى جـ ٣ ص ١٤٨ — ١٤٩ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٧ .
(٣) الطبرى جـ ٣ ص ١٤٨ ؛ Creswell, vol. 1, p. 15.
(٤) الطبرى جـ ٣ ص ١٥١ ؛ Creswell, vol. 1, pp. 16-17.
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٦ .
(٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ٧ ص ٢٩٧ .

وقد أقام له أبواباً وجدراناً كان إرتفاعها ثلاثين ذراعاً . وجيء برخامة من جبال الأهواز وقد اتخذ زياد فى مسجد الكوفة مقصورة جددها خالد بن عبد الله القسرى[١] . ثم هدمه الحجاج بن يوسف الثقفى وبناه . وفى أيام يوسف ابن عمر الثقفى سقط الحائط مما يلى دار المختار بن أبى عبيد الثقفى فبناه[٢] .

وقد كان المسجد الجامع هذا هو المركز الدينى والثقافى والاجتماعى والروحى فى مدينة الكوفة .

دار الأمارة :

أما دار الأمارة فقد بنيت بجوار المسجد الجامع فى الجهة الجنوبية (الجهة القبلية) من المسجد مع انحراف قليل نحو الشرق[٣] . هذا وقد بنى هذه الدار (روزبه) حيث جلب الآجر من الحيرة[٤]. وقد ظل هذا القصر الذى يعرف بقصر الأمارة منزلا خاصاً للخلفاء والملوك والأمراء بعد سعد بن أبى وقاص وظل قائماً حتى هدمه عبد الملك بن مروان[٥] سنة ٧١هـ .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٦ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٩ ؛ البراقى : تاريخ الكوفة ص ١١٦ .

(٣) مجلة سومر ، ج ١ — ٢ ص ٤ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٤٨ ؛ Creswell, vol. 1, p. 16.

(٥) وذكر أن أسباب هدم هذا القصر أن عبد الملك بن مروان كان قد جلس فى القصر واضعاً رأس مصعب بن الزبير بين يديه ، فقال له عبد الملك بن عمير ياأمير المؤمنين ، جلست أنا وعبيد الله بن زياد فى هذا المجلس ورأس الحسين بن على بين يديه ثم جلست أنا والمختار بن عبيد الثقفى ، فإذا رأس عبيد الله بن زياد بين يديه ، ثم جلست أنا ومصعب ابن الزبير فاذا رأس المختار بين يديه ، ثم جلست مع أمير المؤمنين فاذا رأس مصعب بين يديه وأنا أعيذ أمير المؤمنين من شر هذا المجلس ، فارتعد عبد الملك وقام من فوره وأمر بهدم القصر .

الدميرى : حياة الحيوان ج ١ ص ٨٠ ؛ سبط الجوزى : تذكرة الخواص ص ١٤٨ .

هذا وقد دلت الحفائر التى أجريت فى العراق بحثاً عن آثار الكوفة على أن قصر الأمارة هذا كان يحيط به سوران واحد داخلى والآخر خارجى ولا يبعد أن يكون السوران قد شيدا فى زمن واحد[1] . كما كشفت الحفائر عن كتابات من العصر الأموى كتبت على جدرانه فى تلك الفترة بالحروف الكلدانية والآرامية ، وكانت معظم هذه الكتابات تنطوى على معانى الاستغفار والتوبة .

وكان القصر يطل من ناحية الغرب على ميدان يسمى (رحبة على) وفى وسط القصر بنيت (مصطبة) كبيرة أعدت للاجتماعات .

هذا وقد بنى بيت المال بجانب دار الأمارة وبجوار المسجد حيث كان يفصل بينهما طريق طوله مائتا ذراع[2] . وقد حدث أن بيت المال هذا نقب عليه نقب ، وأخذ منه المال ، وكتب سعد بن أبى وقاص بذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب فكتب إليه أن ينقل بيت المال وأن يضعه بجوار الدار لأن المسجد (آهلا فى النهار والليل)[3] فنقل بيت المال إلى جانب الدار .

الأحياء :

وبعد أن اختط فى الكوفة المسجد ودار الأمارة وجعل ما حولهما فراغاً كالميدان عينت حدود المدينة فى جهاتها الأربع بعلامات خاصة وروعى فى ذلك اتجاهات الريح ثم بنيت بعض (المرافق العامة) ثم اختط الناس دورهم من وراء تلك العلامات ، وقد قسمت بين اليمانية والنزارية على هذا

---

(١) مجلة سومر ، ج ١ — ٢ ص ٤ .

(٢) الطبرى ، ج ٣ ص ١٥ .

(٣) الطبرى ، ج ٣ ص ١٤٨ .

(٤) Creswell, vol 1 p 18

النحو « فأسهم لنزار وأهل اليمن بسهمين على أنه من خرج سهمه أولا فله الجانب الأيسر وهو خيرهما فخرج سهم أهل اليمن فصارت خططهم فى الجانب الشرقى وصارت خطط نزار فى الجانب الغربى من وراء تلك العلامات وترك ما دونها فناء للمسجد ودار الامارة[١] » .

وقد قسمت الكوفة إلى سبع مناطق عسكرية سميت (الأسباع) وذلك وفقاً للقيادات وتيسيراً للتعبئة العامة عند النفير والخروج للجهاد فى المواسم وتيسيراً لتوزيع الغنائم والأعطيات بعد العودة[٢] ، بينما نرى أن مدينة البصرة قسمت إلى خمس مناطق سميت الأخماس[٣] .

الشوارع والطرق العامة :

ولما تم تمصير الكوفة وبناؤها قسمت فيها الشوارع والطرقات العامة وجعل فيها خمسة عشر منهجاً[٤] . وجعل عرض كل منهج أربعون ذراعاً ويليها ثلاثون ذراعاً وما بين ذلك عشرين والأزقة سبع أذرع حسبما أمر عمر بن الخطاب[٥] . واختطت المناهج هذه مبتدئة من الجامع باعتباره مركز الحياة ، وهى[٦] .

١ — فى ودعه الصحن (أى فى شماله) : المنهج الأول والثانى لقبيلتى سليم وثقيف . والمنهج (الثالث) لهمدان والمنهج (الرابع) لبجيله والمنهج (الخامس) ليتم اللات وتغلب .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٥ .

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٩ .

(٣) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٠ .

(٤) المنهج : الحد الفاصل بين تصفيف الخيام وهى بمثابة الطرق الرئيسية التى خططها سعد للقبائل المختلفة .

(٥) الطبرى ج ٣ ص ١٤٨ .

(٦) الطبرى ج ٣ ص ١٤٩ .

٢ — فى قبلة الصحن (أى فى جنوبه) : المنهج (السادس) لبنى أسد والمنهج (السابع) بين بنى أسد والنخع والمنهج (الثامن) بين كنده والنخع والمنهج (التاسع) بين كندة والازد .

٣ — فى شرق الصحن : المنهج (العاشر) للأنصار ومزينة والمنهج (الحادى عشر) ليتم ومحارب والمنهج (الثانى عشر) لأسد وعامر .

٤ — فى غرب الصحن : (المنهج الثالث عشر) لبجاله (من غطفان) وبجله (ابن قيس) والمنهج (الرابع عشر) لجديله (وأخلاط) والمنهج (الخامس عشر) لجهينة وأخلاط .

ويضاف إلى ذلك شوارع عامة تسمى بـ (السكك) وعرض السكة كما قلنا من ثلاثين إلى عشرين ذراعاً .

وكانت هذه السكك تنار بواسطة المشاعل أثناء الليل[١] وتعرف بأسماء بطون القبائل التى تسكن فى جانبها وكانت تحمل أسماء بعض الأعلام والتجار . وأهم سكك الكوفة ، سكة البريد : وموقعها بين الجسر الذى كان فى الجانب الشرقى بين القصر وبين الكناسة . وكانت فى الكوفة مفارق طرق تسمى بالفارسية (جهار سوج)[٢] ومعناها الجهات الأربع . وأهم هذه المفارق جهار سوج خنيس وجهار سوج بجيله وجهار سوج كندة وجهار سوج همدان[٣] . وغيرها .

الأسواق :

لم تقتصر الأسواق على البيع والشراء وإنما كان لها أثر كبير فى حياة العرب فهى مكاناً لفض المنازعات القبلية ، وداراً يلجأ إليها الضعفاء والعاجزين ،

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٧ .

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٧ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبير ، جـ ٦ ص ٢٤٢ ، ٢٨٥ .

يطلبون الحماية وفيها تعقد الأحلاف وتدفع المظالم عن المظلومين كما أنها كانت مدرسة الشعر والنثر يتبارى فيها الشعراء والخطباء ، فى المناسبات القومية والدينية ، ولما بنى العرب الكوفة لم ينسوا أن ينقلوا مدرستهم الأولى (الأسواق) إلى هذا المصر الجديد وأعطوها نفس الصورة التى كانت عليها فى الجاهلية ، فلم يفرضوا عليها أسوارا أو حدودا مصطنعة وإنما تركوها ساحة رحبة وأرض واسعة ، وليس أدل على ذلك من قول عمر بن الخطاب « الأسواق على سنة المساجد من سبق إلى مقعد فهو له حتى يقوم منه إلى بيته ويفرغ من بيعه »[1] .

كانت أسواق الكوفة تمتد من القصر والمسجد إلى دار الوليد بن عقبة من جهة القلائين من الجهة الأخرى وإلى منازل ثقيف وأشجع من الجانب الآخر وكانت تتصل بالكناسة .

وقد وضعت لها بعد ذلك سقوف من الحصر حتى كانت أيام خالد بن عبد الله القسرى فعقدها بالحجارة وجعل لأهل كل سلعة داراً أو سوقاً[2] .

وفى هذه الأسواق اتخذ المحتسب مجلسه بين حوانيت الصيارفة والمسلفين وكانت حوانيت الصيارفة هذه تقع فى مسجد بنى جذيمة[3] .

الكناسة :

وتقع الكناسة بين مسجد الكوفة ومسجد السهلة من ناحية البادية[4] ، وكانت كناسة بنى أسد[5] عند المدخل الغربى للكوفة ، ثم صارت محله أو سوقاً أو محطة تجارية كبرى للعرب « وهى فى الكوفة مثل المربد فى البصرة »[6]

---

(١) الطبرى ج ٣ ص ١٤٩ ؛ ابن الأثير : الكامل : ج ٢ ص ٤١٢ .
(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٣١١ ، ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٨ .
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١١٧ .
(٥) محل لرمى الانقاظ والأوساخ (المزبلة) لهذه القبيلة .
(٦) البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٤٦ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .

وقد تمركزت فيها الأعمال التجارية مع الجزيرة العربية ، فكانت موضعاً لمناخة الإبل والقوافل وتحميل البضائع التجارية وتفريغها ، فأصبحت من محلات الكوفة الكبيرة . وكان بالكناسة أسواق كثيرة ، كأسواق البراذين تجرى فيها المعاملات على الماشية كالبغال والحمير والإبل بيعاً واستئجاراً ، وفيها كان يباع الرقيق أيضاً . هذا وقد نزلت الكناسة قبائل عدة هى (عبس وضبة وبالأخص تميم)[1] ويضاف إلى مكانة الكناسة التجارية المكانة الأدبية ، فكانت أشبه بسوق عكاظ ، حيث كانت ملتقى الشعراء والأدباء ، يلقون فيها قصائدهم[2] وفيها كانت تثور مفاخراتهم ومناظراتهم كما كانوا يتذاكرون فيها أيام الناس[3] .

هذا ولما انحطت الكوفة أضحت الكناسة ضاحية منعزلة فيها منازل آل طلحة وبنى تميم وغيرها .

الجبانة

ومن الجدير بالملاحظة أن مقابر الكوفة (جباناتها) تختلف إختلافاً كبيراً عن مقابر البصرة إذ ليس فى أخبار البصرة إلا ذكر قليل للمقابر الخاصة وأكثر هذه المقابر لأشخاص كمقبرة حصين عند الزابوقة ومقبرة شيبان وغيرها . إذ أن أغلبية الناس فيها تدفن موتاها فى بيوتها مما أدى إلى عدم وجود مقابر عامة خاصة بالقبائل وكانت القبور فى البصرة مجرد حفر يوضع فيها جسد الميت ثم يوارى بالتراب ولا يبنى عليه شيء سواء كان فقيراً أو عظيماً ، وقيل عندما مات بشر بن مروان (أمير البصرة) دفن قرب حبشى ثم اختلط القبران على الناس فيما بعد فلم يستطيعوا التمييز بينهما[4] .

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١

(٢) وكيع : أخبار القضاة ج ٣ ص ٩٢

(٣) الاصفهانى : الأغانى ج ١٤ ص ٣٠

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١٣٢

أما مقابر الكوفة فكانت لكل قبيلة مقبرة خاصة بها[١] ، وتقع عادة فى خططها ، وقد لعبت مقابر الكوفة دوراً هاماً فى الحياة السياسية إذ اتخذها أفراد القبائل مراكز للتجمع عندما يريدون التمرد أو الثورة[٢].

ولم تكن لهذه القبور قباب أو بنايات ضخمة تميزها عن غيرها ومن أشهر الجبانات فى الكوفة جبانة «كنده[٣]» ، وجبانة (الثوية) وهى لثقيف وقريش[٤] وجبانة عزرم الفزارى[٥] . وجبانة بشر[٦] الخثعمى لعشيرة طى ، وقد نسبت إلى بشر بن ربيعة بن عمرو الخثعمى[٧] وجبانة مخنف اللازد[٨] . وجبانة سليم السلولى ابنى عامر بن قيس[٩] وجبانة مراد لمذحج[١٠]. وجبانة كندة وهى كندة وربيعة[١١]. وجبانة الصائدين لبنى أسد وهم من قيس[١٢] وجبانة أثير الأسدى[١٣] وجبانه السبيع وتنسب إلى ولد السبيع بن سبع بن مصعب الهمدانى[١٤] من أصحاب الإقطاع والرئاسة . وجبانة ميمون نسبة إلى ميمون ، مولى محمد بن على بن عبد الله وهو أبو بشر بن ميمون صاحب الطاقات ببغداد وبالقرب من باب الشام[١٥] .

---

(١) اليعقوبى : البلدان ص٣١١

(٢) الطبرى ، ج٧ ص١٠٠ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٧ ص٧٠

(٣) اليعقوبى : البلدان ص٣١١

(٤) البراق : تاريخ الكوفة ص١٤٣

(٥) اليعقوبى : البلدان ص٣١١ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٩

(٦) اليعقوبى : البلدان ص ٣١١ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٩

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٨١ ؛ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٣٦٨

(٨) اليعقوبى : البلدان ص٣١١ ؛ ماسنيون: خطط الكوفة ص١٩

(٩) ماسنيون : خطط الكوفة ص١٩

(١٠) اليعقوبى : البلدان ص٣١١ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص١٩

(١١) اليعقوبى : البلدان ص٣١١

(١٢) الطبرى ، ج٢ ص٢٤٩ ؛ اليعقوبى: البلدان ص٣١١

(١٣) ماسنيون : خطط الكوفة ص١٩

(١٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٨٠ ؛ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص٣٧٢

(١٥) ابن الفقيه : مختصر البلدان ص ١٨٤

سور الكوفة :

لقد استهدف من إنشاء الكوفة أن تكون قاعدة عسكرية هجومية تقيم بها عيالات المقاتلة وأهليهم ويستقر بها الجند بعد أوبتهم من الفتوح فلم تر الدولة والحالة هذه حاجة إلى بناء الأسوار حولها كمعظم المدن الاسلامية ، يضاف إلى ذلك أن المدينة كانت فى طور النمو السريع الذى يصعب حصر نطاقه ، وظلت الكوفة على هذه الحالة حتى تولى المنصور الخلافة وبنى بغداد ثم رأى أن يحصن الكوفة والبصرة فأمر ببناء سور لها يحيط بها وخندق[١] عليها من دون السور ، وقد دفع نفقة البناء أهل الكوفة حيث أخذ من كل فرد منهم أربعون درهماً[٢] .

وقد فتح لهـــذا الخندق مجرى إلى الفرات ونصبت عليه القناطر من الزوارق ذات الأبواب بغية تيسير المواصلات التجارية وذلك فى سنة ١٤٥ هـ[٣] .

ويذكر ماسنيون فى حديثه عن الكوفة قال « لم يكن فى الكوفة بادى الأمر سور أو خندق بل ما أجمعوا عليه هو وجود حفرة من الجهة الشمالية الشرقية (فى منازل مزينة) وكانت هذه الحفرة تدعى مسناة جابر»[٥]، ويبدو أن هذا السور لم يكن له أثر يذكر فى خطط المدينة كما أنه لم يعمر طويلا ولما زارها ابن جبير سنة ٥٧٠ هـ. وصفها بقوله «وبناء هذه المدينة بالآجر خاصة ولا سور لها»[٦] .

---

(١) ابن الفقيه : مختصر البلدان ص ١٨٤

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص١٨

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٨٧

(٤) البراق : تاريخ الكوفة ص١٤٢ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص١٨

(٥) ماسنيون : خطط الكوفة ص١٨

(٦) ابن جبير ص١٦٧

كانت الكوفة في الحقيقة مدينة كبيرة تبلغ مساحتها ستة عشر ميلا وثلثى الميل مربعاً وكان فيها عدد كبير من المنازل يبلغ حوالى ألف دار للعرب وهم من ربيعة ومضر (وأربع وعشرون ألف) دار لسائر العرب. (وستة آلاف دار) لأهل اليمن[1] .

وبعد أن درسنا كل ما يتعلق بموقع الكوفة وتخطيطها ، ودار الأمارة فيها وشوارعها وطرقاتها وأسواقها ومقابرها وكناستها وأسوارها وحدودها سنتحدث عن الحياة الاجتماعية فيها .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ١٦٧

الباب الثانى

الحياة الاجتماعية فى مدينة الكوفة

---

١ — عناصر السكان وحياتهم الاجتماعية .

(ا) العرب .

(ب) الموالى (أهم الأدوار التى لعبوها فى المجتمع الكوفى)

(ج) العبيد (تأثيرهم فى مجتمع الكوفة)

(د) أهل الذمة (اليهود والنصارى)

(و) السريان

(ه) النبط

٢ — بعض مظاهر الحياة الاجتماعية العامة التى اشترك فيها السكان جميعاً .

الفصل الأول

عناصر السكان وحياتهم الاجتماعية

فى دراستنا للحياة الاجتماعية فى الكوفة سنسير وفق منهج واضح معين ذلك أننا سنلاحظ أن عناصر السكان فى الكوفة طيلة هذه الفترة التى نعرض لها بالدراسة لم تنصهر تماماً لتكون شعباً كوفياً متحد الصفات والسمات ، ولعل هذا الإندماج قد تحقق فى العصر العباسى. أما فى هذا العصر فقد عاشت عناصر السكان فى معزل كل له حياته الخاصة وحقوقه وواجباته . لذلك نرى لزاماً أن نعرض لكل عنصر على حدة متحدثين عن كيفية وفوده ووسائل إقامته وحياته الاجتماعية الخاصة بقدر ما تسمح به المراجع .

وبرغم هذه الفوارق البينة العناصر فسنجد ثمة مظاهر اجتماعية مشتركة تجمع بين هذه العناصر بوصفها تقطن حيزاً واحداً من الأرض . وستكون هذه المظاهر المشتركة من أهم عوامل اختلاط وانصهار هذه العناصر فى بوتقة موحدة .

عناصر السكان فى الكوفة :

لقد كانت المدن العربية على العموم أممية يسكن فيها مزيج من أناس تختلف لغاتهم وتتباين ألوانهم وطباعهم وثقافاتهم وأديانهم وعاداتهم وعلى هذا فقد كانت الكوفة مدينة تكثر فيها العناصر وتتعدد ، ترى فيها العربى إلى جانب الفارسى والنبطى الموالى إلى جانب العبيد وغيرهم كما تعددت الأديان فترى المسلم بجانب المسيحى واليهودى .

هذا وسننظر إلى كل عنصر من هذه العناصر نظرة مستقلة لنحدد له دوره الاجتماعى فى حياة المدينة .

(أ) العرب

نزل الكوفة من إشراف العرب من الصحابة الأولين ووجوه الناس[١] الذين كانت لهم السابقة فى الإسلام قال ابن سعد « لقد نزل الكوفة سبعون رجلا من الصحابة (وقيل ثمانون رجلا)[٢] ممن شهدوا بدراً وثلاثمائة من أصحاب الشجرة[٣] ، فكانوا خلاصة المهاجرين والأنصار الذين لهم السبق فى الإسلام » .

وكان فى مقدمة من نزلها من الصحابة عبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وقد أرسلهما عمر بن الخطاب ليكون عمار أميراً وعبد الله بن مسعود وزيراً ومؤذناً ، وقد كان عمر بن الخطاب يقول لأهل الكوفة فى تعريفه بهما « هما من النجباء من أهل بدر فخذوا عنهما واقتدوا بهما وقد أثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسى »[٤] .

ثم هاجر إلى الكوفة الامام على بن أبى طالب ومكث فيها خمس سنوات مدة خلافته. يضاف إلى هذا العدد من الصحابة عدد كبير من الفقهاء وأهل الدين وتابعون عرفوا بالدين والتقوى ووفرة العلم وسعة الاطلاع وكثرة الحفظ، وفى مقدمة هؤلاء التابعون الذين لهم الشهرة الواسعة عامر بن شرحبيل الشعبي وهو فقيه عالم محدث وله باع طويلة فى الأدب[٥] والرواية وكان من التابعين المشهورين أيضاً سعيد بن جبير الذى كان مقرئاً ومفسراً وفقيهاً ومحدثاً أخذ عن عبد الله بن عباس ، وكان هذا قد ولاه الحجاج قضاء الكوفة ثم عزله

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٨٧ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبير ج٦ قسم١ ص١

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٢٩٧ ؛ البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٣٤ ؛ اليعقوبى : التاريخ ج٢ ص ١٢٧

(٣) ابن سعد : الطبقات ج٦ قسم١ ص ٤

(٤) ابن سعد : الطبقات ج٦ قسم١ ص٣ ؛ ابن عبد الله : الاستيعاب فى معرفة الأصحاب ج ٢ ص ٣٣٦ ؛ ابن الفقيه : البلدان ص ١٦٤

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤٥

وقتله عندما خرج عليه مع ابن الأشعث[١] ويضاف إلى هؤلاء التابعين ابراهيم النخعى الذى كان فقيها وعالماً .

ووفد إلى الكوفة عدد من قراء القرآن حتى أصبحت هذه المدينة زعيمة أمصار العراق فى الفقه والمعرفة .

كما سكن الكوفة من إشراف العرب فى البيوتات العربية المعروفة[٢] مثل[٣] :

آل زراره الدارميون[٤] (وهم من تميم) .

وآل زيد الفزاريون[٥] (من قيس عيلان) .

وآل قيس الزبيديون[٦] (من مذحج) .

وآل ذى الجدين الشيبانيون[٧] (وهم من بكر بن وائل) .

وعلى هذا فقد تجمع فى الكوفة رجال العرب وبيوتاتهم ووجوه الناس فيهم .

أما القبائل العربية التى سكنت الكوفة فقد سبق أن ذكرنا بأن المصادر العربية لا تشير إليها إشارات واضحة كما أن كتب الانساب لا تميز تمييزاً واضحاً بين القبائل والعشائر أو تشير إشارة قاطعة إلى وجود هذه القبيلة

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبير ج٦ قسم ١ ص١٨٥ : المبرد الكامل ج٢ ص٩٣ ؛

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج٦ قسم١ ص٦

(٣) ابن الفقيه : البلدان ص١٧٦

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص٢٣١ ؛ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، ص٢٦٧ . ابن الفقيه : البلدان ص١٧١ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٥

(٥) ابن الفقيه : البلدان ص ١٧١ ؛ ما سنيون : خطط الكوفة ص ١٥

(٦) ابن الفقيه : البلدان ص١٧١ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٥

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص٣٣١ ؛ المبرد : الكامل ج ١ ص ٥٣ ابن الفقيه : البلدان ص١٧١ ؛ ما سنيون : خطط الكوفة ص ١٥

وتلك فى الكوفة أو فى البصرة أو غيرها على أن أهم القبائل التى سكنت الكوفة هى :

قبائل اليمن القحطانية وعدد نفوسها اثنا عشر ألف شخص[١] وهى :

قضاعة ، وغسان، وبجيله ، وخثعم ، وكنده ، وحضرموت ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وهمدان والنخع .

أما القبائل العدنانية وعددهم ثمانية آلاف شخص فهى تميم ، الرباب ، وبنو العصر ، (وهى من مضر) .

أما بنى بكر فهم ، بنو أسد ، وغطفان ومحارب ونمير .

وهناك مجموعة أخرى مثل كنانة وجديله وضبيعه ، وعبد القيس،وتغلب وأياد ، وطى ، وثقيف ، وعامر ، ومزينه .

وقد قسمت هذه القبائل فى سكناها الكوفة إلى سبع أقسام سمى كل قسم منها (سبع) وقيل إن سعد بن أبى وقاص اضطر أحياناً فى تنظيمه للقبائل أن لا يلتزم بنظام النسب أو القربى فكان يدخل فى بعض القبائل عشائر عربية لا تمت إلى القبيلة بصلة النسب حتى إنه أدخل أحياناً وحدات من العجم ضمن وحدات القبائل العربية فنرى مثلا أنه أدخل مع كنانة جديلة[٢] كما أدخل بنو أسد وغطفان ومحارب ونمير وهم من بكر مع تغلب وضبيعه

---

(١) عمر كحالة : معجم قبائل العرب ج١ ص ١٥ و ٦٣ و ٣٠٥ و ٣٣٠ و ج ٢ ص ٩٩٨ ج٣ ص١٠٦٢ ، ١١٧٦ ، ١٢٢٥ ، ٨٨٤ ، ٩٥٧ ؛ ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٤ ، و ص٤٣٤و٤٣٥ و ٤٣٧ و ٤٣٨ و ٣٣٩ و ٤٥٠ الطبرى ج ٣ ص ١٤٩ ، ١٥٢و ٥٢ و ٦١ و٩٣ و ١٢١ و ١٢٦ و ١٧٣ و ٢١٤ و ١٤٨ ج ٢ ، ص ٤١٥ ٥٤٣ و ٨٨٨ و ١٠٤٢و ١٠٨٣ و ١١٩٥ .

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٠

وهم من ربيعة[١] ، ثم نرى أيضاً أن عبد القيس (وهم من أهل الهجر)[٢] (وحمراء ديلم)[٣] وهما من الفرس قد ضمتا إلى القبيلة العربية المعروفة (بنى تميم)[٤] . ويبدو أن سعد بن أبى وقاص لجأ إلى هذا العمل ليجعل إعداد القبائل فى كل سبع متساوياً .

ولكن سعد بن أبى وقاص أدرك بثاقب بصره أن نظام الأسباع يكون أكثر صلاحاً إذا جمع بين القبائل المشتركة فى النسب أو المرتبطة بروابط القربى فأرسل إلى قوم من نسابة العرب وذوى رأيهم وعقلائهم منهم (سعيد ابن نمران وشعلة بن نعيم فعدلوهم على الأسباع[٥] .

هذا وقد ذكر الطبرى أن نظام الأسباع فى الكوفة فى عهد سعد بن أبى وقاص كان على النحو التالى[٦] :

١ — كنانة وحلفاؤهم (الأحابيش) و (جديله) ، وهؤلاء كانوا أعواناً طبيعيين للولاة القرشيين منذ أمارة سعد حتى عمال بنى أمية ، وكان عددهم ضئيلا بالنسبة لغيرهم وكانوا يسمون بأهل العاليه .

٢ — قضاعة، وغسان، وبجيله ، وخثعم ، وكنده، وحضرموت والأزد وهم من اليمانيين وكانت السيادة فيهم لطائفتين (بجيله ثم كنده) .

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص١٠

(٢) أهل الهجرة — وهم (عبد القيس) نزحوا من البحرين إلى الكوفة تحت قيادة رئيس من سلالة ملكية وهو زهرة بن حوية السعدى . ماسنيون : خطط الكوفة ص١١

(٣) حمراء ديلم : وهم من الفرس المحاربين استسلموا بعد موقعة القادسية وكان يرأسهم رجل إسمه (ديلم) فسموا (حمراء ديلم) وقد نزلوا الكوفة وتحالفوا مع قبيلة أياد . البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٩

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٩ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١١

(٥) الطبرى ج ٣ ص١٥٢

(٦) الطبرى ج٣ ص١٥٢ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص١٠ — ١١

٣ — مذحج ، وحمير ، وهمدان ، وحلفاؤهم (وهم كذلك من العناصر اليمانية الخاصة) وقد لعب هذا القسم دوراً كبيراً فى حوادث الكوفة حيث كانت له المواقف المشرفة . الذى اتسمت بالعداء الشديد لبنى أمية ومساندة كاملة للصحابة .

٤ — تميم ، والرباب ، وبنو العصر (وهم من العناصر المضرية) .

٥ — بنو أسد ،وغطفان ، ومحارب ، ونمير، وضبيعه وتغلب ومعظمهم من ربيعة .

٦ — أياد ، وعك ، وعبد القيس (أهل الهجر) والحمراء (حمراء ديلم).

٧ — طى : أن أغلب المصادر خالية من السبع الأخير (طى) بالرغم من وجودهم سبعاً مستقلا فى معركة صفين[1] ووجود سهم لهذه القبيلة فى الغنائم والفىء منذ البداية .

هذا وبقيت الكوفة على هذا التقسيم حتى مجىء الإمام على بن أبى طالب بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ فغير نظام الأسباع هذا على النحو التالى[2] :

١ — قيس وعبد القيس .

٢ — تميم ، وظبه ، والرباب ، وقريش ، وكنانة ، وأسد .

٣ — الأزد ، وبجيله ، وخثعم ، والأنصار ، وخزاعة .

٤ — كنده ، وحضرموت ، وقضاعة ، ومهرة .

٥ — مذحج وأشعر (الأشعريون) .

٦ — همدان وحمير .

٧ — طى .

---

(١) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ص١٣٢ ؛ الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٤٨

(٢) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ص ١٣٢

وظلت الكوفة على هذا النظام حوالى أربعة عشر عاماً حتى ولاية زياد بن أبيه سنة (٥٠هـ) ه فغير هذا النظام وجعله على غرار ما كان عليه فى البصرة حيث أصبحت هذه الأسباع أربع أقسام تسمى الأرباع وجعلها على النحو التالى[١] :

الربع الأول : أهل العالية (أهل المدينة) .

الربع الثانى : تميم وهمدان .

الربع الثالث : ربيعة (بكر) كنده .

الربع الرابع : مذحج وأسد .

إن هذا التقسيم الرباعى الذى أحدثه زياد لم يعد يعتمد على النسب أو الحلف بين القبائل فى كل ربع كما رأينا سابقاً . فقد تعمد المزج بين المجموعتين القبيلتين الأساسيتين (اليمانية والنزارية)[٢] .

وفى الربع الثانى مزج زياد بين تميم النزارية وهمدان اليمانية ، وفى الربع الثالث مزج بين بكر النزارية وكندة اليمانية . والربع الرابع مزج فيه بين مذحج اليمانية وأسد النزارية[٣] .

أما الربع الأول الذى سمى (أهل العالية) فقد ظل على حاله لأن أصحابه كانوا أعواناً طبيعيين للولاة القرشيين منذ ولاية سعد حتى حكم بنى أمية ، كما أن عددهم كان ضئيلا بالنسبة إلى غيرهم[٤] .

وقد ظل هذا النظام معمولا به حتى انحط شأن الكوفة فى أوائل القرن

---

(١) الطبرى ١٥٢ جـ ٦ ص ١٥٠

(٢) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص١٢ (غير مطبوع) .

(٣) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ١٢ (غير مطبوع) .

(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٠

الرابع الهجرى[1] . وقد فرق زياد عند توليته الكوفة (حمراء ديلم) بين بلاد الشام ومدينة البصرة . . وأبقى فى الكوفة قسما قليلا منهم[2] .

لقد كان هذا التقسيم الذى ذكرناه نتيجة لظروف الحياة الجديدة وحشد مقاتلة القبائل ، ووفقاً للقيادات ، والتعبئة العامة (وقت النفير) والخروج للجهاد فى المواسم ثم توزيع الغنائم والأعطيات (بعد العودة)[3] من قبل رؤوس الأسباع .

وعلى هذا فقد كانت أسباع الكوفة (أو أرباعها) قطاعات قبلية مهمة وقد استعمل هذا النظام فى التعبئة فى عدد كبير من المعارك التى جرت فى ذلك العصر ، وظهر جلياً وواضحاً فى جيوش مصعب بن الزبير عندما هاجم مدينة الكوفة[4] .

كما استعمل عمر بن سعد نظام الأرباع فى قتاله مع الحسين بن على حيث جعل لكل قبيلة ربعاً ، فكان هنالك ربع كنده ؛ وربع ربيعة ، وربع تميم ، وربع مذحج ، وجعل على كل ربع قائداً[5] .

كما خرج أهل الكوفة إلى البصرة والأهواز إمداداً لمحمد بن المهلب ابن أبى صفرة فى قتاله ضد الخوارج فكانوا على نظام الأرباع حيث جعلوا فى كل ربع ألفين وعلى كل ربع قائد[6] .

إن هذه الأقسام أدخلت فيها كما قلنا سابقاً وحدات من العجم ضمن

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٦

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٩

(٣) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٩

(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج ٤ قسم ٢ ص ١١٢

(٥) الطبرى ج ٧ ص ١٤٦ ؛ البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج ٥ ص ٢٥١

(٦) الطبرى ، ج ٧ ص ٢٠٧ ؛ المبرد : الكامل ج ٣ ص ١١١٨ .

القبائل العربية ، فأدخل مع (أياد وعك) عبد القيس والحمراء[1] وذلك لجعل عدد أفراد القبائل متوازياً .

أما تعداد كل قبيلة فلم يكن واضحاً لأن القبائل التى سكنت الكوفة لم تكن متساوية فى العدد ، فكان بعضها كبير العدد والآخر قليلا كما أن عدد أفرادها قد يزيد أو ينقص تبعاً للأحوال السياسية وحاجة الدولة إلى نقل قسم من القبائل إلى مكان آخر . وليس أدل على ذلك من نقل زياد ابن أبيه أربعين ألفاً من مقاتلة أهل البصرة والكوفة مع عيالهم وإسكانهم خراسان[2] .

ويضاف إلى هذا أن هجرة العشائر لم تكن منتظمة إلى المدن وذلك لأن الهجرة لم تكن سهلة وميسورة فى بعض الأحيان كما أن الأعداد كانت تزيد بزيادة الوافدين من أفراد العشائر من الصحراء أو تنقص نتيجة نقل الدولة عدداً كبيراً منهم أو قتلهم فى الحروب .

أما عن تعداد سكان الكوفة فليست لدينا إحصائيات دقيقة عنه وإنما وردت إشارات طفيفة فى بعض المصادر فذكر ياقوت أن سكان الكوفة عند تخطيطها كانوا أربعين ألفاً[3] ثم زاد سكان الكوفة بمرور الزمن حتى بلغوا قبيل موقعة صفين (سبعة وخمسين ألف ومواليهم وعماليكهم ثمانية آلاف)[4] . إن هذه الإحصائيات لا يمكن الاعتماد عليها ، وذلك لأن مجتمع الكوفة كان غير مستقر فهو عرضة للزيادة والنقصان تبعاً لظروف البلد العسكرية والسياسية .

وعلى أساس هذا التقسيم القبلى ظهرت عدة وظائف ومن الوظائف المهمة وظائف (رؤوس الأسباع) وهم رؤساء الأقسام

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٠٠ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٧ ط مصر ١٩٠٦م .

(٤) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٨ .

السبعة[١] التى قسمت بموجبها قبائل الكوفة عند تخطيطها . إن هذا التنظيم أوجده سعد بن أبى وقاص كما رأينا سابقاً عندما كان أميراً على الكوفة ، وقد ظلت الكوفة على هذه الأقسام السبع فى الثلاثين سنة الأولى إلى أن غيرها زياد بن أبيه وجعلها أربعة أقسام[٢] .

وكان هؤلاء الرؤساء يختارون ممن لهم نفوذ شخصى كبير بين قبائلهم وممن لهم مكانة عالية فى القبائل الأخرى . وكانت السلطة التى تمتعوا بها مستمدة من مراكزهم وصفاتهم الشخصية والاجتماعية واشترط أن يعرفوا بالبأس والنجدة والتجربة فى الحرب وأن يكونوا من فرسان الناس ووجوهم وأولى الفضل منهم[٣] .

وقد زود هؤلاء بسلطة عسكرية وإدارية ومالية ، فكانوا فى أوقات السلم يديرون شئون القبيلة ويحكمون فى الخلافات والخصومات التى تحدث بين أفراد القبيلة ، كما أنهم يوزعون العطاء عليهم بعد أخذه من الدولة . وهم المسئولون عن تصرفات قبائلهم مسئولية فعلية تجاه الوالى أو الأمير بصورة مباشرة وهم الرادعون لفتنها وأعمالها المعادية للدولة . كما أنهم الواسطة بين القبيلة وبين الأمير فى نقل تعاليمه إليهم .

هذا وقد كان لرؤساء (الأسباع) أهمية كبيرة جداً فى أوقات الأزمات السياسية ، فقد خرج رؤوس الأخماس من البصرة إلى الكوفة (فى مكان يدعى النخيلة) مع أبى الأسود الدوئلى مؤيدين علياً فى حربه ضد معاوية معلنين ولاءهم وولاء أهل البصرة لعلى بن أبى طالب وذلك قبل بداية معركة صفين[٤] كما أن الحسين بن على أرسل رسائل إلى رؤساء الأسباع فى الكوفة

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ١٥٢ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٠ — ١١ .
(٢) الطبرى ، ج ٣ ص ١٥٣ .
(٣) الطبرى ، ج ٧ ص ٢٠٧ .
(٤) نصر بن مزاحم : وقعة صفين ص ١٣١ .

يدعوهم إلى تأييده ونصرته فى مناهضة الحكم الأموى[١].

كما أرسل المختار الثقفى رسائل أيضاً لرؤساء الأسباع فى الكوفة عندما ثار على بنى أمية . أما فى أوقات الحرب فكانوا قادة لأسباعهم فقد قاد رؤساء الأسباع فى الكوفة أسباعهم فى حرب صفين .

كما أنهم كانوا يقودون الحملات الكبيرة المنتظمة وكانوا يتمتعون بسلطة إدارية وعسكرية واسعة ، كما أن هؤلاء الرؤساء فى بعض الأحيان كانوا يقودون حملات عسكرية صغيرة من تلقاء أنفسهم . أشار الطبرى إلى أن رؤساء الأخماس فى البصرة فى عهد مصعب بن الزبير قد شنوا هجوما على الكوفة فى حربه مع المختار[٢].

كما أن المختار شن حملة مماثلة قادها رؤساء الأسباع ووجهها لقتال مصعب ابن الزبير[٣] .

كان رؤساء الأسباع فى الكوفة عادة خاضعين مباشرة لسلطة الأمير أو الوالى الذى يحكم المصر حيث نجد الولاة يتصلون بجمهور الناس عن طريق زعماء القبائل ورؤساء أسباعهم .

لقد وجدت الدولة أن هذا النظام قد يساعد على ضبط العطاء وتوزيعه بالنسبة لكثرة عدد أفراد القبيلة . فكان لا بد من إيجاد نظام جديد يلائم ظروف المصر الجديدة فأوجدوا وحدات اجتماعية صغيرة جديدة أصغر من الربع أو السبع لا علاقة لها بالنسب أو القربى ، فنشأ نظام «العرافات» وقد خصص لكل عرافة مبلغ من المال يوزع على أفرادها توزيعاً عادلا يعينه الأمير أو القائد ، وقد يختلف مقدار هذا المال من معركة إلى أخرى ومن وقت لآخر .

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٤٥ .

(٢) الطبرى ، جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٣) الطبرى ، جـ ٢ ص ١٤٧ .

وقد أشار الطبرى إلى معركة القادسية وإلى عرافاتها وعن مقدار المال الذى خصصه سعد بن أبى وقاص لكل عرافة فقال : « وعرفوهم على مائة ألف درهم فكان لكل عرافة فى القادسية خاصة ثلاثة وأربعون رجلا وأربعون إمرأة وخمسين من العيال لهم مائة ألف درهم ، وكل عرافة من أهل الأيام عشرين رجلا على ثلاثة آلاف ، وعشرين إمرأة وكل عيل على مائة ألف درهم وكل عرافة فى الرادفة الأولى ستين رجلا وستين إمرأة وأربعين من العيال ممن كان رجالهم ألحقوا على ألف وخمسمائة على مائة ألف درهم ثم على هذا من الحساب . وعلى مثل ذلك كان هذا العطاء يدفع إلى أمراء الأسباع وأصحاب الرايات (والرايات على أيادى العرب) ويدفع أمراء الأسباع هذا العطاء إلى العرفاء والنقباء والأمناء فيدفعون إلى أهلهم فى دورهم »[١] ، وقد استعمل سعد بن أبى وقاص هذا النظام فى موقعة القادسية رغبة منه فى جعل الجيش أشد صلابة وتلاحماً وانسجاماً وكان سعد ينظر إلى هذه الكتلة كلها نظرته إلى جماعة واحدة لا انقسام بينها ولا تفريق .

وعلى هذا فقد أملت ظروف العرب العسكرية والاجتماعية والاقتصادية فى الكوفة ضرورة تقسيم القبائل الكبيرة إلى وحدات صغيرة ليسهل توزيع العطاء على أهل العطاء ، وتنظيم عمليات القتال ولتسهيل إدارة هذه الوحدات .

ومن الموظفين الذين كان يعتمد الأمير عليهم بعد رؤوس الأسباع فى توزيع العطاء والسيطرة على السكان وفى إدارة المنطقة ، العرفاء ، ولم يكن نظام العرفاء هذا جديداً ، فقد كان هذا النظام موجوداً منذ العصر الجاهلى ، كما أنه قد وجد فى زمن الرسول وليس أدل على ذلك من قول الرسول « أفلحت ياقديم إن لم تكن أميراً ولا جابياً ولا عريفاً »[٢] .

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ١٥٢ .

(٢) أبو داود : السنن ، ج ٣ ص ١٣١ ؛ ابن حنبل : المسند ج ٤ ص ١٣٣ .

وقال الرسول أيضاً « إن العرافة حق ولا بد للناس من العرفاء ولكن العرفاء فى النار »[١] .

كما أن هذه العرافات وجدت فى زمن أبى بكر وعمر بن الخطاب وعثمان فقد أشار الطبرى إلى أن سعداً قبيل موقعة القادسية فى منطقة شراف « قدر الناس وعباهم بشراف وأمر أمراء الأجناد وعرف العرفاء ، فعرف على كل عشرة ، رجلا كما كانت العرافات فى أزمان النبى وكذلك كانت إلى أن فرض العطاء وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالا من الناس لهم وسائل فى الإسلام »[٢] .

ووجدت العرافات أيضاً فى عهد الإمام على بن أبى طالب[٣] وروى عن على أنه قال « أنها ساعة لا يدعو عبداً إلا استجيب له فيها إلا أن يكون عريفاً أو شرطياً أو جابياً أو عشاراً »[٤].

هذا وقد أعيد تنظيم هذه العرافات فى زمن زياد بن أبية فى العراق بشكل جديد .

وقد كان لكل عريف واجبات خاصة فهو القائم على أمور القبيلة أو عرافته يتعرف أحوالهم ، وهو الذى يوزع العطاء ويدفعه إلى أهله فى دورهم[٥] . وقد يزيد فى العطاء أو ينقص وينظم سجلات بأسماء النساء والأطفال والمقاتلة وتجهيزاتهم ومقدار أعطياتهم وعدد مواليهم[٦] .

كما أن العريف يسجل موت من يموت ومولد من يولد يحذف عطائه

---

(١) أبو داود : السنن ، ج ٣ ص ١٣٢ .
(٢) الطبرى : ج ٣ ص ٨ ؛ محمد حميد الله خان : مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٣٠ .
(٣) ابن سلام : الأموال ص ٤٤ .
(٤) الأصفهانى : حلية الأولياء ج ١ ص ٧٩ .
(٥) الطبرى ، ج ٣ ص ١٥٢ .
(٦) الطبرى ، ج ٧ ص ٢٠٧ .

أو أضافته كما أن العرفاء كانوا مسئولين مسئولية كاملة عن الأمن والنظام في عرافاتهم فهم يراقبون مسببي الاضطرابات والفتن والمشاغبين كما أن العرفاء كانوا مسئولين عن الديات التي تطلب من أفراد عرافاتهم.

أما في أوقات الحرب فقد كانوا يندبون الناس للقتال ويحثونهم على الحرب(١) ويضربون على الناس البعث ويخبرون الأمير عن الأشخاص الذين يتقاعسون أو يتخلفون عن القتال أو الذين يتمردون عليه(٢)، كما أنهم يساعدون الأمير في سيطرته على الجيش وتعبئته وتوجيهه الوجه المطلوبة وإيصال أوامر الأمير إلى المقاتلين وتعليماته في سيرهم للحرب أو نزولهم للراحة والانتظار(٣) وغيرها كما أن هؤلاء العرفاء كانوا يقودون عرافاتهم في أوقات الحرب ضمن الأسباع وأنهم كانوا واسطة بين رؤساء الأسباع وأعشارهم في إيصال التعليمات والأوامر الصادرة عنهم.

وإذا قصر هؤلاء العرفاء بواجبهم فإن الحكومة تنزل بهم عقوبات صارمة أو تنحيهم عن عملهم نتيجة لهذا لإهمالهم(٤).

لذلك كان لا بد أن يتصف العريف هذا بصفات معينة تؤهله لهذا المنصب فكان ينبغي أن يكون ذا شخصية قوية وأن يكون شجاعاً وأن يتصف بالدهاء والحلم وأن يتمتع بسلطات تمكنه من تنفيذ واجباته وأعماله المطلوبة بشكل مرضي(٥).

ويكون تعيين العريف عادة من قبل الأمير ويظل هذا العريف في وظيفته هذه ما دام الأمير راضياً عنـــه ولا يهمه أن غضب الناس عليه

---

(١) الطبري : جـ ٧ ص ٢١١ .

(٢) الطبري : جـ ٧ ص ٢٢٦ .

(٣) الطبري : جـ ٧ ص ٢٤٠ .

(٤) الأصفهاني : الأغاني جـ ٢ ص ١٧٩ .

(٥) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ٩٩ .

أم لم يغضبوا ، وليس أدل على ذلك من رسالة أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى عدى بن ارطاة وإلى البصرة قال فيها « أن العرفاء من عشائرهم بمكان ، فأنظر عرفاء الجند فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فأثبته ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه وأبلغ فى الأمانة والورع »[١] .

هذا وقد كان عدد العرفاء فى الكوفة مائة عريف[٢] . والعريف عادة يكون على عشرين رجلا أو ثلاثين أو أربعين أو ستين[٣] رجلا وبعضهم على عشرة على حسب طبقات الجند من حيث السابقة[٤] . والعريف يكون مكروه من الناس مذموم بسبب تعسفه وظلمه وجوره واستغلال وظيفته استغلالا بشعاً . وليس أدل على ذلك من قول الرسول ينهى الناس أن يكونوا عرفاء فقال « أفلحت يا قديم أن لم تكن أميراً ولا جابياً ولا عريفاً[٥] » . وقال أيضاً فى ذم العريف « إن العرافة حق ولا بد للناس من العرفاء ولكن العرفاء فى النار »[٦] .

وقد روى عن على بن أبى طالب أنه ذم العريف بقوله « إنها ساعة لا يدعو عبد إلا استجيب له فيها إلا أن يكون عريفاً أو شرطياً أو جابياً أو عشاراً »[٧] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٥ ص ٢٩٣ ؛

(٢) الطبرى : ج ٣ ص ١٥٢ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) الطبرى : ج ٣ ص ٩ .

(٥) أبو داود : السنن ج ٣ ص ١٣١ ؛ ابن حنبل : المسند ج ٤ ص ١٢٣ .

(٦) أبو داود : السنن ج ٣ ص ١٣١ .

(٧) الأصفهانى : حلية الأولياء ج ١ ص ٧٩ .

وعندما توفى أبو ذر الغفارى قال « أنشدكم بالله أن لايكفنى رجل كان أميراً أو عريفاً أو بريداً »[١] .

وأغلب الظن أن وظيفة العريف كانت مكروهة بهذا الشكل لاستغلالهم وظيفتهم وتعسفهم وجورهم . وذكر البلاذرى[٢] « أن شجاراً وقع بين امرأة من أهل المدائن . وبين عريفها فأسقط اسمها من الديوان فجاءت إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز تشكو هذا العريف ، فكتب إلى والى المدائن يطلب فيها إعادة عطائها » .

وقد تطلبت الحياة القبلية فى الكوفة استحداث وظيفة (المنكب) وقد أشار البلاذرى إلى أن هذه الوظيفة أنشئت زمن زياد بن أبيه[٣] وقيل فى زمن عبيد الله بن زياد[٤] . وهذه الوظيفة كانت أقل من وظيفة العريف وقيل أن المنكب معاونه[٥] .

وقد وجدت وظيفة أخرى مثل (النقيب) وقيل إنها أقل من العريف[٦] .

* * *

(١) ابن الأثير : أسد الغابة ج ١ ص ٣٠٢ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٦٤ (مخطوط) .
(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤١٥ (مخطوط) .
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٨ .
(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٨ .
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٨ .

أثر الفتح الاسلامى فى اختلاط القبائل العربية فى الكوفة

لقد كان خروج العرب من الجزيرة العربية إلى العراق بسبب الفتح مقدمة لعملية الاختلاط ، فقد كان هذا الخروج يتخذ شكلا جديداً بعيداً كل البعد عن التجمع القبلى أو العصبية القبلية لأول مرة فى التاريخ العربى فكان الانتداب للحرب . والجهاد لا يتخذ شكلا قبلياً لأن الخليفة عندما كان يستنصر القبائل على الجهاد ويرغب الناس فيه ويحثهم عليه كانت الجموع تتوافد على المدينة من كل حدب وصوب من أنحاء الجزيرة العربية فتجتمع هذه الوفود ليرسلها إلى الجهة التى يراها بحاجة إلى مدد فيمدها بالجنود بعد أن يعين أميراً عليهم وقد ذكر الطبرى[١] أن «أمير المؤمنين كان إذا اجتمع إليه جيش من أهل الإيمان أمر عليهم رجلا من أهل العلم والعفه فاجتمع إليه جيش فبعث عليهم سلمة» .

كان لهذه الفتوحات أثر كبير فى مزج القبائل وصهرها فى بوتقة الإسلام انصهارا كاملا وتكوين طابع جديد يميزها تمييزاً واضحاً عن طابعها القبلى القديم الذى تميزت به قروناً عدة . وليس أول على ذلك فى قول الطبرى[٢] «وتتابع أهل العراق من أصحاب الأيام الذين شهدوا اليرموك ودمشق ورجعوا محدين لأهل القادسية فتوافو بالقادسية من الغد وبعد الغد وجاء أولهم يوم أغواث وأخرهم من بعد الغد من يوم الفتح ، قدمت إمداد فيها مراد وهمدان ومن أفناء الناس» .

أن هذا يدلنا دلالة واضحة على أن العرب لم يخرجوا للفتح على أساس قبلى أو فردى أو على نطاق القبيلة حيث أن «أهل العراق من أصحاب الأيام» لم يكونوا قبيلة واحدة وإنما كانوا من قبائل متعددة خرجوا مؤمنين برسالة سامية يحدوهم الأمل فى نشرها والدفاع عنها .

ومن العوامل الأخرى التى ساعدت على الاختلاط أن المحاربين فى الجيش الإسلامى كانوا يستصحبون نساءهم إلى جهات القتال نظرا لحاجتهم الماسة اليهن ولا سيما عندما كانت تطول مدة القتال فقال الطبرى[٣] «لم يكن

(١و٢و٣) الطبرى ، ج ٣ ص ٩٠ ، ٨٤ ، ٨٢ .

من قبائل العرب أحداً أكثر امرأة يوم القادسية من بجيله ، والنخع ، كان فى النخع سبعمائة امرأة فارغة وفى بجيله ألف وأن هؤلاء وهؤلاء صاهروا أحياء العرب وأن المهاجرين تزوجوهن حتى استوعبوهن وأن النخع وبجيله كانت تسمى لذلك أصهار العرب واختان المهاجرين » .

إن هذا التزاوج أدى بلا شك إلى توسيع روابط القبيلة الواحدة مع عدد من القبائل بعد أن كانت روابط الزواج تكاد تكون محصورة فى قبيلة واحدة .

ثم تتابعت مظاهر الاختلاط بين القبائل حين استقرت فى المدن واختلط بعضها ببعض اختلاطاً واضحاً فكان أعمق مدى وأبعد أثر لاشتراكها فى حياة مدينة واحدة ، حتى أن سلطة القبائل السياسية وروابطها القائمة على أساس علاقة الدم تأثرت كثيراً بعد استقرارها فى المصر وخضوعها لسلطة الأمير العليا التى لم تكن تستمد قوتها من رابطة الدم[١] .

ومن العوامل الأخرى التى أدت إلى إضعاف الروابط القبلية الدين الإسلامى الذى يدعو إلى الأخوة والمساواة بين معتنقيه بصرف النظر عن أصلهم وجنسهم ولونهم وخلقهم . وليس أدل على مدى الاختلاط فى الكوفة من أن نقرأ أسماء القبائل التى نزلتها . فنجد فيها قبائل من الشمال وقبائل من الجنوب ، ومن نجد ومن الحجاز ، قبائل من مضر وأخرى من ربيعة ، وغيرها . وبذلك محيت الفروق المكانية بين القبائل كما أنها حاولت أن تمحى الفروق الأخرى أو تخفف من حدتها ، فربطت بين بعض القبائل ولم تدع كل قبيلة أن تعيش وحدها فكونت كتل جديدة تسمى الأسباع حيث قسم سعد سكان المدينة إلى سبعة أقسام . ومما لا شك فيه أن هذا التقسيم الجديد أدى إلى صياغة المجتمع الكوفى صياغة جديدة :

ولما تولى زياد بن أبية أمر الكوفة خطى خطوات واسعة أخرى نحو

---

(١) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ٤٣ .

التجمع فدمج القبائل فى بعضها بشكل أقوى بكثير مما قام به سعد فعدل زياد هذه الأسباع فجعلها أرباعاً ، ومزج القبائل المختلفة داخل كل ربع هادفاً فى ذلك آضعاف الروح القبلية ، وصار هذا أقرب إلى توحيد القبائل وتجمعها . كما قصد زياد فى هذا التقسيم إلى تثبيت دعائم الحكم ونشر الأمن والنظام فى ربوع الكوفة ، وأراد بذلك أيضاً المحافظة على وحدة الجيش وتماسكه والابتعاد به عن العصبية القبلية التى تمزقه وتشتت شمله إذا ما تفشت به وسيطرت عليه(١) .

إن هذه الخطوات التى اتخذها زياد فى دمج القبائل العربية مع بعضها فى الكوفة كان لها أعظم الأثر فى نفوس القبائل العربية التى سكنت الكوفة حيث أخذت تهيؤها نفسياً لتدرك أن الحياة المدنية شىء آخر غير الحياة البدوية التى تعود عليها العرب فى حياتهم الأولى فى الجزيرة العربية فكانت بداية للون جديد فى الحياة المدنية تربط بينها وشائج المدينة وعلائق الاجتماع وروابط الحياة الحضارية الجديدة(٢) .

إن الحياة الاجتماعية لعرب الكوفة لم تبق على ما تركها عليه زياد فى دمج القبائل وإنما أخذت تتحول إلى شكل جديد آخر بحكم الحياة الجديدة المستقرة .

إن سكنى القبائل العربية فى الكوفة جنباً إلى جنب جعلهم يشعرون أنهم أبناء مدينة واحدة تفرض عليهم نوعاً من العلاقات الاجتماعية جعلهم يشعرون بأنهم وحدة متجـــانسة متشابه الملامح والسمات فبدأ يتسرب إلى نفوسهم إحساس بالمدينة . ولكن هذا الإحساس لم يقض على إحساسها المتأصل بالقبيلة وإنما ظل رواسب لا شعورية فى أعماق تفكيرها . أى تحولت العصبية القبلية إلى عصبية للمدينة التى سكنوها(٣) .

ومن هنا بدأت تظهر ظاهرة جديدة حيث تحولت الحياة القبلية إلى

---

(١) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص١٩ (غير مطبوع) .

(٢) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ١٦ (غير مطبوع) .

(٣) أحمد أمين : فجر الاسلام جـ ١ ص ٢٢٣ .

حياة قبيلة تؤمن بالمدينة نستطيع أن نسميها (الإقليمية) أو التأقلم . وهى أن تسمى القبيلة باسم المدينة مثل تميم الكوفة وتميم البصرة وأزد الكوفة وأزد البصرة(١) . وليس أدل على ذلك من قول المبرد فقال « لقد حدثت فتنة فى البصرة بين الأزد وربيعة بعد وفاة يزيد وكادت أن تنشب الحرب بينهم وقد استطاع الأحنف بن قيس أن يهدىء هذه الفتنة فقال يا معشر الأزد وربيعة أنتم إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الصهر وأشقاؤنا فى النسب وجيراننا فى الدار ويدنا على العدو ، والله لأزد البصرة أحب إلينا من تميم الكوفة وأزد الكوفة أحب إلينا من تميم الشام »(٢) .

لم يقف تطور العرب إلى هذا الحد من الشعور بالعصبية القبلية والمدينة معاً وإنما تعداها إلى أبعد من ذلك ، حيث قطع العرب خطوات كبير نحو التجمع فى الكوفة بعد أن ذابت الفروق المكانية بين القبائل فصار الشعور بالمدينة وحدها فوق كل شىء وإن كتب التاريخ تذكر لنا أمثلة كثيرة على ذلك فتقول «سار أهل الكوفة ، وجاء أهل البصرة ، وقاتل أهل الكوفه أهل البصرة » دون ذكر اسم القبيلة التى تسكن ذلك المصر .

إن إنشاء المدن فى الحقيقة تجربة جديدة رائدة فى حياة العرب الاجتماعية فكانت على الرغم من كل شىء موفقة فى مقاصدها ناجحة فى أهدافها ومراميها ، على الرغم من أنها نكصت على عقبيها فى بعض الأحيان لسوء السياسة التى اتبعها بعض الخلفاء والولاة أو نتيجة لبواعث الفتنة والشقاق التى تؤججها نار التحزب والطائفية وغيرها .

قد عاش هؤلاء العرب فى الكوفة حياة اجتماعية خاصة لم تختلف كثيراً عن لون حياتهم فى شبه الجزيرة العربية قبل قدومهم إلى العراق ولم ينفرد عرب الكوفة هؤلاء بلون مختلف فى الحياة الاجتماعية إلا فى أواخر العصر العباسى وعلى أى حال نستطيع أن نعطى صورة عن المجتمع العربى الأول

---

(١) المبرد : الكامل ، جـ ١ ص ١٢٢ ؛ الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ٣ ، ٢ ص ١٤٠ .

(٢) نفس المصدر السابق .

فى نواحى الزواج والطلاق والملابس والطعام والوفاة والجنائز ...

الزواج والطلاق :

كان الزواج عند أهل الكوفة شأنه شأن الزواج عند العرب ، فكان يتم بالخطوبة ثم عقد القران ، وكان على الزوج أن يدفع مهراً أو «صداقا[١]» ولم يحدد مقدار المهر بشكل واضح . وقد اختلف مقداره فى الكوفة بالنسبة لحالة الزوجين الاجتماعية . وروى أن الرسول أعطى مهراً لبعض زوجاته أربعمائة درهم[٢] . وقد طلب عمر بن الخطاب أن لا يزيد المهر على خمسمائة درهم . وروى أنه قال « لا تغالوا فى صدقات النساء فإنه لو كان تقوى الله أو مكرمة فى الدنيا كان نبيكم (ص) أولاكم بذلك ، ما أصدق نساءه ولا بناته أكثر من إثنى عشرة أوقيـــة ، وهى ثمانون وأربع مائة درهم[٣] . ومما لا شك فيه كانت الطبقات الفقيرة تدفع أقل من ذلك المهر بكثير . وقد زوج سعيد بن المسيب إحدى بناته على درهمين من ابن أخيه[٤] . كما كان الفرد من أهل الكوفة يستطيع الزواج بدرهم واحد[٥] .

أما الأغنياء المترفون فكانوا يدفعون مهوراً ضخمة أضعاف ذلك المبلغ الذى حدده عمر بن الخطاب . فقد دفع مصعب بن الزبير مهراً لسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة نصف مليون درهم لكل منهن[٦] . وعندما قتل مصعب تزوجت عائشة عمر ابن عبيد الله بن معمر التيمى لما قدم الكوفة فأصدقها خمسمائة ألف درهم وأهداها خمسمائة ألف أخرى[٧] (أى نصف مليون درهم) وقد دفع الحجاج

---

(١) أبو داود : السنن ج ٢ ص ٢٣٤ ؛ دومبيين : النظم الاسلامية ص ١٧٤ .

(٢) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٨ ص ١١٦ .

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٨ ص ١١٥ — ١١٦ .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٥ ص ١٠٢ ؛ ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٤ س ٧٠ .

(٥) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٧٠ .

(٦) الأصفهانى : الأغانى ج ١٠ ص ٥٣ ج ١٤ س ١٦١ .

(٧) الأصفهانى : الأغانى ج ١٠ ص ٥٥ .

ابن يوسف الثقفي مهراً لهند بنت أسماء مائة ألف درهم وثيابا كثيرة وجوارى وغلمان[١] . وقد تزوج محمد بن سيرين امرأته السدوسية بعشرة آلاف درهم[٢] وتزوج عمر بن الخطاب أم كلثوم بنت على بن أبى طالب على أربعين ألف[٣] درهم وقيل بعشرة آلاف درهم[٤] .

وقد تزوج رجل فى الكوفة من (بنى أسد) امرأة من كندة على مهر قدره ألفا درهم أن تركها فى دارها وأربعة آلاف إن أخرجها من دارها[٥]. وقد زوج شبرمة (قاضى الكوفة) ابنه على ألفى درهم[٦] . وتزوج آخر فى الكوفة أيضاً بمهر قدره ستمائة درهم[٧].

أما إذا طلق الرجل المرأة فيجب أن يدفع مؤخر الصداق كاملا أو يمتعها .

وقد اختلف الفقهاء اختلافاً كبيراً فى تحديد مقدار المتعة فقال ابن عباس « المتعة أعلاها خادم أو نفقة وأدناها كسوة » .

وقال الشعبى : « أوسط المتعة للمرأة كسوتها فى بيتها ودرعها وخمارها وجلبابها ومنطقها وإزارها وملحفتها[٨] .

وعندما طلق شريح القاضى زوجته كبشة بنت الحارث متعها بخمسمائة

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٨ س ١٣٩ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٤ ص ٧١ .

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٤ ص ١٢٧ ! .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٢٧ .

(٥) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٦٥ .

(٦) وكيع : أخبار القضاة ج ٣ ص ١١٨ .

(٧) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٣٢ .

(٨) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٣٢٤ .

درهم[١] . ومتع الاصبغ بن عبد العزيز بن مروان زوجته سكينة بنت الحسين بعشرين ألف دينار عندما طلقها[٢] .

الملابس :

لقد كان لباس العرب عادة بسيطا جداً كالقميص والحلة[٣] والأزار والشملة[٤] والمطوف[٥]، والعباءة والجلباب والكساء والحبرة[٦] والمرط[٧] والشرب[٨] والردف[٩] والخيصة[١٠] والسحولى[١١] والسابرى[١٢] والكرباس[١٣] والكوفية والعمامة وغيرها .

ولم يكن العرب من سكان البادية يعرفون السراويل أو (الشراويل) فى ذلك العصر حيث كان هذا من لباس الفرس وأهل الذمة روى الشوكانى عن أبى أمامة قال « قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يتسرولون ولا يأتزرون»[١٤] .

---

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ١٤ ص ١٦٢ .

(٣) الحلة : ثوبين اثنين ؛ الثعالبى : فقه اللغة ص ١٥٦ .

(٤) الشملة : ثوب منسوج من الوبر Dozy, p. 788

(٥) المطرف : كساء فى طرفيه علمان ؛ الثعالبى : فقه اللغة ص ١٥٨ .

(٦) الحبرة : برد يمانى يكون من كتان أو قطن وسميت حبرة لأنها محبرة (أى مزينة) ويكون ذو حمرة تضرب إلى السواد ؛ المبرد : الكامل ج ٢ ص ٢٢٥ .

(٧) المرط : كساء من صوف أو خز . « الجمع » مروط وقيل كساء من خز أو كتان الشوكانى . نيل الأوطار ج ٢ ص ١٥٦ .

(٨) الشرب : مارق من الكتان — الثعالبى : فقه اللغة ص ١٥٦ .

(٩) الردف : ما غلظ من الخز — الثعالبى : فقه اللغة ص ١٥٦ .

(١٠) الخيصة : ملاءة معلمة من خز أو صوف يؤتز بها — الثعالبى : فقه اللغة ص ١٥٧

(١١) السحولى : كل ثوب مصنوع من قطن أبيض ؛ الثعالبى : فقه اللغة ص ١٤ .

(١٢) السابرى : إذ كان لابسه بين المكتسى والعريان — الثعالبى . فقه اللغة ص ١٥٥ .

(١٣) الكرباس : قميص الأبيض الغليظ .

(١٤) الشوكانى : نيل الأوطار ج ٢ ص ٨٨ .

وقد شاع لبس السراويل فى الكوفة واعتبرت السراويل ملبساً مفضلا وقيل « إن الحكمة فى لبس السراويل أنه ساتر العورة وهى ما بين السرة والركبة»[1] .

وما كاد العرب يستقرون فى بلاد العراق حتى اختلطوا بالفرس وغيرهم من أهل الأمصار فتأثرت ملابسهم تأثيراً كبيراً بما لديهم من مدنية واسعة وترف ورخاء عريض .

وقد لبس الكوفيون الملابس الغالية الثمن عندما انغمسوا فى الترف فلبسوا الحرير على أنواعه وتفننوا بأنواع المنسوجات (كالملحم والعتابية والسقلاطون)[2] .

كما لبس العرب (السدوس ، والساج والطيلسان)[3] وقد أحب الأمراء الوشى الكوفى فقلدهم الناس فى ذلك فشاعت المنسوجات الموشاة فى أيامهم وقد أشار المسعودى إلى انتشار صناعة الوشى فى الكوفة فى عهد سليمان ابن عبد الملك فقال « ولبس الناس جميعاً الوشى جبابا وأردية وسراويل وعمائم وقلانس وكان لا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا فى الوشى وكذلك عماله وأصحابه ومن فى داره وكان لباسه فى ركوبه وكان لا يسمح لأحد فى الدخول عليه حتى خدمة إلا فى الوشى »[4] .

---

(١) المبرد : الكامل ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) Pope : Survey of Persionart, vol. III, p. 1946.
الملحم ، وهى ثياب سداها من الحرير ولحمتها من القطن Dozy, p. 113 العتابية ؛ وهى ثياب مخططة تصنع من خيوط القطن والحرير Dozy, p. 4136 .

(٣) الطيلسان والساج والسدوس . ما يتدثر به من ثياب النوم — الثعالبى فقه اللغة ص ١٤٧ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١١١ .

لذلك اختلفت ملابس أهل الكوفة اختلافاً كبيراً كل حسب درجته الاجتماعية ومهنته ومركزه السياسى حتى أصبح لكل طبقة من طبقات المجتمع زياً خاصاً يميزها عن غيرها كما أصبح لكل مناسبة من المناسبات زى معين(١) .

أشار الجاحظ إلى اختلاف هذه الملابس والأزياء فقال « وقد يلبس الناس الخفاف والقلانس فى الصيف كما يلبسونها فى الشتاء إذا دخلوا على الخلفاء وعلى الأمراء ، وعلى السادة والعظماء لأن ذلك أشبه بالاحتفال والتعظيم والإجلال وأبعد عن التبذل والاسترسال »(٢) كما لبس أهل الكوفة (البجاد)(٣) . وكان أصحاب السلطان عادة يلبسون المبطنة أو الدراعة أو العباء ومنهم من يلبس (القزا كند)(٤) ويعلق الخنجر . وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات والأردية السود(٥) كما لبس زهاد الكوفة الملابس الصوفية الرخيصة(٦) وقد اختلف فى لبس العمامة وشكلها فأشار الجاحظ إلى أن للخلفاء عمة وللفقهاء عمة وللبقالين عمة وللأعراب عمة وللنصارى عمة وهكذا(٧) . وكانت العمامة من الملابس المحترمة عند المسلمين ولها أهمية كبيرة ، فقد وصفها عمر ابن الخطاب بقوله « العمائم تيجان العرب »(٨) . وقال فيها الإمام على أن « جمال الرجل فى كمته والقنسوة »(٩) .

---

(١) الجاحظ . البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٣ .

(٢) الجاحظ . البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٣ .

(٣) وهو كساء مخطط Dozy, p. 55

(٤) القزاند : وهى كلمة فارسية مكونة من مقطعين الأول : القز ، ومعناها الحرير . والثانية : كند : معناها محشواً فتكون ثوباً محشواً قزاً أو قطناً — الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٤ .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٤ .

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٧٣ .

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١٠٣ .

(٨) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٥ .

(٩) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٨٥ .

الطعام :

لقد كان طعام العرب أول الأمر قاصرا على الألبان وما يستخرج منها كالسمن والزبد والجبن ، ومن التمر والحبوب واللحوم وخبز الشعير والمريس[١] يأكلونها على أبسط ما يكون من أحوالها .

فلما فتحوا العراق وفارس ومصر وغيرها تعرفوا على حضارة الفرس والروم ووقعوا على ألوان من الأطعمة لم يعرفوها من قبل فقلد العرب الفرس فى ترفهم فى أيام بنى أمية ، وأول من قلد الأعاجم فى أسباب الترف من الخلفاء معاوية بن أبى سفيان فنعم بمأكله ومشربه[٢] واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ولا سيما بعد أن كثرت الأموال فى أيديهم .

هذا وقد تأثر عرب الكوفة بالفرس فى آداب الطعام فكان الفرس لا يتحدثون أثناء تناولهم الطعام ، هذا وحفلت موائدهم بأنواع الطعام كما تعددت أصنافه .

وقد أشار ابن خلدون إلى تقليد العرب الفرس فى طعامهم فقال « أراد الحجاج أن يولم وليمة احتفالا بختان ولد له فاستحضر بعض الدهاقين ليسألهم عن ولائم الفرس »[٣] .

وكان من عادة أهل الكوفة ولا سيما الولاة منهم اطعام عامة الناس حيث أقاموا لهم المآدب الخاصة التى حفلت بألوان الطعام فكان زياد بن أبيه فى العراق يطعم السابلة والفقراء وذى الحاجات « فكان يغذى ويعشى العامة كل يوم عدا الجمعة فإنه كان يعشى ولا يغذى وكان لا يرد عن طعامه أحد

---

(١) المريس : وهو الخبز الرقاق يمرس بالسمن والتمر ، كما يصنعه أهل مصر بالعسل بدل التمر وهو الذى يسمونه (البسيسة) Dozy, p. 860.

(٢) جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ج ١ ص ٨٨ .

(٣) ابن خلدون : المقدمة ص ٢ ١٢ .

وكان يتمجج (يشرب) عنده اللبن من حضره »[١] . وكان لعبيد الله بن زياد طعام لخاصته وحرسه ولم يكن له طعام للعامة[٢] . وقد حفلت هذه الموائد بألوان الطعام وأصنافه .

وكان الحجاج يطعم فى كل يوم على ألف مائدة ، وعلى كل واحدة منها ثريد وجنب من شواء وسمك طرية وعلى كل مائدة منها عشرة وكان له ساقيان يطوفان بين الموائد أحدهما يسقى الماء والعسل والآخر يسقى اللبن[٣] .

هذا وقد سار بعض سراة الكوفة على نهج ولا تهم فى إطعام الناس فظهرت جماعة يتبارون فى عمل الولائم فكان منهم من أرسل الجفان ملأى بالطعام فى أحياء القبائل وعلى أفواه السكك والدروب لإطعام الناس[٤] وكانت هذه الولائم تكثر فى شهر رمضان[٥].

كما أن هذه الموائد كانت تنصب لأغراض سياسية بالإضافة إلى الغرض الدينى والإنسانى ، وذكر الطبرى أن عبد الملك بن مروان دخل الكوفة لما قتل مصعباً فأمر بطعام كثير فصنع وأمر به إلى الخورنق وأذن إذناً عاماً[٦] .

وتحدث بعض الفقهاء ، والكتاب عن الطعام وأنواعه فذكر الجاحظ

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج ٤ قسم ٢ ص٨٦ .

(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ قسم ٢ ص٨٦ .

(٣) المبرد : الكامل ج ١ ص ٣٢٦ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٢١ .

(٥) المبرد : الكامل ج ١ ص ٢٦٤ .

(٦) الطبرى ، ج ٧ ص ١٩٠ .

بأن المأكولات الفاخرة هي « الدرمك والفالوذق والحسيس والثريد »[1] . وهذا بطبيعة الحال طعام أهل الثراء . وقد فضل النبي الثريد على غيره فقال « سيد الطعـــام الثريد » . وكان أهل الكوفة يرون الخبز واللحم أفضل الطعام[2] .

كما روى عن قاضي الكوفة (شريح) أنه قال أن أوسط الطعام الخبز والزيت والخل[3] ، وهو طعام الطبقة الفقيرة والمتوسطة . أما الطبقة الغنية فكان طعامها الأرز والبيض بالسمن المسلي بالسكر والصبرزد[4] . أما أهل الكوفة فيرون أن اللحم أرفع الطعام ، أما الخبز والزيت أو السمن والخل فهو أوسط الطعام[5] .

وذكر المبرد بأن أهل الكوفة أكلوا (الفرنية) وهي خبز يروى لبناً وسكراً وسمناً ثم يشوى[6] .

هذا وروى أن الحجاج قال لجلسائه ليكتب كل رجل في رقعة أحب الطعام إليه ويجعلها تحت مصلاى فجاء في الرقاع كلها الزبد والتمر[7] . وقد تغنى الشعراء في أكل الزبد والتمر .

فقال الشاعر العربي :

ألا ليت خبزاً قد تسربل رائباً   وخيلا من البرنى فرسانها الزبد[8]

---

(١) الجاحظ : البخلاء ص ٢٢٩ — ٢٣٠ . الفالوذق : طعام أخذه العرب من الفرس . الجاحظ ـ البخلاء ص ٤٠١ .

(٢و٣) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٩٣ .

(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٣ ص ٢٠٠ . الصبرزد : السكر الأبيض الصلب

(٥) ابن حنبل : المسند ج ٣ ص ٢٦٦ .

(٦) المبرد : الكامل ج ١ ص ٢٦٥ .

(٧) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ٣ ص ١٩٧ .

(٨) الجاحظ : البخلاء ، ص ١٧٩ .

هذا وقد تفنن العرب فى أسماء الطعام وألوانه حتى إنهم وضعوا له اسماً لكل مناسبة من المناسبات .

فكانوا يطلقون مثلا اسم (الوليمة) على طعام العرس و (الأعذار) على طعام الختان (والخرس) على طعام الولادة (والنقيعة) على طعام القادم من السفر و (الوكيرة) على طعام الاحتفاء ببناء الدور (والمأدبة) على طعام الضيوف[١] .

الزينة :

كان استعمال الخضاب أمراً مستحسناً عند العرب ، فكان الرجال يخضبون رؤوسهم ولحاهم بالحناء للحمرة ، وبالزعفران للصفرة و بالسواد[٢] . كما أنهم خضبوا شعورهم بالوسمة أيضاً وصبغوها بالبياض بالكبريت[٣] ، وقد كان الرسول يخضب شعره بالحناء والكتم[٤] . وله حديث يحبذ للناس الخضاب بالحناء والكتم فيقول «أحسن ما غيرتم به الشيب الحناء والكتم»[٥].

وقد نهى الرسول عن الخضاب بالسواد فقال « غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد »[٦] . وعلى الرغم من ذلك فإن العرب خضبوا بالسواد شعورهم .

وقد أشار وكيع إلى أن محارب بن دثار ، قاضى الكوفة كان يقضى فى

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٢٩٢ ؛ الصولى : أدب الكتاب ص ٢٢٦

(٢) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ١٤١

(٣) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ١٤١ ؛ الشوكانى : نيل الأوطار ج ١ ص ١٠٤

(٤) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ١٤١

(٥) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ١٤٠ ؛ أبو داود : السنن ج ٤ ص ٨٥

(٦) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢ ص ١٤٠ ؛ أبو داود : السنن ج ٤ ص ٨٥
الشوكانى : نيل الأوطار ج ١ ص ١٠٣

المسجد وهو مخضب بالسواد[١] ، وكان شريح القاضي يخضب لحيته[٢] بالحناء . وقد خضب ابن سيرين لحيته بالصفرة[٣] .

لم يقتصر الخضاب على الرجال فقط وإنما تعداهم إلى النساء ولا يزال ذلك شائعاً فى العراق إلى اليوم وأكثرهن يخضبن بالحناء والسواد ، كما خضب أهل الكوفة أطرافهم بالحناء[٤] .

ولم يقتصر الرجال والنساء فى زينتهم على الخضاب فقط ، بل أخذوا يمشطون شعورهم ويفرقونها[٥] بعد دهنها بالدهون[٦] كما جعلوا لهم غدائر طويلة ، وكان الحجاج مشهوراً بترجيل شعره وتخضيب أطرافه[٧] .

وقد قيل إن الرسول كان له مشط عاج يمشط شعره ومرآة ومسواك لتنظيف أسنانه[٨] ، كما أنه كان يستعمل الدهن لشعر رأسه[٩] . وقد جاء فى الأغانى « أن سكينة بنت الحسين كانت أحسن الناس شعراً وكانت تصفف جمتها تصفيفاً لم ير أحسن منه»[١٠] . هذا وقد استعمل العرب

---

(١) وكيع : أخبار القضاة ج٣ ص٣١

(٢) وكيع : أخبار القضاة ج٢ ص٣٠٤

(٣) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٧ قسم٢ ص ١٤٩

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٤٨

(٥) الشوكانى : نيل الأوطار ج ١ ص ١٠٧

(٦) الشوكانى : نيل الأوطار ج ١ ص

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٥ ص ٤٨

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ١ قسم٢ ص ١٧٠

(٩) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ١ قسم ٢ ص ١٣٧

(١٠) الأصفهانى : الأغانى ج ١٤ ص ١٥٩

وكان هذا التصفيف للشعر يسمى الجمة السكينية ، وكان عمر بن عبد العزيز إذا وجد رجلا يصفف السكينية جلده وحلق رأسه . الاصفهانى : الأغانى ج ١٤ ص ١٥٩ .

فى الكوفة الكحل لتجميل عيونهم[١] واستعمل العرب الطيب واعتبروه من علامات النبل[٢] . فكان الرجل أو المرأة يضع فى ملابسه من أنواع العطور لتذكر رائحته ومن هذه العطور التى كان العرب يستعملونها المسك والعنبر[٣] .

وقد ذكر الطبرى أن المختار الثقفى قبل أن يخرج لمقاتلة عبدالله ابن الزبير فى الكوفة اغتسل وتحنط ووضع الطيب على رأسه ولحيته[٤] .

وكان تسويك الأسنان وتسنينها وقص الشعر أمراً معروفاً[٥] . هذا وكانت النساء تتحلى بالذهب والفضة واللؤلؤ وصنعت الحلى منه بأشكال مختلفة[٦] . فكانت حفصة بنت أنس بن مالك تقول «كان أبى يحلينا بالذهب ويكسونا بالحرير»[٧] ، كما لبس الرجال خواتم الفضة فى أيديهم[٨] تجملا وقد صنع عرب الكوفة من الذهب حلياً كثيرة لنسائهم كالأسورة والخلاخيل والمعاضد والعقود والقلائد[٩] . وقد استعمل الذهب أيضاً لتجميل الأسنان[١٠] وشدها .

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار جـ ١ ص ١١٠ — ١١١

(٢) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٦٩

(٣) ابن سعد : الطبقات جـ ٨ ص ٣٠٧

(٤) الطبرى ، جـ ٧ ص ١٥٥

(٥) البيرونى : الجماهير فى معرفة الجواهر ص ٢٠

(٦) ابن سعد : الطبقات جـ ٨ ص ٣٥٢

(٧) ابن سعد : الطبقات جـ ٨ ص ٣٠٢

(٨) ابن سعد : الطبقات جـ ٧ قسم ١ ص ١١٦

(٩) البيرونى : الجماهير فى معرفة الجواهر ص ٢٢

(١٠) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٧٦

الوفاة والجنائز :

كانت لأهل الكوفة تقاليدهم الخاصة فى الوفاة والجنائز . فكان الميت يغسل ويوضع فى جسمه الحنوط[١] ثم يكفن بالثياب وقد روى أن الرسول كفن بثلاث ثياب بيض سحولية[٢] ليس فيها قميص أو عمامة[٣] بعد أن وضع فيه الحنوط ، وقد ذكر أن أبا بكر الصديق قد كفن بثلاثة أثواب بيض سحولية يمانية ليس فيها قميص ولا عمامة[٤] . وكفن عمر بن الخطاب فى ثوبين سحوليين وقيل صحاريين[٥] وقميص كان يلبسه[٦] . وروى أن على ابن أبى طالب كفن بثلاث أثواب ليس فيها قميص[٧] . وكفن عبد الله ابن مسعود بحلة بمائتى درهم[٨] وكفن محمد بن سيرين بحلة حبر[٩] . ثم يوضع على جسم الميت عادة الحنوط وقد استعمله أهل الكوفة الحنوط عند ما توفى الأشعث بن قيس[١٠] .

وعندما تشـييع الجنازة كان يصاحبها حملة المشاعل وبعض الرجاز والنائحات ناشرات شعورهن[١١] وقد تعالت أصواتهن بالصراخ والعويل[١٢]

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ١٣

(٢) السحولية : أنظر موضوع الملابس

(٣) أبو داوود : السنن ج ٣ ص ١٩٨

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٣ قسم ١ ص ١٤٣

(٥) الصحارى : قماش من قطن رخيص

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٣ قسم ١ ص ٢٩٦

(٧) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٨ ؛ الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٢٨

(٨) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٣ قسم ١ ص ١١٢

(٩) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٧ قسم ١ ص ١٤٩

(١٠) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص ١٣

(١١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٦٦ (مخطوط) ؛ صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ١٨١ .

(١٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٧٦ ؛ صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ١٨١ .

وكان المشيعون عادة يهرولون فى الجنازة[١] ولا سيما فى أيام الصيف الشديد الحر وبعدها اتخذ السير البطىء خلف الجنازة عادة .

وقد ذكر أن شريحاً قاضى الكوفة كان يمشى أمام الجنازة[٢] وكان بعض المشيعين لا يستطيعون السير خلف الجنازة أو قد يصعب عليهم ولا سيما فى أوقات البرد الشديد والحر الشديد ، فكانوا يركبون الدواب[٣]. ولما مات الحسن البصرى سنة (١١٠) هـ تبع أهل البصرة كلهم جنازته فلم يبق بالمسجد من يصلى العصر ولم تترك صـــلاة منذ كان الإسلام إلا يومها[٤] .

وقد أمر عمر بن عبد العزيز بمنع النائحات من مرافقة الجنائز وقد كتب إلى ولاته بذلك « إن بلغنى أن نساء أهل السفه يخرجن عند موت الميت منهن ناشرات شعورهن ينحن كفعل الجاهلية وإن الله لم يرخص للنساء فى وضع خمرهن منذ أن أمرن أن يضربن بخمرهن على جيوبهن فتقدم فى هذه النياحة تقدماً شديداً »[٥] .

لقد كان من مراسيم الدفن أن يصلى عن الجنازة قبل دفنها ، وأشار وكيع إلى أن على بن أبى طالب كان فى الرحبة (رحبة على) فأتى بجنازة فصلى عليها[٦] .

وكانت القبور فى الكوفة والبصرة عبارة عن حفر يوضع فيها جسد

---

(١) أبو داوود : السنن جـ ٣ ص ٢٠٠ .

(٢) وكيع : أخبار القضاة ، حـ ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) وكيع : أخبار القضاة جـ ٢ ص ٢٧٧ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٨١ .

(٥) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٧ ص ٤٦٦ (مخطوط) .

(٦) وكيع : أخبار القضاة جـ ٣ ص ١٦ .

الميت ثم يوارى فى التراب ولا يبنى على القبر شيئاً[1] سواء كان الميت غنياً أو فقيراً لأن ذلك غير مستحب فى الأسلام . حيث قيل خير القبور الدوارس وقد أشار وكيع إلى أن الامام على بن أبى طالب أرسل صاحب شرطته فى الكوفة وقال له « إنى أبعثك لما بعثنى له رسول الله ألا تدع قبراً مشرفاً إلا سويته»[2]. وقد دفن الأمير بشر ابن مروان أميرة البصرة بقرب قبر حبشى ثم اختلط القبران على الناس فيما بعد فلم يستطيعوا التمييز بينهما[3].

وفى الكوفة مقابر عدة لكل قبيلة مقبرة خاصة بها وتقع عادة ضمن خططها[4] .

ولكن عادة دفن الموتى ضمن خطط القبائل أخذت فى التغير فيما بعد فإن قسما منهم أخذوا يدفنون موتاهم فى مناطق أخرى خارج خططهم . قال ابن مسعود « كان الناس يدفنون موتاهم بالكوفة فى جبابينهم فلما ثقل (خباب) قال لى أى بنى إذا أنا مت فادفننى بهذا الظهر[5] فإنك لو قد دفنتنى بالظهر قيل دُفن بالظهر رجل من أصحاب رسول الله ، فدفن الناس موتاهم فلما مات (خباب) رحمه الله دفن بالظهر فكان أول مدفون بظهر الكوفة خباب[6] .

هذا ولم يبق العرب على عادتهم القديمة وتحريمهم البناء على قبور الموتى

---

(١) أبو داود : السنن ج ٣ ص ٢١٦ .

(٢) وكيع : أخبار القضاة ج ٣ ص ١١ ؛ أبو داود : السنن ، ج ٣ ص ٢١٥ .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ١٣٢ .

(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٣١١ .

(٥) كان الظهر يدعى خد العذراء ينبت الخزامى والأقحوان والشيح والقيصوم والشقاق .

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبير ٣ ج قسم ١ ص ١١٨ .

وإنما أخذوا يبنون قبور موتاهم بالآجر والصخر ويضعون عليها الشواهد ويكتبون فيها عبارات التوبة والاستغفار كما يضعون عليها اسم المتوفى واسم أبيه وتاريخ وفاته . وليس أدل على ذلك من هذا النص « بسملة : هذا القبر لعبد الرحمن بن خير الحجرى اللهم اغفر له وادخله فى رحمة منك واتنا معه . استغفر له إذا قرأ هذا الكتب وقل آمين وكتب هذا الكتب فى جمدى الآخر من سنة إحدى وثلثين »[1] .

(١) Repertoire : Vol. 1, p. 6.

(ب) الموالى :

لقد قدم هؤلاء الموالى إلى الكوفة أسرى حرب ، ثم اعتنقوا الإسلام، فأعتقهم أسيادهم العرب فأصبحوا موالى لهم[١] .

وينتقل العبيد بعد عتقهم من الرق إلى مكانة أخرى تكون بين الرق والحريةويصبح هؤلاء الموالىأعضاء فى عشيرة سيدهم ويتمتعون بحرية كبيرة فى استغلال مواهبهم وقابلياتهم الفردية . والمولى حرفى اختيارالمهنة والعمل الذى يتلائم مع قابلياته .أما الزواج بواحدة أو أكثر أو اقتناء العبيد وغير ذلك من الامتيازاتفهىخاصة بالأحرار المسلمين. وقد دخل الموالى التنظيم القبلى وأصبح موالى كل قبيلة ينتسبون إليها ويحاربون فى صفوفها[٢] ، كما يحاربون مع أسيادهم الذين منوا عليهم بالعتق[٣] إذا وقعت الحرب .

وأشار المبرد إلى أن فيروز حصين حارب الحجاج وكان معه مواليه[٤] وكان مع عباد بن زياد (ألفين) من مواليه يقاتلون معه[٥] . فكان الموالى بذلك مصدر قوة لهذه العشائر ، لأنهم كانوا فى الأصل جنوداً مدربين على القتال . وبالإضافة إلى موالى العتق هؤلاء ظهر نوع آخر من الموالى من الأعاجم الذين جاءوا إلى الكوفة واستوطنوها بمحض اختيارهم وتحالفوا مع بعض القبائل واضعين أنفسهم تحت حمايتها معلنين طاعتهم وولائهم لها . وهؤلاء الموالى يشبهون موالى العتاقة إلى حد بعيد ولكنه كان بإمكانهم ترك

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ص ٧ ص٤١٧ (مخطوط) ؛
Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 218.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ص ٩٦ .

(٣) ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ١٧٤ .

(٤) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١١٠٣ .

(٥) البلاذرى : أنساب الأشرف ج ٥ ص ١٦٥ .

ولاء العشيرة إذ لم تدفع عنهم دية عن جريمة ارتكبوها فإذا مادفعت العشيرة عنهم الدية أصبح ولائهم ثابتاً لا يستطيعون تركه[١]. وقد ضرب لنا البلاذرى[٢] مثلا لذلك فقال : « إن رجل من الموالى قتل رجلا خطأ فقال عمر بن عبد العزيز إن مولى القوم من أنفسهم وهم أحق بميراثه فليعطوا عنه » فجعل الدين عليهم .

وقد استوطن الكوفة بجانب الموالى أفراد من المحاربين الفرس بعد أن استسلموا للعرب وتعاهدوا على القتال فى صفوفهم وقد منحت هذه القوات نفس حقوق العرب ، فنزلوا الكوفة وفرض لهم العطاء . وقد حالف هؤلاء بعض القبائل العربية مثل قبيلة تميم وهم الحمراء (حمراء ديلم) .

وقد سير زياد بن أبيه فريقاً منهم إلى بلاد الشام بأمر معاوية كما سير قسماً آخر منهم إلى البصرة فدخلوا فى الأساورة الذى سكنوها[٣] . وقد سمح (لحمراء ديلم) أن يحتفظوا بتنظيماتهم ويتمتعوا بثقافتهم وبذلك كونوا فى الكوفة مجتمعاً ذا طابع متميز عن المجتمع العربى .

وقد تجمعت فى الكوفة أعداد ضخمة منهم ، فقد شاع استخدامهم بصورة فريدة فكان قلما يخلو بيت منهم . وقد أشار المبرد إلى ذلك بقوله : « يخرج الرجل من أهل الكوفة فى العشرة أو العشرين من مواليه »[٤] .

لقد كون هؤلاء الموالى نسبة كبيرة من سكان الكوفة وقد أشار ابن قتيبة إلى « أن سكان الكوفة فى خلافة على بن أبى طالب سبعة وخمسين ألفاً

---

(١) أبو حنيفة : جامع المسانيد ج ٢ ص ١٧٤ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٢٨ (مخطوط) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٩ .

(٤) المبرد : الكامل ح ١ ص ٣٣٣ .

من العرب ومماليكهم ومواليهم ثمانية آلاف»[١] . حتى قيل إن الموالى بلغوا نصف السكان[٢] .

وقد تمتع هؤلاء الموالى جميعاً بكثير من الحقوق وقد تسامحت الدولة معهم ، فأباحت لهم الهجرة ، فى الوقت الذى فرضت على غيرهم الجزية . كما أباحت لهم الدولة التمتع بمختلف أنواع الملكيات وبناء البيوت والأماكن الخاصة ، وقد بنى الموالى مسجداً فى الكوفة يقيمون فيه الشعائر الدينية سمى بمسجد الموالى[٣] . كما وجد فى تخطيط القبائل سكة تدعى سكة الموالى[٤] . ولا توجد تفاصيل عن هذه السكة أو عن الأشخاص الذين سكنوها ، أو موقعها بالنسبة لتخطيط القبائل . وأباحت الدولة أيضاً لهم القيام بالأعمال التجارية والصناعية وغيرها من الحرف التى احتكروها .

وقد ساوى الخلفاء الراشدون بين الموالى والعرب فى العطاء ، فقد كان أبو بكر يقسم العطاء بين الناس بالتساوى دون تفضيل أو تمييز عربى على مولى[٥] .

ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة كتب إلى أمراء الأمصار يقول : « ومن أعتقتم من الحمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعليهم ماعليهم وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوة فى العطاء»[٦] .

وروى أن قوماً قدموا على عامل لعمر بن الخطاب فأعطى العرب وترك

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٨ ؛

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 218.

(٣) الطبرى ج ٩ ص ٢٤٩ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣٢ .

(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .

(٥) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١١٥ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٢٣٥ .

الموالى فكتب عمر بن الخطاب : «أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[١] .

ولما جاء عثمان بن عفان أعطى الموالى والعبيد نصيبهم من العطاء[٢] . وفى خلافة على بن أبى طالب ساوى بين الموالى والعرب فى العطاء أيضاً ورفض أن يحمل له الدهاقين الهدايا[٣] .

وروى أن علياً بعد موقعة الجمل أعطى الناس بالسوية لم يفضل أحداً على أحد وأعطى الموالى كما أعطى الصليبة فلما سئل فى ذلك قال : «قرأت ما بين الدفتين (يقصد القرآن) فلم أجد لولد اسماعيل على ولد إسحق فضل هذا ، وأخذ عود من الأرض فوضعه بين أصبعه»[٤] .

كما أن عمر بن عبد العزيز جعل العرب والموالى فى الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء[٥] .

ولكن هؤلاء الموالى رغم ذلك لم يحصلوا على المساواة الكاملة ، فقد كان العرب فى هذا العصر لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون معهم فى الصف ولا يتقدمون فى المواكب[٦] . هذا وإذا حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم وإن أطعم هؤلاء الموالى أجلسوهم فى طرف الخوان لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ولا يدع العرب مولى يصلى على الموتى إذا حضر أحد من العرب[٧] .

---

(١) ابن سلام : الأموال ص ٢٢٦ ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٣ .

(٢) الطبرى ، ج ٥ ص ٦٢ .

(٣) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٦٣ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٦٠ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٣ .

(٧) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٥٤ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٣

ولقد أعطانا المبرد صورة أخرى لاحتقار العرب الموالى فذكر « أن نافعاً ابن جبير كان إذا مر عليه بالجنازة سأل عنها فإن قيل قرشى قال واقوماه ، وإن قيل عربى قال وأمتاه وإن قيل مولى أو أعجمى قال اللهم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت[١] .

كما أطلق العرب على الموالى أسماء مستهجنة مثل (النبط والحمراء[٢] والموالى)وغيرها ، وقد نادى الفقهاء المسلمين بأن يعاقب كل من يدعو العربى بقوله النبطى أو يابن الحجام أو يابن الخياط[٣] .

وقد ذكر ابن عبد ربه مثلا آخر لمعاملة العرب الموالى قال « قدم نافع ابن جبير بن مطعم أحد وجوه العراق ، رجلا من الموالى يصلى به فعاب عليه العرب ذلك ، فقال إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه[٤] . هذا وكان القاضى شريح (قاضى الكوفة) لايجيز شهادة الموالى[٥] .

أما زواج الموالى بالعربيات فقد اعتبروه جريمة نكراء يستحق مرتكبها أقسى العقوبات ويحق للأمير أو الوالى أن يفرق بينهما ، وقد تزوج عبد الله ابن أبى كثير مولى بنى مخزوم بالعراق فى ولاية مصعب بن الزبير امرأة عربية ففرق مصعب بينهما[٦] ، وكان بعض الولاة ينزلون عقوبات قاسية بالمولى بعد أن يفرقوا بينه وبين زوجته العربية ، وقد أشار الأصفهانى إلى ذلك بقوله : « أن رجلا من الموالى خطب بنتاً من أعراب بنى سليم وتزوجها فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن

---

(١) المبرد : الكامل ج ١ ص ٧١١ — ٧١٣ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٣ .

(٢) الطبرى ، ج ٧ ص ٢٠٨ .

(٣) ابن مالك : المدونة ج ٤ ص ٢٩٣ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٢ — ٤١٣ .

(٥) المبرد : الكامل ج ٢ ص ١٩٥ .

(٦) الأصفهانى : الأغانى ج ٢١ ص ١١٤ .

اسماعيل ، فشكا إليه فأرسل الوالى إلى المولى ففرق بين المولى وزوجته وضربه مائتى سوط وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه »[١] . وقال محمد بن بشر فى ذلك :

قضيت بسنة وحكمت عدلا	ولم ترث الحكومة من بعيد
وفى المائتين للمولى نكال	وفى سلب الحواجب والخدود
فأى الحــق أنصف للموالى	من أصهار العبيد إلى العبيد

أما إذا أراد العربى الزواج من بنات الموالى خطبها من مولاها وسيدها أو أخيها ، وأن زوجها أبوها أو أخوها بدون رضا سيدهم اعتبر العقد باطلا [٢] .

ولم يكن الخليفة عمر بن عبد العزيز يرتاح إلى زواج الموالى بالعربيات والعرب بالموالى . فكتب إلى عماله بعد أن تفشت الزيجات قائلا «لا يتزوج من الموالى من العرب إلا الأشر البطر ولا من الموالى من العرب إلا الطمع الطبع »[٣] .

كما حرم العرب أعداداً كبيرة من العطاء فى بعض الأحيان فقد أشار الطبرى إلى أن : « هناك عشرون ألفاً من الموالى يحاربون بلا عطاء ولا رزق »[٤] . كما استخدموهم فى الحروب مشاة ولا يركبونهم الخيل ، وكان المختار أول من سمح لهم بركوب الخيل[٥] .

وقد حرم هؤلاء الموالى من تولى المناصب العامة التى تمكنهم من السيطرة

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٤ ص ١٤٤ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٣ ؛ الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٥٤ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤١١ (مخطوط) .

(٤) الطبرى ، ج ٨ ص ١٣٤٠ .

(٥) الطبرى ج ٧ ص ١٤٧ .

على المسلمين والتحكم فيهم كالقضاء أو قيادة الجيوش ، وليس أدل على ذلك من قول المبرد عندما عين الحجاج سعيد بن جبير قاضياً على الكوفة ضج الناس ، وقالوا لا يصلح للقضاء إلا عربي[١] . ولما تولى ابن دراج (وهو من الموالي) القضاء في الكوفة ضج الناس[٢]. ونظم شاعر من أهل الكوفة أبياتاً منها :

يا أيها الناس قد قامت قيامتكم ... إذ صار قاضيكم نوح بن دراج

لو كان حياً له الحجاج ما سلمت ... كفاءة ناجيه من نقش حجاج[٣]

وكان الموالي يعرفون نظرة العرب إليهم وذكر أن عمر بن عبد العزيز أراد أن يولي مكحولا القضاء فلم يوافق وقال ، قال : «النبي لا يقضي بين الناس إلا ذو الشرف في قومه وأنا مولى»[٤]. وقد ذكر وكيع أن عمر بن الخطاب قال في القضاء لا يستقضين إلا ذا مال ، وذا حسب ، فإن ذا المال لا يرغب في أموال الناس ، وأن ذا الحسب لا يخشى العواقب بين الناس .

هذا وقد حرم الموالي أيضاً فرصة قيادة الجيش وأول من ولي قيادة الجيش منهم زرياب مولى بجيله[٥] في زمن المختار. كما تولى كيسان أبا عمرة[٦] قيادة حرس المختار في الكوفة أيضاً ، كما تولى كيسان قيادة الموالي في جيش المختار في حربه مع ابن الزبير[٦] .

ويبدو أن الظروف السياسية الحرجة التي عاشها المختار حتمت عليه أن يسلك هذا السبيل ، فأراد أن يجمع أكثر عدد ممكن من الموالي إلى جانبه لمحاربة خصومه السياسيين حيث كانت أعداد الموالي هائلة في الكوفة وكانت لهم قوة ضاربة كبيرة أراد أن يرمي بها في وجه أعدائه .

---

(١) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٣٤٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان : ٢ ص ١١٥ ؛ ابن العماد — شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٩ .

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٤٤٠ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٧ .

(٣) وكيع : أخبار القضاة ج ١ ص ٢٦ — ٢٧ .

(٤) الدينوري : الأخبار الطوال ص ٢٠٨ .

(٥) الطبري ، ج ٧ ص ١٠٩ .

(٦) الطبري ، ج ٧ ص ١٤٨ .

لقد طالب سكان الكوفة الخلفاء بأن لا يعطوا الموالى عطاءاً مساوياً لهم إذ اعتبروا ذلك انتقاصاً لكرامتهم . وقد غضب الكوفيون عندما وزع على بن أبى طالب العطاء بالتساوى على العرب والموالى وقالوا له « يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالى والعجم . فقال لهم أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور »[١] كما أن عرب الكوفة ثاروا فى وجه الوليد بن عقبه فى خلافة عثمان لأنه أعطى الموالى والعبيد نصيبهم من العطاء[٢] وقد سخر العرب أعداداً ضخمة فى الحروب دون عطاء أو رزق ، وقد أشار الطبرى إلى أن هناك عشرين ألفاً من الموالى يحاربون بلا عطاء ولا رزق فى عهد عمر بن عبد العزيز . وعندما تنبه إلى ذلك فرض لهم عطاء ورزقا[٣] .

ولما وجد الموالى أن العرب قد حرموهم من حق العمل وتولى الكثير من وظائف الدولة كما رأينا ، اتجهوا إلى الأعمال البسيطة فى المجتمع فكانوا يكسحون الطرقات ويخرزون الأخفاف ويحوكون الثياب[٤] . كما زاولوا مهنة الخياطة والحجامة[٥] وغيرها . ولكنهم مالبثوا أن احتكروا الحرف والصناعة والتجارة فى الكوفة أيضاً .

لقد بدأ الصراع بين العرب والموالى بعد أن استوطن هؤلاء الأعاجم الكوفة بشكل كبير مما أثار مخاوف العرب وكراهيتهم واستهجانهم ، برغم الحاجة إلى جهودهم فى الحياة الاقتصادية . ومما زاد من عنف هذه الكراهية

---

(١) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة جـ ٨ ص ٣٠٥ .

(٢) الطبرى ، جـ ٥ ص ٦٢ .

(٣) الطبرى ، جـ ٨ ص ١٣٤ الحسينية .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٤١٤ .

(٥) ابن مالك : المدونة جـ ٤ ص ٣٩٥ .

أن العرب كانوا يعتبرون هؤلاء الأعاجم أحط منهم قدراً وأن اختلاطهم بالعرب سيؤدى حتماً إلى إفساد عنصرهم .

وقد أثار حفيظة زعماء الكوفة عطف بعض خلفاء المسلمين عليهم وخير مثل عن ذلك حديث الأشعث بن قيس وهو من الزعماء المشهورين فى الكوفة إلى على بن أبى طالب إذ قال له « يا أمير المؤمنين غلبتنا هذه الحمراء على قربك »[1] .

ولهذا جرد هؤلاء الموالى من بعض الحقوق وأصبح الصراع الطبقى أمراً حتمياً وكانت الغلبة للعرب فى بداية الصراع حيث حافظوا على سيطرتهم وكان الأعاجم يشعرون بالذلة والخنوع والخوف ، ولكن مالبث أن زاد شعورهم بالأهمية والثقة بالنفس وأخذوا ينظرون إلى العرب بعين الحسد والكراهية بعد أن اعتنق عدد كبير منهم الإسلام وبعد أن شعروا بأهميتهم وعلو شأنهم وبحاجة الدولة إليهم فى الحرب ، وفضلهم على تقدم الزراعة والصناعة والتجارة فبدأوا يطالبون بإنصافهم وإعادة حقوقهم المسلوبة وقد ثار الموالى فى عهد عبدالله بن الزبير لانقطاع العطاء عنهم[2] الأمر الذى أجبر الحكومة إلى بعض طلباتهم فأدخلت بعضهم فى ديوان العطاء وإن كان هذا العطاء غير مساوى لعطاء المسلمين لأن العرب كرهوا أن يقاسمهم الموالى العطاء والرزق .

لم يقف اضطهاد العرب ولاسيما الولاة منهم عند هذا الحد وإنما تعداه إلى أكثر من ذلك ، فقد عمد الحجاج بن يوسف إلى منع الموالى من الهجرة إلى المدن وأمر بإرجاعهم إلى قراهم وأن ينقش على يد كل واحد منهم اسم

---

(١) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٤٠٦ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٨٨ .

قريته[1] . ولم يكتف الحجـــاج بذلك بل وضع الجزية على من أسلم منهم وبقيت هذه الجزية عليهم حتى خلافة عمر بن عبد العزيز حين وضعها عنهم ، حيث كتب إلى عامله فى الكوفة « إن الله بعث محمداً داعياً ولم يبعثه جابياً فمن دخل فى المسلمين فله مالهم وعليه ماعليهم فانظر من كان من أهل الذمة فأظهر الإسلام فأسقط الجزية عنه »[2] فرفعت الجزية عمن أسلم من الموالى[3].

كل هذه العوامل أدت إلى كرههم للعرب فظلوا يتحينون الفرص للإيقاع بهم وليشفوا حقدهم ، فأصبحوا عوناً لكل من خلع طاعة الحكم أو طلب الخلافة من العلويين والخوارج ممنين أنفسهم بالخلاص من هذا الظلم والحصول على امتيازات قد يتغير معها وضعهم الاجتماعى . واتخذوا الدين ستاراً لأغراضهم الخاصة ،فقاتلوا أعداءهم باسم الدين والرغبة فى إعلاء كلمة الإسلام.

وقد خرج عدد كبير من الموالى وانضم إلى على بن أبى طالب حوالى ثمانية آلاف فى صفين[4] . كما انضم قسم منهم إلى خوارج الكوفة وأخذوا يقاتلون بجانبهم[5] حينما نادوا بجعل الخلافة حقاً لجميع المسلمين دون النظر إلى اللون والجنس .

وكان المختار أشهر من استطاع أن يستميل الموالى إليه بأعداد ضخمة وأن يحارب بهم بنى أمية ومنى المختار بن أبى عبيد الثقفى الموالى بالغنائم والعطاء الكثير وأركبهم على الدواب حتى جاءوا إليه متطوعين . وكان عدد

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٠٥ (مخطوط) .

(٣) ابو يوسف : الخراج ص ١٥٧ .

(٤) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة ج ١ ص ١٤٨ .

(٥) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٩٧ ؛ ديمومبينين : النظم الاسلامية ص ٤٨ .

الموالى فى جيش المختار أضعاف عدد الأحرار حتى قيل إن جيش المختار بلغ حوالى « عشرين ألف » كان معظمهم من الذين اتخذوا اسم حمراء ديلم وهم من الفرس الذين سكنوا الكوفة . وقد ضرب الدينورى مثلا واضحاً بين فيه كثرة هؤلاء الموالى فى جيش المختار فقال : « وكانت غالبية جيشه من أبناء الفرس الذين كانوا بالكوفة وكانوا يسمون بالحمراء حتى إنه لم يسمع فى جيشه كلمة عربية واحدة »[1] .

لقد أبلى هؤلاء الموالى فى القتال بلاءاً عظيما فاق بلاء العرب الأحرار فى كثير من الأحيان لنقمتهم الشديدة على العرب وقد أشار الطبرى إلى قول عبد الرحمن بن مخنف عندما جاءوه أشراف الكوفة وطلبوا منه الخروج معه لقتال المختار إذ قال لهم : « إن معه مواليكم وعبيدكم وكلمة هؤلاء واحدة وعبيدكم ومواليكم أشد حنقاً عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم »[2] .

ولما رأى وجهاء الكوفة انتصار المختار عليهم بمواليهم وعبيدهم انتقدوه وقالوا : « والله لقد تآمر علينا هذا الرجل بغير رضى منا ولقد أدنى موالينا فحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمهم فيئنا ولقد عصتنا عبيدنا »[3] . ولما لم ينفع هذا النقد شيئاً بعثوا إليه يقولون « عمدت إلى موالينا وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعاً فأعتقنا رقابهم نأمل الأجر فى ذلك والثواب والشكر فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنا وحملتهم على الدواب »[4] .

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٢٠٠ .

(٢) الطبرى جـ ٧ ص ١١٧ .

(٣) الطبرى جـ ٧ ص ١١٦ .

(٤) الطبرى جـ ٧ ص ١١٦ .

وقد أرسل المختار الموالى إلى آفاق بعيدة للقتال فبعث ثلاث آلاف جندى إلى الحجاز لمساعدة عبد الله بن الزبير بقيادة شرحبيل بن ورس كان أكثرهم من الموالى ليس فيهم من العرب إلا سبعمائة رجل[١] .

وكان المختار بتجنيد الموالى قد جرأهم على الحكومة فاستخفوا بها ونصروا أعداءها ، وقيل إن مصعب بن الزبير أسر جماعة من أصحاب المختار كان فيهم العرب والموالى فأراد إطلاق سراح العرب وقتل الموالى فأبى أصحابه فأمر بقتلهم جميعاً[٢] .

وهنا لا بد أن نشير إلى أن من بين الأسباب التى أدت إلى فشل ثورة المختار وإزاحته عن مسرح السياسة تخلى أشراف الكوفة عنه وتأييدهم لمصعب بن الزبير . لقــد ذهب أشراف الكوفة إلى البصرة وطلبوا من ابن الزبير هناك أن يساعدهم فى القضاء على المختار لأنه استخدم عبيدهم، ومواليهم فى القتال ضدهم وأعطاهم امتيازات كبيرة وأشار الطبرى إلى ذلك قائلا : « لقد جاء مصعب أشراف الناس من أهل الكوفة ودخلوا على مصعب وأخبروه بوثوب عبيدهم ومواليهم عليهم وسألوه النصرة لهم والمسير معهم إلى المختار »[٣] . فقالوا له : « بأن نساءنا وحرمنا غلبنا عليهم عبداننا وموالينا»[٤] .

ومن أسباب فشل ثورة المختار أيضاً عدم إخلاص العرب له ولا سيما الذين قاتلوا فى جيشه مع الموالى إذ اعتبروا ذلك نقصاً منهم لمساواتهم مع الموالى فى العطاء فبدأوا يكيدون له ، ويبدو ذلك واضحاً فى المعركة الفاصلة التى

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٣٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٢٢٥ .

(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٤٦ .

(٤) الطبرى ج ٧ ص ١٤٧ .

وقعت بين جيش المختار وجيش مصعب قرب الكوفة . وقد ولى المختار قيادة جيشه إلى « أحمر بن شميط » وقد جاءه وهب بن أنس الجشمى وهو قائد ميسرته فقال له « إن الموالى والعبيد آل خور عند المصدوقة وأن معهم رجالا كثيرة على الخيل وأنت تمشى فمرهم فلينزلوا معك فإن لهم بك أسوة فإنى أتخوف إن طردوا ساعة وطوعنوا وضوربوا أن يطيروا على متونها ويسلمون وإنك إن أرجلتهم لم يجدوا من الصبر بد . . . فقال لهم يا معشر الموالى أنزلوا معى فقاتلوا فنزلوا معه.. وكان هذا غشاً منه للموالى والعبيد لما كانوا يلقون منهم بالكوفة »[1] .

ولما فشلت ثورة المختار انضم الموالى إلى ثورة ابن الأشعث وقد أشار الطبرى إلى عدد الجيش الذى كان مع ابن الأشعث فى ثورته ضد الحجاج فقال : « اجتمع أهل الكوفة وأهل مصر وأهل الثغور والمسالح بدير الجماجم والقراء من أهل المصرين مائة ألف مقاتل ومعهم مثلهم من مواليهم »[2] حتى أن دهاقين الموالى كانوا يمدون ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج بالمال كما فعل الدهقان (فيروز بن حصين) وقيل عندما التقى جيش المختار بجيش الموالى تحت قيادة ابن الأشعث نادى الحجاج فى المعسكر من أتى برأس (فيروز) فله عشرة آلاف درهم ، ولكن فيروز دفع فى رأس الحجاج مائة ألف درهم[3] .

وعندما فشلت ثورة ابن الأشعث لقى الموالى من الحجاج وبطانته صنوفاً من التعذيب الوحشى والقتل الجماعى وأشار المبرد إلى ذلك بقوله « ونظر الحجاج فإذا جل من خرج مع عبد الرحمن من الفقهاء وغيرهم من الموالى فأحب أن يزيلهم عن موضع الفصاحة والأدب ويخلطهم بأهـــل القرى

---

(١) الطبرى ، جـ ٧ ص ١٤٨ .

(٢) الطبرى ، جـ ٨ ص ١٥ .

(٣) المبرد : الكامل جـ ٣ ص ١٠٥ ؛ السكرى : المحبر ص ٣٤٥ .

والأنباط . فقال « الموالى علوج وإنما أتى بهم من القرى ، فقراهم أولى بهم » فأمر بتسييرهم من الأمصار وإقرار العرب بها وأمر أن ينقش على يد كل إنسان منهم اسم قريته ، وطالت ولايته فتوالد القوم هناك فخبثت لغات أولادهم وفسدت طباعهم ، فلما قام سليمان بن عبد الملك أخرج من كان فى سجن الحجاج من المظلومين وقد خرج فى يوم واحد ثمانين ألفاً ، ورد المنقوشين فرجعوا فى صورة الأنباط[1] .

وعندما استطاع الحجاج القضاء على الثورات الداخلية وإخمادها جند الموالى بالقوة والإرهاب ، ورمى بهم أعداء الدولة ، فقد أرسل جيشاً لمساعدة المهلب بن أبى صفرة لمحاربة الخوارج فكان فيه ألفاً من الموالى حتى[2] هرب عدد كبير منهم إلى الحجاز متخلصاً من ظلم الحجاج وقسوته[3] .

وبعد أن أصبح هؤلاء خطراً على الدولة لكثرة عددهم صار الخلفاء والولاة يحسبون لهم ألف حساب ، وقد تنبه معاوية إلى خطرهم على الدولة حيث بلغ عددهم فى الكوفة فى عهده عشرين ألفاً[4] فقال « إنى رأيت هذه الحمراء (يعنى الموالى) قد كثرت ، وكأنى انظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان فقد رأيت أن أقتل شطراً وادع شطراً لإقامة السوق وعمارة الطريق ثم عدل عن ذلك[5] .

وقد أصبح بعض الخلفاء يسترضونهم بالعطاء ونحوه وكان أول من فرض لهم العطاء من بنى أمية معاوية بن أبى سفيان فإنه جعل لكل واحد

---

(١) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٤٣٩ — ٤٤٠ .

(٢) الطبرى ، ج ٧ ص ٢٣٣ .

(٣) الطبرى ، ج ٨ ص ٩٠ .

(٤) الدنيورى : الأخبار الطوال ص ٢٩٦ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٣ .

من الموالى (خمسة عشرة) درهما وجعلها الخليفة عبد الملك (عشرون) درهماً وجعلها سليمان (خمسة وعشرون) درهماً ثم جعلها هشام (ثلاثون) درهماً[١] .

ولـكن هذا العطاء الذى فرض كان قلما يعطى لهم لأن العمال والولاة كانوا يستخدمونهم غالباً بلا عطاء ولا رزق[٢] .

ومهما يكن من أمر فإن سياسة العطاء هذه لم تكن ثابتة ، فقد كان العطاء ينقص أو يزيد وفقاً لرغبات وأهواء الخلفاء والأمراء والظروف السياسية ، وبصورة عامة فإن عطاء الموالى أقل بكثير من عطاء العرب .

لم يكتف الموالى بمناهضة العرب سياسياً وعسكرياً وإنما أخذوا ينشرون مآثر آبائهم ويفاخرون العرب ويظهرون فضل العجم على العرب. مما أدى هذا التنافس إلى ظهور الشعوبية فى الـكوفة .

ترك الموالى فى مجتمع الـكوفة أثراً واضحاً فالحروب الـكثيرة التى خاض المسلمون غمارها عادت عليهم بشيء كثير من النساء ، وكان بعضهم يبيع هذا السبي والبعض الآخر كان يتزوج السبايا كما تزوجوا بالنساء الفارسيات وغيرها من غير السبي . قال الطبرى : « تزوج المهاجرون والأنصار فى أهل السواد يعنى من أهل الـكتاب »[٣] . وذلك لحاجة المحاربين إلى المرأة فى مثل هذه الظروف الحربية القاسية .

وروى الطبرى أيضاً عن جابر أنه قال : شهدت القادسية مع سعد فتزوجنا نساء أهل الـكتاب ونحن لا نجد كبير مسلمات فلما قفلنا فمنا من

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٠ .

(٢) الطبرى ، ج ٨ ص ١٣٤ .

(٣) الطبرى ، ج ٣ ص ٨٨ .

طلق ومنا من أمسك(١) .

ولكن هذا الزواج بالأعجميات لم يكن يرضى الخليفة عمر بن الخطاب وكان يحاول جاهداً الحد منه خوفاً من أن يغلبن النساء العربيات الأمر الذى يترتب عليه نتائج اجتماعية خطيرة . قال الطبرى : « بعث عمر ابن الخطاب إلى حذيفة بن اليمان بعدما ولاه المدائن بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها ، فكتب إليه لا أفعل حتى تخبرنى أحلال أم حرام ، ما أردت بذلك ، فكتب إليه لا بل حلال ولكن فى نساء الأعاجم خلابة فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم ، فقال الآن ، فطلقها »(٢) .

كانت النساء الأعجميات ينتمين إلى أمم مختلفة متباينة فى العادات والتقاليد والأخلاق فكانت هذه الإماء والجوارى من الوسائل المهمة لنقل حضارة الأمم المختلفة ووسائل الترف الأخرى إلى بيوت العرب وتعليمهم طهى أنواع كثيرة من الطعام فضلا عن جلبهن الملابس الجميلة الزاهية كما نقلن الشيء الكثير من عادات وتقاليد بلادهن فاستطعن أن يأثرن فى المجتمع الكوفى تأثيراً واضحاً .

ولم يقتصر تأثير النساء الأعجميات على نواحى المجتمع فقط وإنما كان للزواج بالسبايا الأعجميات أثر بارز فى مزج الدماء العربية بالدماء الغير عربية ، وقد رأينا كيف وزع العدد الكبير من أبناء البلاد المفتوحة ، ونسائهم على المحاربين العرب كغنائم وسبايا فكان لكل محارب عدد من العبيد والإماء يستخدمهم فى قضاء حوائجه ويستولد الإماء إن شاء ويتزوجن حتى صار عدد كبير منهن أمهات لبعض الخلفاء أو الوزراء أو الأمراء ،

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ٨٨ .

(٢) الطبرى ، ج ٣ ص ٨٨ .

قال الأصفهانى « بعث جنيد بن عبد الرحمن المرى إلى خالد القسرى عدداً كبير من سبى الهند البيض فوزعها على قريش ووجوه الناس فى الكوفة»[١] وقد كن هؤلاء الجوارى والإماء سبباً فى إيجاد كثير من الاضطرابات فى البلاط والمناصب الإدارية العليا ، فكانت كل سيدة تحابى من يتصل بها من الأقارب والأولياء وترفعهم ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

وقد شعر العرب أنفسهم بهذا الاختلاط وأثره السيء على الأجيال القادمة وشكوا منه مر الشكوى[٢] . وقد تجلى ذلك واضحاً فى شعر الشاعر الرياشى حين[٣] قال :

إن أولاد السرارى كثروا يارب فينا
رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجينا

لقد عومل أولاد الإماء معاملة خاصة تختلف كثيراً عن أولاد الأحرار حيث كان هؤلاء الهجناء لا يتساوون فى الإرث مع إخوتهم أولاد الحرائر[٤] كما إنه أقل منهم فى المنزلة الاجتماعية .

لقد أقبل الموالى بعد أن أسلموا على دراسة اللغة العربية فتعمقوا فيها وأخذوا يدرسون الفقه والحديث ، وبرز منهم فى الكوفة عدد كبير جداً فى مختلف مجالات المعرفة فاشتهر منهم هبيرة بن حريم من ثقاة المحدثين وهو من أصحاب المختار . ويزيد ابن أبى زياد ، وعمر بن قيس، وأبو إسحاق إبراهيم بن مسلم[٥] (من أهل الهجر) وهؤلاء جميعهم من ثقاة المحدثين وغيرهم كثيرون[٦].

---

(١) الطبرى ، ج ٤ ص ١٨٤ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٩ ص ٧٥ .
(٣) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٤٦٧ .
(٤) المبرد : الكامل ، ج ١ ص ٣٩٢ .
(٥) ابن الاثير : الكامل ، ج ٣ ص ٥٢٣ .
(٦) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٦ ص ٢٣٧ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠ .

كما اشتهر منهم فى الشعر والأدب أبو دلامة[١] . واشتهر منهم أيضاً فى الفصاحة والبلاغة عدد كبير أشهرهم ابن سيار الأسوارى الذى وصفه الجاحظ بقوله «كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس فى مجلسه المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها بالفارسية فلا يدرى بأى لسان هو أبين»[٢] .

هذا وتولى بعضهم منصب القضاء فى الكوفة مثل «شريح» الذى ظل على قضاء الكوفة (خمس وسبعون) عاما من عهد عمر بن الخطاب حتى عهد الحجاج بن يوسف الثقفى وهو من أصل فارسى[٣] وابن دراج[٤] وسعيد ابن جبير[٥] الذى شغل إلى جانب القضاء جباية الصدقة والعشور فى عهد ابن الأشعث[٦] .

كما تولى بعضهم كتابة الدواوين ، فكان أبو جبيرة الأنصارى كاتباً لعمر ابن الخطاب ولعثمان بن عفان على ديوان الكوفة[٧] . وكان عامر الشعبى يكتب لعبد الله بن مطيع وعبد الله بن يزيد الخطمى عاملى عبد الله بن الزبير على الكوفة[٨] . وقد عين زياد بن أبيه كاتباً وعامل خراج من الفرس[٩] ،

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج٩ ص١٢٠ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص٣٤٦ .

(٣) الدميرى : الحيوان ج ١ ص ٢٦ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٧ ؛ المبرد : الكامل ج ٢ ص ٤٤٠ .

(٥) ابن سعد : الطبقات ج ٦ ص ١٧٨ ؛ المبرد : الكامل ج ٢ ص ٤٣٩ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص٢٠٥ ، السكرى : المحبر ص ٣٧٨ .

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٦ ص ١٨٣ .

(٧) الطبرى ج ٧ ص ١٩٨ ؛ السكرى : المحبر ص ٣٧٨ .

(٨) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٢٤٥ ؛ السكرى : المحبر ص ٣٧٨ .

(٩) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦ .

وكان يقول «ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم». ومن كل ما تقدم أخذ هؤلاء الموالى يفاخرون بأمجادهم وبمآثرهم وبدأوا ينشرونها بين الناس مبينين فضل العجم على العرب[١].

أثر الموالى فى الحياة السياسية تأثيراً كبيراً فكانوا يحرضون على الثورة ضد الحكم ويؤيدون كل من يثور على الحكم القائم واشتركوا فى ثورات عديدة فقد أيدوا المختار واشتركوا معه فى ثورته كما أيدوا ثورة ابن الأشعث وساهموا فيها.

لقد اشتغل عدد كبير من موالى الكوفة بالمهن الحرة فزاول التجارة عدد كبير منهم فكان حمزة الزيات (وهو مولى لآل عكرمة) يجلب الزيت من الكوفة إلى حلوان ويجلب من حلوان الجبن والجوز إلى الكوفة[٢]. وكان منصور بن أبى الأسود يشتغل فى التجارة أيضاً[٣] وكان محمد بن سوقه مولى بجيلة تاجراً لبيع (الخز) فى الكوفة[٤] ومحمد بن سيرين كان يبيع (البز) فى الكوفة قبل ذهابه إلى البصرة كما اشتغل أبو دكين (مولى مراد) ببيع العطور والرقيق[٥] والدواب.

وزاول الموالى أيضاً مهنة الصناعة بأعداد كبيرة فاشتغل فى النجارة الأشعث بن سوار (مولى ثقيف)[٦].

وقد زاول عدد من موالى الكوفة مهنة الصيرفة وبرعوا فيها مثل سدير ابن حكيم الذى كان أبوه (حكيم) صيرفياً من قبل وهم من موالى بنى ضبه[٧]

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ٢٠٩ .
(٢) ابن سعد : الطبقات ج ٦ ص ٣٦٨ ؛ ابن النديم : الفهرست ص ٤٤ .
(٣) ابن سعد : الطبقات ج ٦ ص ٢٦٦ .
(٤) ابن سعد : الطبقات ج ٦ ص ٢٣٧ .
(٥) السكرى : المحبر ، ص ٣٤٢ .
(٦) ابن سعد : الطبقات ج ٦ ص ٢٣٧ .
(٧) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٤ .

وبسام بن عبد الله وهو من موالى بنى أسد[١] .

وما أن جاء العصر الأموى حتى أصبح عدد من الموالى يملكون الضياع والأراضى الزراعية الواسعة ، وكان فيروز بن حصين أشهر من ملك الثروات الطائلة والأراضى الواسعة والعبيد[٢] . كما ملك أبو دكين (مولى مراد) ثروات ضخمة من المال حتى إنه كان يساعد عشيرته ويمدها بالمال[٣] .

هذا وقد أثر الموالى فى اللغة العربية حيث أدخلوا ألفاظاً ومفردات فارسية أكثرها تتصل بالأسماء والأطعمة والأشربة وأدوات الترف ومجالس اللهو وأدواته وغيرها ، وأصبحت شائعة بين أهل الكوفة فأطلق على مفترق الطرق (جهار سوج) واضيف هذا اللفظ إلى أحد الأسماء العربية فيقولون (جهار سوج خنيس)(وجهار سوج كندة) (وجهار سوج همدان وجهارسوج بجيلة)[٥] وسمى (عنترة الحجام) (الحجام عنترة)[٤] وقد أشار البلاذرى إلى ذلك فقال : «كان بالكوفة موضع يعرف بعنترة الحجام وكان أسود فلما دخل أهل خرسان الكوفة كانوا يقولون حجام عنترة ، وحجام فرج فبقى الناس على ذلك[٦] .

ويضاف إلى هذا كله أن العرب اقتبسوا كلمات فارسية كثيرة أدخلوها

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٥

(٢) المبرد : الكامل ، ج ٣ ص ١١٠٥ .

(٣) السكرى : المحبر ص ٣٤٢ .

(٤) جهار سوج ، كلمة فارسية مكونة من كلمتين (جهارت --أربع) و (سوج -- اتجاه) معناها الجهات الأربع . الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧ ؛ ابن سعد : الطبقات ج ٦ ص ٨ ، ٢٣ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٨ .

(٥) ما سنيون : خطط الكوفة ص ١٨ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨١ .

على اللغة العربية فقد كان أهل الكوفة مثلا يسمون (المسحاة)[١] بال (وهو اسم فارسى) كما سمى أهل الكوفة أيضاً (الحوك)[٢] باذروج ويسمون السوق (وازار) والقثاء (خيار) والمجذوم (ويذى)[٣] كما استعملوا كلمة الكوز والجرة والأبريق والخوان وغيرها .

كما أدى اختلاط الموالى بسكان الكوفة إلى انتشار اللكنة الفارسية بين العرب وكثر اللحن . فكان عبيد الله بن زياد والى العراق ممن اشتهروا باللكنة الفارسية[٤] . وقد مر الشعبى بقوم من الموالى يتذاكرون النحو فقال : « لئن أصلحتموه إنكم لأول من أفسده »[٥] .

هذا كما أدخلوا فى مجتمع الكوفة بعض العادات والتقاليد ولاسيما عيدى النوروز والمهرجان وغيرهما . كما انتشرت الملابس الفارسية بين العرب وشاع استعمالها كالسراويل وغيرها .

أثر الموالى (ولاسيما الفرس) فى الأنظمة الإدارية عند العرب حيث اقتبسوا منهم نظام الدواوين وظلت هذه الدواوين تستعمل اللغة الفارسية فى العراق حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث نقلها إلى العربية .

وفضلا عن ذلك فإن الفرس أثروا فى الغناء العربى حيث أدخلوا كثيراً من الموسيقى الفارسية ووقعوا عليها شعرهم العربى . روى الأصفهانى أن سعيد بن مسجع . . مولى بنى جمح من فحول المغنيين وأكابرهم أول من نقل غناء

---

(١) المسحاة : المجرفة التى يجرف بها الطين والأوحال . الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧ .

(٢) الحوك : البقلة الحمقاء (الرجلة) . الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧ .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٧ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٨٧ ؛ المبرد : الكامل ج ٢ ص ٥٨٥ .

(٥) المبرد : الكامل ، ج ٢ ص ٤٠٥ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ص ٤١٥ .

الفرس إلى غناء العرب[1] وقلده الآخرون فى هذا المجال وقيل إن مسجع « سمع الغناء من الفرس لما أمر معاوية ببناء دوره فى مكة وكان يأتيهم فيسمع غناءهم على بنائهم فأعجب بألحانهم ونقـــله إلى الشعر العربى ثم صاغ عليه »[2].

إن هذا النص يتعلق بالحجاز ولـكن أغلب الظن أن هذا الفن انتقل إلى الـكوفة بعد أن استوطنها عدد كبير من موالى الفرس .

لم يقتصر تأثير الموالى فى حياة المجتمع الـكوفى على عاداتهم وتقاليدهم ووسائل العيش فيها ، وإنما تعداها إلى أبعد من ذلك فقد أثروا فى أخلاق الناس وطباعهم تأثيراً واضحاً قال الطبرى : « إن دينار من أسرة آل قارن إحدى الأسر الفارسية المشهورة كان يختلف إلى الـكوفة فقام مرة خطيباً وقال : « يامعشر أهل الـكوفة أنتم أول مامررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع ، بخـل ، وخب ، وغدر ، وضيق ، ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فنظرت فى ذلك فإذا ذلك من مولديكم فعلمت من أين أتيتم فإذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الأهواز »[3] .

وأضاف الجاحظ إلى تأثير الموالى فقال : « لقد وصف أبو عمر ابن العلاء أهل الـكوفة فقال : « لـكم حذلقه النبط وصفلهم ولنا دهاء الفرس وأحلامهم »[4] .

---

(١) الأصفهانى ، الأغانى جـ ٣ ص ٨١ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ٨١ ؛ النويرى : نهاية الأرب جـ ٤ ص ٢٣٢ .

(٣) الطبرى ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبين جـ ٢ ص ١٠٦ .

(ح) العبيد :

لقد خاض الكوفيون معارك كثيرة ولا سيما فى الجهة الشرقية ، انتصروا فيها جميعاً مما جعلهم يغنمون عدداً كبيراً من الأسرى يكاد لا يحصى عددهم ، مختلفين باختلاف الأمم التى قاتلت الكوفيين وحاربتهم .

وقد كان هؤلاء الأسرى يوزعون على المحاربين كغنائم ، الأمر الذى أدى إلى انتشار الرقيق وكثرته فى بيوتهم . وذكر البلاذرى فى معرض حديثه عن أسرى الحرب واسترقاقهم فقال « روى أن ابن الربيع بن الحارثى قاد بعض الحملات فى سجستان ، وقد غنم العرب فى هذه المعارك أربعين ألفاً[1] .

وكان خالد بن الوليد فى العراق « يسبى عيالات المقاتلة ومن أعانها وكان من جملة السبايا حبيب أبو الحسن (والد الحسن البصرى) وأبو زياد « مولى المغيرة بن شعبه »[2] .

كما سبى خالد بن الوليد فى عين التمر من أبناء المرابطة سبايا كثيرة بعث بها إلى أبى بكر الصديق فكان حمران بن ابان مولى عثمان بن عفان[3] من بنيها .

كان هؤلاء الرقيق يعتبرون غنيمة فتأخذ الدولة خمسهم لبيت المال ثم توزع أربعة الأخماس الباقية على الجنود الذين اشتركوا فى المعارك بالتساوى .

ومن مصادر الرقيق الأخرى أيضاً الشراء حيث كان الناس يجلبون

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨٦ .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٥٥٨ .

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٧٧ ؛ ابن سعد : الطبقات الكبير ج ١ قسم ١ ص ١٠٨ .

الرقيق من مناطق بعيدة وكان عدد كبير من تجار العبيد (النخاسة) يرافقون الجيوش والحملات يشترون أعداداً هائلة من العبيد بالجملة بسعر زهيد جداً .

ولقد لعب النخاسون اليهود دوراً كبيراً فى تصدير العبيد إلى البلاد الإسلامية ، وكانت الكوفة من هذه البلاد التى يباع العبيد ويشترون فى أسواقها بأثمان باهظة حتى أضحت تجارة قائمة بذاتها وكان لهذه التجارة سوق خاص من أسواق الكوفة يسمى سوق السماسرة[١] . وقد أصبحت هذه التجارة من أهم موارد الثراء فى هذه المدينة ومصدراً لربح وفير ، فقد روى عن ابراهيم التيمى أنه اشترى من البصرة عبيداً بأربعة آلاف درهم وباعهم فى الكوفة فربح أربعة آلاف درهم[٢] فكان الربح ١٠٠٪ .

كما اشترى شريح قاضى الكوفة عبدين بألف درهم ثم باعهما بعد مدة بألف وأربعمائة درهم[٣] .

وثمة مصادر أخرى للرقيق ، فكان بعض العمال والولاة يؤدون جزءاً من خراجهم أعداداً هائلة من الرقيق كما أن بعض أهل الكتاب كانوا يقدمون الرقيق من أولادهم على سبيل الجزية فضلا عن بعض الخلفاء أو الولاة العرب الذين كانوا يصالحون البلاد المغلوبة على دفع الجزية التى تتضمن أعداداً كبيرة من الرقيق تدفع كل سنة . فقد صالح عثمان بن عفان النوبة على أربعمائة رأس فى السنة[٤] . وكان هذا الرقيق يوزع على الأمراء وحاشيتهم أو يباع لهم .

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .

(٢) أبو نعيم الأصفهانى : حلية الأولياء جـ ٤ ص ٢١١ .

(٣) وكيع : أخبار القضاة جـ ٢ ص ٢٧٢ .

(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٨٣ ؛ ديمومبين : النظم الإسلامية ص ١٥٨ .

كانت أسعار العبيد فى الكوفة مرتفعة فى كثير من الأحيان ، فقد اشترى قاضى الكوفة شريح وصيفاً وجارية من السوق بتسعمائة درهم[١] كما اشترى عبدين بألف درهم[٢] .

كانت أسعار العبيد تتوقف على أعمارهم وأجناسهم ومواهبهم وقابلياتهم ومقدار ما يحذقه العبد من فن أو صنعة[٣] . وقد قال الأصفهانى أن الشاعر نصيب كان عبداً حبشياً أسود أدخل على عبد العزيز بن مروان ، فدعا المقربين فقال قوموا غلاماً أسود ليس به عيب ، قالوا مائة دينار قال إنه راع للابل يبصرها ويحسن القيام بحلبها قالوا حينئذ مائتا دينار قال إنه يبرى القسى ويثقفها ويرمى النبل ويريشها قالوا أربعمائة دينار ، قال إنه راوية للشعر بصير به ، فقالوا ستمائة دينار قال إنه شاعر لا يلحق حذقاً قالوا ألف دينار ، قال ادفعوها إليه ،[٤] كما بيع أحد العبيد بألف وأربعمائة[٥] .

وكان استئجار العبيد فى الكوفة أمراً مألوفاً ، فقد كان يستأجر لقاء مبلغ معين من المال مع طعامه[٦] .

كانت الحكومة تمتلك أعداداً هائلة من العبيد نظير خمسها من أسرى الحروب ، وقد سمى هؤلاء العبيد (رقيق الخمس)[٧] وقد استخدمتهم فى

---

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) نفس المصدر ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ١ ص ١٢٩ .

Boissonade : Life and work, p. 102.

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ١ ص ١٢٩ .

(٥) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٦) وكيع : أخبار القضاة ج ٣ ص ٧٦ .

(٧) ابن سلام : الأموال ص ٤٣٩ .

الحروب مع الجيوش المقاتلة لأن هؤلاء الأسرى كانوا عادة من الجنود المدربين على فنون القتال . كما استعملت الدولة قسما منهم كأدلاء أو مراسلين واستخدمتهم فى حراسة المدينة وخفارتها وحراسة بعض المؤسسات الحكومية العامة (كالسجون وبيوت المال وغيرها) كما استخدمتهم فى حفر الترع وشق القنوات وفى مقابل ذلك كانت الدولة تمدهم بالكساء والطعام وقد أعطت لهم فى بعض الأحيان رواتب زهيدة جداً ، أشار الطبرى إلى ذلك بقوله « كان مما زاد عثمان بن عفان الناس على يده أن رد كل مملوك بالكوفة من فضول الأموال ثلثه كل شهر يتسعون بها من غير أن ينقص أموالهم من أرزاقهم»[١] .

لقد بلغ عدد هؤلاء العبيد فى الكوفة حوالى ثمن السكان العرب حيث كان سكان الكوفة قبل موقعة صفين سبعة وخمسين ألفاً ومواليهم ومماليكهم ثمانية آلاف[٢] .

وقد كون هؤلاء الرقيق طبقة كبيرة فى المجتمع الكوفى ، وكانت هذه الطبقة فقيرة معدمة استخدمت فى الخدمة وسخرت فى الأعمال الوضيعة التى كان العربى يأنف من مزاولتها الأمر الذى ساعد العرب على الإنصراف إلى الحروب والقتال والأدب والشعر . ومن الأعمال التى زاولها العبيد حرفة الصناعة ، فقد أدى التطور الصناعى فى الكوفة إلى استخدام أيدى عاملة كثيرة ورخيصة فاستقدم الرقيق بأعداد كبيرة . وقد زاولوا المهن اليدوية المختلفة فكان منهم الحائكون والنجارون وصانعـــوا الحلى ، كما اشتغلوا فى الحدادة وصناعة الجلود وصناعة الأوانى والخمور[٣] . كما كانوا

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٣٢٨ .

(٢) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة جـ ١ ص ١٣٤ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٢ ص٦٣ ؛ شفيق باشا : الرق والإسلام ص٢٦ .
Mendelson : Slavery in the Ancient Near Eest, p. 112.

يخزون الأحذية والخفاف ويخيطون[١] الثياب ويشتغلون بالحجامة[٢] .

وقد أظهر عدد كبير من هؤلاء العبيد براعة فائقة فى الحرف والصناعات[٣] المحلية كما اشتغل عدد من عبيد الكوفة فى التجارة بعد موافقة أسيادهم على ذلك ، وكانوا يحصلون على أرباح كبيرة .

وقد كانت لهؤلاء العبيد الحرية التامة فى مزاولة ما يحبون من المهن على أن يدفعوا حصة من ربحهم لسادتهم . فاشتغلوا فى الزراعة ، حيث استخدم الأغنياء وملاكى الأراضى أفواجاً كبيرة فى زراعة السواد وقد كان لعبد الله بن الزبير أرضاً جعل فيها عبيداً من الزنوج يعمرونها له[٤] .

واستخدم هؤلاء العبيد فى سد البثوق وإصلاح البطائح وجعلها أرض صالحة للزراعة وقد اشتغل هؤلاء تحت ظروف طبيعية سيئة ولم يتقاضى هؤلاء العبيد أجراً على عملهم هذا وإنما كان يكتفى بإعطائهم الغذاء الرخيص المكون من الدقيق والتمر[٥] .

وقد استخدمت أيضاً أعداداً ضخمة من هؤلاء العبيد فى السفن التجارية ولا سيما سفن القراصنة[٦] .

كما استخدم العبيد فى الكوفة فى كسح الطرق وتنظيفها وحفر الترع[٧] . هذا وكانت الأسر العربية المترفة فى الكوفة تقتنى الرقيق الأبيض والأسود دلالة على الرفاه والجاه والسلطان وتستخدمهم فى بيوتهم وقصورهم

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٤ .

(٢) الجاحظ : التاج ص ٣٤٥ .

(٣) Fisher : A history of Europe, p. 1028.

(٤) التنوخى : المستجاد ص ٣٤ .

(٥) الجاحظ : البخلاء ص ٣٠٦ .

(٦) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٨ .

(٧) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٤ .

حيث كان يعهد إليهم بالأعمال المنزلية وخدمة الحريم ، فكان العبد يطبخ الطعام ويخبز الخبز ويحفظ المؤن وغيرها .

أما الإماء والجوارى فكان منهن من أصبحن أمهات لعدد كبير من الخلفاء والأمراء عندما كن يتزوجن أسيادهن . كما كن يقمن بالخدمة فى بيوت العرب وقصورها . ومن الجوارى من كن يبعثن المرح فى قلوب السادة بما يتقنه من فنون الرقص والغناء . وقد كان عدد الجوارى يزداد كلما أوغل العرب فى الفتوحات وكلما انغمسوا فى الترف .

وقد اقتنى ولاة الكوفة وسكانها عدداً كبيراً من هذه الجوارى . وهناك إشارة واضحة إلى أن والى الكوفة المغيرة بن شعبة امتلك نحو من ستين أو سبعين أمة[١] .

وقد شجع ذلك النخاسين على جلبهن من أقاصى المعمورة بكميات وافرة وبيعهن فى أسواق الكوفة .

لم يكن العبد فى الكوفة يقضى حياته كلها سجيناً فى قيود الرق والعبودية وإنما كان باستطاعته أن يتحرر من العبودية بعد أن يفدى نفسه بمبلغ معين من المال يدفعه إلى سيده ، أو يكتتب بهذا المبلغ سنداً أو عقداً لسيده يدفعه عندما يتوافر لديه المال اللازم .

ورد فى كتاب (المحبر) ذكر عدة أسماء من هؤلاء العبيد الذين دفعوا لأسيادهم ثمن عتقهم بعقود أو سندات . ففى الكوفة مثلا أشار إلى ثلاثة عبيد كوتب كل منهم على سبعين ألف درهم ثمناً لاسترداد حريتهم ، وستة آخرين كوتب كل منهم على خمسين ألف درهم واثنين كوتب كل منهما على أربعين ألف درهم وخمسة آخرين كوتب كل منهم على ثلاثين ألف

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٤ ص ١٣٨ .

درهم وعبدين كوتب كل منهما على عشرين ألف درهم[1] . وروى أن ابن سيرين كوتب على عشرين ألف درهم[2] .

لقد عاش عبيد الكوفة أعواماً طوال يرزحون تحت وطأة الاضطهاد الاجتماعي والعمل الشاق . فاشتغلوا فى الأعمال الحقيرة التى كان يأنف منها العرب كخرز الأحذية والخفاف وخياطة الثياب[3] والحجامة وكسح الطرقات وتنظيفها[4] وفى خدمة البيوت وغيرها .

كما استخدمت منهم أفواج كثيرة فى زراعة الأراضى الواسعة فى غسل التربة ، وكسح السباخ عنها تحت ظروف صحية وطبيعية قاسية بدون أجر وإنما اكتفوا بإطعامهم طعاماً بسيطاً دقيقاً[5] وتمراً .

وقد أدت هذه الظروف إلى أن يموت منهم أعداداً هائلة نتيجة لتعرضهم للأمراض والأوبئة ، كما أن العرب اعتبروهم أقل منهم مستوى ومنزلة فكانوا يعاملوهم معاملة فيها الكثير من الإزدراء والإحتقار حتى لو اعتنقوا الإسلام فكانوا لا يسمحون لهم أن يسيروا معهم فى صف واحد أو يتقدموا المواكب أو الأكل معهم .

كما إن نظرة الحكومة إليهم لم تكن بأحسن من نظرة الشعب فقد وضعت قوانين جائرة ، وأنظمة اجتماعية مجحفة غير عادلة ، وفرضت عليهم الضرائب الباهظة . كما أنها لم تمنحهم شىء من حقوقهم السياسية والاجتماعية .

---

(١) السكرى — محمد بن حبيب : المحبر ص ٢٤٠ — ٣٤٣ .

(٢) ابن حجر العسقلانى : الإصابة ج ٢ ص ١١٨ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٤ .

(٤) الجاحظ : التاج ص ٢٤٥ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢١٣ .

(٦) الجاحظ : البخلاء ص ٣٠٦ .

(د) أهل الذمة :

المسيحيون :

لقد سكن الكوفة عدد كبير من المسيحيين جاءوا إليها من الحيرة والقرى المحيطة بها ولا سيما بعد زوال مجد الحيرة وعزها . وقد بقى هؤلاء على دينهم فحفظ لهم الإسلام أموالهم وحرياتهم ودماءهم وشعائرهم ، وذلك بموجب العهد الذى كتبه عمر لأهل الحيرة عند الفتح والذى أعطوا بموجبه حريات واسعة .

وقد أقاموا فى الكوفة كنائس عدة بموافقة الأمير ومساعدته حتى أن خالد القسرى والى الكوفة ذهب إلى أبعد من ذلك ، حيث أمر ببناء كنيسة للمسيحيين فى الكوفة وكانت فى ظهر قبلة المسجد[١] . كما كان فى الكوفة أسقفان أحدهما نسطورى والآخر يعقوبى حيث كان نصارى الكوفة طائفتين النساطرة واليعاقبة[٢] .

وفى ظل هذا التسامح تولوا الوظائف الكثيرة فى الدولة ولا سيما كتابة الدواوين فى الكوفة حيث كانت لغة الكتابة فيها بغير اللغة العربية . وذكر البلاذرى أن عمر بن الخطاب عندما أرسل إليه سبايا الفتح جعل بعضهم رقيقاً ليتامى الأنصار وجعل البعض كتاباً وأدخلهم فى خدمة الدولة[٣] .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٨٤ ؛ المبرد: الكامل ج ٣ ص ٨١٢ ؛ الأصفهانى : الأغانى ج ١٩ ص ٥٩ ؛ ترتون : أهل الذمة ص ١١٠ .

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٥ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤٧ .

كما اتخذ أبو موسى الأشعرى له كاتباً نصرانياً[١] بالإضافة إلى أن رجلا مسيحياً تولى إدارة سجن قريب من الكوفة سنة ٢٦ هـ عندما كان الوليد ابن عقبة أميراً عليها[٢] .

كما أن بعض المسيحيين نالوا حظوة عند بعض ولاة الكوفة يحسدهم عليها المسلمون فكان أبو زبيد النصرانى صديقاً حميما للوليد بن عقبة[٣] والى الكوفة وجليسه فى مجالس الشراب والأنس .

وقد اشتغل مسيحيو الكوفة بالصيرفة وكونوا سوقاً لها وصار فى أيديهم أكبر محلات الصيرفة فى المدينة[٤] . حيث كان صيارفة اللخميين قديماً أساقفة الحيرة[٥] .

كان هؤلاء الصيارفة واسطة التبادل الوحيدة بين مسكوكات الفرس الفضية ومسكوكات الرومان الذهبيه[٦] . كما اشتغلوا بعقد القروض لتسهيل التجارة فكانت تجارة التبادل والصيرفة فى أيديهم[٧] . وقد أتقن هؤلاء المسيحيون عمل الصيرفة ونظموه بشكل يشابه بنوك اليوم .

وعندما هاجر سكان الحيرة إلى الكوفة كان من بينهم عدد ضخم من التجار لعبوا دوراً كبيراً فى تنشيط تجارة المدينة لما لهم من خبرة واسعة وتجربة طويلة فى هذا الميدان حيث كانوا يجوبون مناطق كثيرة من العالم طلباً للكسب والربح ، وقد أثنى الهمدانى على همة الحيريين فى التجارة وحبهم للمغامرة والكسب فقال : « وأبعد الناس نجعة فى الكسب

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٤٣ ؛ تريتون : أهل الذمة ص ١٩ .
(٢) الأصفهانى الأغانى ج ٤ ص ١٨٤ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٢٧ ؛ ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٧٨ .
(٤) البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٤٦ .
(٥) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٤ .
(٦) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .
(٧) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .

بصرى وحيرى ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حيرياً[١] .

اليهود :

لقد عاش إلى جانب المسيحيين فى الكوفة يهود جاءوا إليها بعد تأسيسها من (نجران) فى اليمن وأقاموا بالكوفة فى محلة نسبت إليهم سميت (النجرانية) كما جاء قسم كبير من يهود الحجاز بعد أن أجلا عمر ابن الخطاب جميع من قدر على إجلائه منهم[٢] وقدم الكوفة أيضاً عدد آخر من يهود الحيرة . وكان المسلمون ينظرون إليهم نظرة احتقار وإزدراء لشغبهم وخبثهم ولكنهم استطاعوا أن يقيموا شعائرهم الدينية بحرية تامة فى ظل الإسلام وبنوا المعابد فى الكوفة ، وقد ذكر (بنيامين) بأنه شاهد كنيساً لليهود فى الكوفة عند زيارته لها[٣] كما أنهم زاولوا بعض الحرف التى كان العربى يأنف من مزاولتها فكان منهم الصفارون والصباغون وغيرهم .

وبمرور الزمن استطاعوا أن يثبتوا أقدامهم فى المجتمع الكوفى وأن يبسطوا سلطانهم على جميع المهن فزاولوا مهنة التجارة والصرافة والصياغة ونسج الحرير وإدارة السفن وصناعة الزجاج[٤] .

ومن المهن التى اشتهر فى مزاولتها النصارى مهنة الطب فقد كان أساقفة الحيرة يعالجون المرضى[٥] فكانت أديرتهم مستشفيات يلجأ إليها المرضى طلباً للشفاء والعلاج ، فكان دير الكلب مشهور بعلاج إصابة عقر الكلب[٦] وكان للحجاج بن يوسف طبيبان يهوديان يشرفان على شئونه

---

(١) ابن الفقيه الهمدانى : البلدان ص ١٥ ، ١٩١ .

(٢) إبراهيم بن عبد القادر : التنبيه على ما وجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب ص ٩ (مخطوط) .

(٣) رحلة بنيامين ص ١٤٠ ؛ تريتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ٥٩ .

(٤) تريتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ٢٠٥ .

(٥) الأصفهانى : الأغانى ج ١١ ص ٤٠ .

(٦) العمرى : مسالك الأبصار ص ٢٥٤ .

الصحية[١] .

وخلاصة القول عامل والخلفاء والولاة أهل الذمة معاملة حسنة ، فقد أمر عمر بن الخطاب أن يحسنوا معاملتهم وأن لا يكلفوهم فوق طاقاتهم ، وكان كثيراً ما يسأل ولاته عن أحوالهم فيقولون له « ما نعلم إلا وفاء وحسن ملكه »[٢] .

وقيل إن الوليد بن عقبة أمير الكوفة كان يدخل النصارى المساجد ويجرى عليهم الخمر والخنازير كل شهر ، وضمن لهم أرزقهم شهرياً[٣] .

كما أحسن على بن أبى طالب معاملتهم حيث ساوى فى العطاء بين النصارى وبين العرب والموالى[٤] وكان لعمر بن عبد العزيز مواقف طيبة تجاه أهل الذمة كتب إلى عامله بالكوفة قائلا « انظر من كان من أهل الذمة فأظهر الإسلام فأسقط الجزية عنـــه »[٥] كما أسقط عمر ابن عبد العزيز الجزية عن أهل الذمة ، فمن كبرت سنه وضعفت قوته وولت مكاسبه أجرى عليه قوته من بيت مال المسلمين[٦] .

كما تسامح المسلمون مع أهل الذمة فى شرائهم الجوارى المسلمات وتسريهن[٧] .

هذا ولم تقتصر سيطرة أهل الذمة فى الكوفة على مهنة التجارة والصيرفة

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص ١٩٤ .

(٢) الطبرى ، جـ ٤ ص ٢١٨ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٣١ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ جـ ٢، ص ١٥٩ .

(٥) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٧ ص ٤٠٥ (مخطوط) .

(٦) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٧ ص ٤٠٦ (مخطوط) .

(٧) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص ٥٩ .

وإنما امتدت إلى وظائف الدولة فأصبحوا خطراً يهدد المجتمع الكوفى بصورة خاصة والمجتمع الإسلامى بصورة عامة . وقد تنبه إلى هذا الخطر الجسيم بعض الولاة فغيروا من سياستهم تجاه أهل الذمة فعاملوهم بقسوة[١].

كما تنبه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ذلك الخطر فنهى أن تكون يد الذمى هى العليا أو أن يكون لهم الجاه والسلطان فأرسل الرسائل الكثيرة إلى ولاته يقول فيها : « أما بعد فإن الله عز وجل أكرم بالإسلام أهله ، وشرفهم وأعزهم وضرب الذلة والصغار على من خالفهم وجعلهم خير أمة أخرجت للناس . فلا تولين أمور المسلمين أحد من أهل الذمة تبسط أيديهم وألسنتهم وتذلهم بعد أن أعزهم الله وتهينهم بعد أن أكرمهم الله تعالى وتعرضهم لكيدهم ، والاستطالة عليهم ومع هذا فلا يؤمن غشهم إياهم فإن الله عز وجل يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم »[٢] .

وكتب عمر بن عبد العزيز أيضاً إلى ولاته يقول « لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض » .

كما كتب إلى عدى بعزل من كان من العمال من أهل الذمه وأن لا يستعين بهم فعزل ابن رأس البغل وابن زادا نفروج بن بيرى وأقر زاد مرود ابن الهربذ . كما هدم بعض الخلفاء كنائسهم وأقاموا فيها المساجد[٣] .

وجاء فى عيون الأخبار « ذكر للخليفة عمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من أهل الحيرة وكان نصرانياً فقيل له لو اتخذته كاتباً فقال « لقد

---

(١) تريتون : أهل الذمة فى الاسلام ص ١٣٨

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ، ج ٧ ص ٤٢٩ (مخطوط) .

(٣) وجاء فى Repertoire نص يقول : ربنا الله لا نعبد إلا الله أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين .
Chrovologique D'Eigraphie Arabe, vol. 1, p. 16.

اتخذته بطانة من دون المؤمنين »[١] . وهذا النص يؤيد ما ذهب إليه البلاذرى من أن عمر بن الخطاب قد منع ولاته من توظيف أهل الذمة .

كان أهل الذمة فى حياتهم الاجتماعية الخاصة يختلفون اختلافاً كبيراً فى لباسهم ، وهيئتهم ، وسلوكهم . وضح ذلك فى العهد الذى كتبه عمر ابن الخطاب لأهل الذمة ولا سيما النصارى[٢] الذى طلب منهم بموجبه أن لا يتشبه هؤلاء المسيحيون بالمسلمين فى لباسهم وعاداتهم وجميع ما يتعلق بهم[٣] فكان لباسهم يتكون من القميص والسراويل إلا أنهم كانوا يشدون الزنانير على أوساطهم كما أنهم لبسوا فوق رؤوسهم غطاء يختلف عن القلنسوة أو العمامة كما منعوا من لبس ثياب الخز والقصب والقبا[٤] ، لأن ذلك من لباس الطبقة الأرستقراطية العليا فى مجتمع الكوفة كما منعوا من لبس النعال وسمح لهم أن يلبسوا الحلى ولا سيما الخواتم الفضية المنقوشة بنقوش غير عربية[٥]. كما أنه كانت تجز مقادم رؤوسهم وتفرق نواصيهم[٦] . وكان اليهود والنصارى يصبغون عادة رؤوسهم باللون الأسود[٧] .

هذا ويبدو أن الولاة تساهلوا فى مراقبة أهل الذمة وسمحوا لهم أن يغيروا من ميزاتهم التى نص عليها العهد ويتضح ذلك من كتاب عمر ابن عبد العزيز إلى أحد ولاته فى العراق ، فقال « أما بعد فقد بلغنى أن كثير من قبلك من أهل الذمة قد لبسوا العمائم وتشبهوا بالمسلمين فى زيهم فامنعهم

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٤٣ .
(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٢ ، ٧٣ .
(٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٤٩ .
(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٣ .
(٥) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٤٩ .
(٦) ابن عساكر : تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٤٩ .
(٧) لقد ذكر أن الرسول قد نهى عن الخضاب باللون الأسود فقال « غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » ابن سعد ، الطبقات ج ١ قسم٢ ص١٤٢ . كما قال «لا تتشبهوا باليهود والنصارى » . ابن سعد : الطبقات . ج ١ ص ١٤٠ .

من ذلك أشد المنع وخذهم بأن يحلقوا أوساط رؤوسهم»[١] .

* * *

(هـ) السريان :

كان هؤلاء السريان يسكنون الجزيرة الفراتية فى الرها ونصيبين وجنديسابور وحران فى ديارات منتشرة فيها كما سكنوا أيضاً الحيرة والأديرة الموجودة فى أطراف الحيرة والنجف ثم قدموا الكوفة واستقروا بها واشتغلوا بالعلم . فقد قام السريان بنشر الفلسفة اليونانيـــة بالعراق وما حولها . وخاصة مذهب الأفلاطونية وأخذوا ينقلون الكتب اليونانية إلى لغتهم السريانية . وكانت المناطق التى سكنوها ولا سيما حران مركزاً من مراكز الثقافة اليونانية والرياضيات والفلك والفلسفة[٢] .

وقد خدم السريانيون العلم والفلسفة بما ترجموا من مؤلفاتهم فى الطب والرياضيات والطبيعيات والمنطق وغيرها[٣] .

(د) النبط :

ومن أهل الذمة أيضاً (النبط) وهم خليط من الكلدانيين والسريانيين والآراميين ، وقد أطلق عليهم اسم (الأنباط) وكانت الأكثرية الساحقة منهم قد اعتنقت المسيحية منذ قرون خلت[٤] .

وأشار المقدسى إلى أن استعمال كلمة (نبط) تدل على الفلاحين الذين

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤١١ (مخطوط) .
(٢) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ١ ص ٢٧٠ .
(٣) أحمد أمين : ضحى الاسلام ج ص ٢٧١ و ٢٧٢ .
(٤) مجلة المجمع العلمى العراقى : خالد بن الوليد فى العراق ج ١ ص ٨٣ سنة ١٩٥٤ .

يتكلمون اللغة الآرامية فى العراق ، خصوصاً فى منطقة البطيحة[١] .

وقيل إن العرب كانوا يطلقون لفظة (النبط) على سكان العراق الذين لم يكونوا رعاة ولا جنود[٢] . وقد أطلق المسعودى[٣] على فلاحين العراق (النبط) و (السريان) .

ويبدو أنه كان للنبط صفات خلقية خاصة تختلف عن الصفات الخلقية التى يتحلى بها العرب وقد استطاعوا أن يؤثروا فى المجتمع الكوفى تأثيراً واضحاً فقد ذكر الجاحظ أن أبا عمر بن العلاء كان يقول لأهل الكوفة « لكم حذلقة النبط وصلفهم ولنا دهاء الفرس وأحلامهم »[٤] .

ولقد قامت الطبقة المتوسطة من الآراميين بدور مهم فى الحركة الثقافية فى العراق وظهر من بينها عدد كبير من الأطباء المشهورين والفلكيين والعلماء والمترجمين . وقد كانت حران مركزاً للثقافة الآرامية وقد انتشر كثيرون منهم فى المنطقة الواقعة بين الكوفة والبطائح وواسط .

ولذلك لم تتأثر الحضارة العربية فى الكوفة بالحضارة الفارسية فقط بل تأثرت بالحضارة الرومانية الإغريقية بواسطة هؤلاء السريان من النساطرة المنتشرين فى العراق ولا سيما « الحيرة »[٥] .

وقد كان هؤلاء النساطرة الصلة التى كانت تربط بين اليونان والعرب . وكان ذلك واضحاً بما خلفتها من المدارس النسطورية لهم من ثقافة وعلم .

---

(١) المقدسى : ص ١٠٨ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ٦٣٤ .

(٣) المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٧ ، ٣٧ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ١٠٦ .

(٥) شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٤١ .

الفصل الثاني

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية العامة التي اشترك فيها جميع السكان

— الحياة فى دور الكوفة وقصورها .

— الحمامات .

— اللهو والمجون .

— الغناء .

— الأعياد .

— حلبات الخيل .



عرضنا لعناصر السكان فى مدينة الكوفة وأشرنا بقدر ما سمحت به المراجع لألوان من حياتها الاجتماعية ، وقد بقى أن نعرض لبعض مظاهر الحياة الاجتماعية العامة التى شارك فيها السكان جميعاً على اختلاف أجناسهم ونحلهم .

الحياة فى دور الكوفة وقصورها :

بعد أن تم تخطيط الكوفة على النحو الذى رأيناه خصص مكان معين لبناء الدور وفق تخطيط مدروس بعد أن عينوا فيه الطرق والمناهج ، وعينوا موقع أهل اليمن وموقع أهل الحجاز . وكانت بيوت أهل الكوفة أول الأمر من الخيام وبيوت الشعر والقصب[1] حتى إذا غزوا قلعوها وتصدقوا بها ، وإذا عادوا بنوها من جديد وظلت بيوتهم على هذه الحالة حتى شب حريق فى الكوفة[2] ، وأحرقت البيوت كلها فبنيت البيوت من الطين بعد أن استأذنوا عمر بن الخطاب فى البناء فأذن لهم وطلب منهم أن لا يزيد أحدهم على ثلاثة بيوت وأن يطاولوا فى البنيان وقال : الزموا السنة تلزمكم الدولة[3]

وقد كانت هذه البيوت التى بنيت من الطين ساذجة البناء والتنظيم تحتوى على غرفة أو غرفتين أو ثلاث كما أمرهم عمر بن الخطاب وقد تطور هذا البنيان بمرور الزمن حيث بنيت القبائل بيوتها من اللبن فى غير ارتفاع فى أيام المغيرة بن شعبة[4] ، وظلت كذلك حتى بنيت أبواب البيوت من الآجر

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ١٤٧ .

(٢) الطبرى ، ج ٣ ص ١٤٨ .

(٣) الطبرى ، ج ٣ ص ١٤٨ ؛ ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٤٢ .

(٤) البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٨١ .

والصخر فى إمارة زياد بن أبيه[١]. وقد كان فى الكوفة حول خمسين ألف دار للعرب من ربيعة ومضر ، وأربعة وعشرين ألف دار لسائر العرب وستة آلاف دار لأهل اليمن[٢] . يضاف إلى هذا العدد الضخم من الدور بيوت الموالى والعبيد الذين عاشوا فتاتاً من بين القبائل ولم ينتسبوا إلى أحد .

ولما تقدم العرب فى الحضارة ومضى على تأسيس الكوفة سنين طويلة تطور فن البناء بطبيعة الحال ، وبالتالى تطور بناء البيوت حيث أصبح الشكل يلائم حياة العصر . فبنى الأمراء والأغنياء بيوتهم من الطابوق (الآجر) والصخر كما بنت الدولة مدناً كبيرة من الطابوق أيضاً ، فقد بنى يزيد بن عمر بن هبيرة حياً قرب مدينة الكوفة على نهر الفرات فنزلها وكان قد بقى منها جزءاً يسيراً لم يتم ، فجاءه كتاب مروان يأمره باجتناب مجاورة أهل الكوفة فتركها وبنى ابن هبيرة قصراً عرف بقصر ابن هبيرة بالقرب من جسر سورا . فلما تولى أبو العباس السفاح الخلافة نزل تلك المدينة (التى بناها ابن هبيرة) ، وأتم مقاصيره فيها ، وأحدث فيها بناء ، وسماها بالهاشمية[٣] .

الحمامات :

كان للحمامات أهمية كبيرة فى الأقطار الاسلامية ، وكان يعنى بتشييدها على نظام يضمن للمستحم أن لا يؤذيه الانتقال السريع من البرد إلى الحر ، أو العكس فكان فى كل حمام ثلاثة أقسام كل منها أسخن من الذى يسبقه « وتسخن القاعات بواسطة إيقاد النار تحت أرضها »[٤] .

---

(١) البراق : تاريخ الكوفة ص ١٨٠ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج٧ ص ٢٩٣ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٥ ؛ ياقوت : معجم البلدان ج ٤ ص ١٢٣ .
(٤) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٣٨ .

لقد بنى العرب فى مدينة الكوفة عددا من الحمامات بعد أن تطور العمران فيها . وقد كانت الحمامات فى بداية الحكم الأموى فى الكوفة محدودة حيث لم يكن بناؤها سهلا وميسوراً ، وقد كان لا يسمح لأحد أن يبنى حماماً إلا بعد الحصول على أجازة من قبل الحكومة[١] وكان الولاة يمنعون بناء الحمامات داخل المدينة لأنها تضر بالسكان ولا يسمح ببنائها إلا فى المناطق التى خصصت لإقامتها وقد أشار البلاذرى إلى أن زيادة بن أبية كان يمنع بناء الحمامات إلا فى المواضع التى لا تضر بأحد[٢] .

وكانت هذه الحمامات تدر أرباحاً كثيرة جداً وقد ذكر البلاذرى : إن حماماً فى البصرة يحصل منه صاحبه فى كل يوم[٣] ألف درهم .

وكان من أشهر الحمامات ، حمام (أعين) وينسب إلى أعين مولى سعد ابن أبى وقاص[٤] وحمام عمر بن سعد بن أبى وقاص[٥] وحمام أبى برده[٦] وحمام فطن بن عبد الله[٧] ، وحمام عمر بن حريث[٨] . وحمام المهبذان[٩] .

من هذا نرى أن بناء الحمامات هنا استقر على أشراف الكوفة وسادتها . ولم يسمح لغيرهم بمزاولة هذه المهنة .

* * *

اللهو والمجون :

لقد طغت على الكوفة موجة عارمة من اللهو والمجون ولا سيما بعد أن

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٨ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤٤١ (مخطوط) .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان : ص ٣٤٨ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ ؛ الأصفهانى : الأغانى ج ١٨ ص ١٢٩ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ .
(٦) نصر بن مزاحم . وقعة صفين ج ٣ ص ١٥٠ .
(٧) الطبرى ، ج ٧ ص ١١٩ .
(٨) الطبرى ، ج ٧ ص ١١٩ .
(٩) الطبرى ، ج ٧ ص ١٢٠ .

قلت الفتوحات ولم يبق ما يشغل تفكير الشباب وأصبح لديهم فراغ كبير ولم يكن لديهم ما يملأ هذا الفراغ غير اللهو والعبث والمجون الذى توفرت لديهم مقوماته .

ومما ساعد الطبقة المترفة (الأرستقراطية) على الانغماس فى هذه الحياة ما أتيح لها من ثراء فاحش وجاه عريض وفتوة وحيوية ، فكان للأموال التى تكدست والضياع الواسعة مكنتها من أن تنثر المال على ملذاتها ومجونها وقد جعلوا من دورهم مسرحا تزدحم فيها الجوارى والمغنيات .

كما أن هناك عامل آخر هو انتشار موجةالغناء والموسيقى كان من العوامل التى ساعدت على انتشار اللهو والمجون[١] .

يضاف إلى ذلك اختلاط العناصر الأجنبية بالمجتمع العربى ولا سيما الفارسية منها التى عاشت فى المجتمع الكوفى وهى تحمل معها تقاليدها الأجنبية وحياتها الإجتماعية الخاصة التى أخذت تؤثر على العرب ، فتغير من تقاليدهم وحياتهم الإجتماعية[٢]

وثمة أمر آخر أثر فى حياة سكان الكوفة هو قرب الحيرة من مدينتهم وإتصالهم الوثيق بها فتأثروا بالحيريين كثيراً . وكان أهل الحيرة يشربون الخمر بكثرة ، حيث كانت الحيرة مشهورة بخماراتها[٣] الكثيرة وحسن الغناء فيها[٤] .

وكان يقصد مدينة الحيرة كثير من الكوفيين يتحررون من قيود الوقار التى يفرضها عليهم بقاؤهم فى الكوفة[٥] بعيدين عن أعين الرقباء

(١) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ١٩٤ (غير مطبوع).
(٢) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ١٩١ (غير مطبوع).
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١٢١.
(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٢ ص ١٢١ .
(٥) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٠٤ ؛ الأصطخرى : المسالك والممالك ص ٨٢ .

ورجال الدين.وكانت أديرة الحيرة وبعض القرى المحيطة بالكوفة والقريبة منها وبيوت النبط مراكز لشرب الخمر والتحرر واللهو والقصف . وكان لجمال الطبيعة فى هذه الأماكن أثر فعال ولاسيما الأديرة التى امتازت بالبساتين والأشجار والرياحين فضلا عن وجود المغنيات وإتاحة الفرصة لاختلاط النساء بالرجال[1] .

ولكن هذه الحياة الماجنة لاقت مقاومة شديدة أول الأمر ، من بعض الولاة فقد استطاع الحجاج أن يوقف تيار المجون خلال حكمه الرهيب بسبب رقابته الشديدة وعينه الساهرة. وقد شجع الحجاج الشعراء على أن يعنوا بالسياسة وأن يتركوا اللهو والمجون والنظم فيه وعاقب من خالف ذلك عقاباً شديداً فخلت مدينة الكوفة فى عصره من مرح الشعراء وألحان المغنيين،وانتقل قسم منهم إلى الحيرة وظلوا هناك حتى وفاة الحجاج . وقد جرت محاولات أخرى من بعض الولاة الذين تولوا أمر الكوفة بعد الحجاج فى إصلاح الوضع الإجتماعى فى هذه المدينة فقد حاول خالد القسرى أن يضع حداً لتلك الأوضاع الفاسدة التى تفاقمت أثناء حكمه ولكن جميع محاولاته بائت بالفشل ولم يحقق شيئاً رغم الجهود الكبيرة التى بذلها فى هذا السبيل ، فمن الإجراءات التى اتخذها خالد القسرى أن هدم منار المساجد وحطها عن دور الناس بعد أن بلغه شعر لرجل من الموالى (موالى الأنصار) يقول فيه :

ليتنى فى المؤذنين حياتى	أنهم يبصرون من فى السطوح
فيشيرون أو تشير إليهم	بالهوى كل ذات دل مليح[2]

كما حرم خالد الغناء فى أيامه لما كان يحدث فى مجالس الغناء من عربدة ولم

---

(١) الشابشتى . الديارات ص ٦٠ ، ٦١ .

(٢) المبرد : الكامل ج ٢ ص ٨١٢ ، ٨١٣ .

يحه إلا بعد أن شرط أن لا يحضره سفيهاً أو معربداً[١]. وحرم خالد بعضهم من عطائه نتيجة لسكرهم ومجونهم ولم يصرف العطاء لهم إلا بعد أن تعهدوا بالكف عن الموبقات[٢].

ومن قبيل هذه الأوضاع الشاذة التى ظهرت فى بيئة الكوفة الدعوة إلى الإباحية — التحلل من القيود الأخلاقية — التى أثرت فى حياة الشعراء والأدباء الكوفيين الذين أغرتهم اللذة والمتعة. وقد كان هؤلاء شباناً يغريهم الجمال وتمدهم فتوتهم وشبابهم ولا يجدون من يقف فى طريقهم فى بيئة حوت مايطلبون وما يحبون، وقد وصف طه حسين هؤلاء المجان قائلا «فهم كانوا يجتمعون فى دورهم وهم كانوا فى الأديار وهم كانوا يجتمعون فى البساتين والحانات وعلام كانوا يجتمعون؟ على الشراب والغناء والعبث بالنساء والغلمان يسرفون فى ذلك إسرافاً لا يعدى إسراف ويسخرون فى أثناء هذا الإسراف من أصول الديانات والأخلاق والنظم الاجتماعية التى تحظر عليهم ذلك وتعرضهم من أجله لألوان العذاب»[٣].

ولم تقتصر حياة المجون واللهو على الذوات من أبناء الطبقة الأرستقراطية وإنما تعدتها إلى غيرهم من أبناء الطبقة الفقيرة فقد أشار الأصفهانى إلى رجل من أهل الكوفة كان مولى بنى أسد أسمه بكر بن خارجة، وكان هذا وراقاً ضيق العيش مقتصراً على التكسب من الوراقة، وقد صرف هذا جل ما يكسبه على النبيذ، وكان معاقراً للشراب فى منازل الخمارين وحاناتهم عذب الشعر مليحاً مطبوعا ماجنا، وكان يبكر بقنينتين من شراب إلى خراب

(١) الأصفهانى : الأغانى ، ج ٢ ص ١١٩ ، ١٢٠ ؛ النويرى : نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٨٨ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٨ .

(٣) طه حسين : حديث الأربعاء ج ٢ ص ٢٠٦ .

من خرائب الحيرة فلا يزال يشرب إلى أن يسكر ثم ينصرف[١] .

ونتيجة لما يأتى به شاربوا الخمر من المنكرات عند شربهم ، حرم بعض أمراء الكوفة بيع الخمر من خمارى الحيرة فركب إلى هناك فكسر أوانى النبيذ جميعها ولما جاء بكر ليشرب عندهم كعادته وجد الخمر مسكوب فى الرحاب والطرقات فبكى طويلا وقال شعراً فى هذا[٢] .

يالقومى لما جنى السلطان　　لا يكونن لما أهان الهوان

قهوة فى التراب من حلب الكـ　　ـرم عقاراً كأنها الزعفران

قهوة فى مكان سوء لقد صادف سعد السعود ذاك المكان

وأشار إلى رجل آخر اسمه عمار[٣] وهو همدانى عربى كان لين الشعر ماجناً سكيراً معاقراً للشراب والخمر وقد حدث عدة مرات أنه كان ينصرف من الحانات فتلقاه الشرطة فيضربونه الحد ، وكان لا يهمه أن يضرب وإنما يهمه أن يشرب الخمر وظل حياته كلها يشرب الخمر ويرتكب المنكرات حتى مات[٤] .

ولقد حفلت الكوفة بكثير من المجان حتى أن الخليفة الوليد بن يزيد ابن عبد الملك بعث يطلب له جماعة ينادمهم من ظرفاء أهل الكوفة فسمى له مطيع بن إياس ، وحماد عجرد ، والمطيعى المغنى المشهور فكتب فى إرسالهم إليه ، فما يزالوا ينادمونه إلى أن قتل فعادوا إلى الكوفة جميعهم[٥] .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ٨٧ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ٨٧ .

(٣) وهو عمار بن عمرو ولقب ذا كناز ، الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٤ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ١٧٤ ، ١٧٥ .

(٥) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ٧٦ .

وقد أقام أهل الكوفة بيوت وضعوا فيها الجوارى للترفيه عن الناس وكان يقصد هذه البيوت الأغنياء من أبناء الطبقة الأرستقراطية ليشربوا الخمر فيها ويأتوا الفاحشة ويقوموا بأعمال السفه والمجون . وكان من أشهر هذه البيوت فى الكوفة دار ابن رامين .

وقد شاع فى الكوفة أيضاً حب الغلمان والتغزل بهم ، وكان بكر ابن خارجة يتعشق غلاماً نصرانياً يقال له (عيسى بن البراء) تغزل به كثيرا[١] فقال :

زناره فى خصره معقود　　　كأنه من كبدى مقدود

من ذلك نرى كيف غلب المجون على مدينة الكوفة فكانوا يرتكبون الفواحش ويجهرون بها دون خوف أو حذر .

الغناء :

ظهر الغناء فى الكوفة منذ فجر تاريخها وافداً إليها من مدينة الحيرة وقد أخذ هذا الغناء فى التطور وكان خلاصة هذا التطور ظهور المغنى حنين فى الحيرة فى أيام خالد القسرى وكان حنين من فحول المغنيين ، وقد قيل إن الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان مر بالكوفة فلما علم حنين وقف له بظهر الكوفة ، ومعه عود وزامر له ، فلما مر به هشام تعرض له فسأل عنه هشام فقيل له إنه حنين ، فأمر به هشام فحمل فى محمل على جمل وعديله زامره وسيره أمامه وهو يغنى له فأمر له هشام بمائتى دينار والزامر بمائة[٢] .

ولما ولى بشر بن مروان الكوفة كان حنين يحضر إلى مجلسه الخاص

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ٨٧ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١١٧ ؛ النويرى : نهاية الأرب ج ٤ ص ٢٨٧ .

فيغنى له فيأمر له بالجوائز العالية الكبيرة[١] وقد ذكر البلاذرى بأن بشر «كان صاحب شراب ينادم عليه»[٢] .

ولقد أراد حنين أن ينافس مغنى الحجاز فذهب إلى حمص ولكنه فشل وقد قدر لغناء الكوفة أن ينهض بانتقال (ابن رامين) إلى الكوفة حيث غنت جواريه غناءاً كوفياً ممزوجاً بفن الحجاز ، فأدى هذا المزج إلى ظهور لون خاص من الغناء الجديد . وقد كانت فى الكوفة بيوت عامة فيها الجوارى والقيان تملكهن شخص فيعرضهن للغناء وكان يأتيه الشبان لسماعهن والإنفاق عليهن . ومن أشهر هذه البيوت بيت (ابن رامين) كما قلنا سابقاً الذى وفد إلى الكوفة مهاجراً من الحجاز ، وقد أشار صاحب الأغانى إلى ابن رامين بقوله : كان له منزلا فى الكوفة وله جوار ومغنيات أشهرهن (سلامة الزرقاء) وكان يغشاها الفتيان بكثرة للسماع والشراب وممن كان يختلف إليه روح بن حاتم المهلبى ومحمد بن الأشعث ومعن بن زائدة وابن المقفع يرافقهم فى ركابهم أصدقائهم الشعراء والمجان وغيرهم ينفقون المال بغير حساب عن سعة وينشدون أشعار الغزل[٣] .

وقد ضرب لنا الأصفهانى مثلا عن مقدار ما كان يصرف فى هذه الدور من مال فقال : اجتمع معن بن زائدة وروح بن حاتم وابن المقفع عند ابن رامين فلما تغنت الزرقاء وسعده ذلك بعث لها (معن) بدرة فصبت بين يديها ، وبعث روح لها أخرى صبت بين يديها ولم يكن عند ابن المقفع دراهم ، فبعث فجاء بصك ضيعته ، وقال هذه عهدة ضيعتى خذيها ، فأما الدراهم فما عندى منها شيء[٤] . ولم تكن دار ابن رامين وحدها وضعت

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ١٦٦ (مطبوع) .

(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ١٢٧ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ١٢٦ .

فيها الجوارى والقيان وإنما كانت هناك دوراً كثيرة منها دار زريق بن منبح مولى عيسى بن موسى وكان شيخاً كريماً نبيلا يجتمع إليه أشراف الكوفة من كل حى[١] .

لقد جذبت الكوفة فى أواخر أيام بنى أميه أصحاب الجوارى حين وجدوا الكوفة سوقاً رائجة وأرضاً خصبة المكسب عن طريقهن فأقاموا بيوتاً زينوها بالقيان والجوارى فكانت مقصداً لعشاق الهوى والحب يؤمها دون تحرج أو خوف .

وقد استطاعت هذه الجوارى أن ينشرن الفتنة فى أرجاء الكوفة وأن ينشرن الإغراء فى نفوس الشباب بما كن يمارسنه من ضروب الإغراء والفتنة[٢] . وقد كن يلبسن ثياب شفافة جداً تشف عما تحتها ويبرزن عن مفاتنهن ويضعن الأصباغ على وجوهن .

وفى هذا الجو نما الغناء وازدهر ، وكان من أشهر المغنيات اللواتى ذاع صيتهن جوارى حسان هن (سلامه الزرقاء وربيحه وسعده) أخرجن للكوفة فناً جديداً فى الغناء كان حصيلة التزاوج بين الفن الكوفى والفن الحجازى وكان من نتيجة ما يحدث فى هذه البيوت العامة من عربدة وسكر أن أمر بعض ولاة الكوفة بتحريم مجالس الغناء كما فعل خالد القسرى .

وقد كانت الكوفة مقصد عشاق الهوى والشباب وعشاق الملذات والطرب يقدمون إليها للاستمتاع بجمال مغنياته وجواريه وحسن الغناء فيه ، كما كانت الكوفة فى هذا العصر مقصد لبعض المغنين المشهورين فى أنحاء مختلفة من الجزيرة العربية ليقضوا فيها أوقاتاً طيبة من الراحة ، وقيل إن عبيد الله بن سريح

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ، جـ ١٣ ص ١٢٢ .

(٢) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ١٨٧ (غير مطبوع) .

(المغنى المشهور) أتى من الحجاز إلى الحيرة ونزل منزل حنين فى ولاية بشر بن مروان ومعه ثلثمائة دينار ليصرفها فى هذا البلد لما بلغه من طيب الحيرة وجودة خمرها وحسن الغناء فيها(١) .

كما قدم المغنى ابن محرز إلى الكوفة أيضاً طلباً فى الكسب والربح(٢) عندما علم بشغف أهل الكوفة وحبهم الغناء والطرب ، فأصاب منها ألف دينار(٣).

وإلى جانب مجالس الغناء العامة هذه كانت هنالك مجالس خاصة يقيمها عادة بعض الشعراء والأدباء بعيدين عن صخب العامة(٤) .

وقد روى صاحب الأغانى روايات كثيرة تظهر مدى إقبال سكان الكوفة ولا سيما الشعراء منهم على الحفلات الخاصة ومعاشرة المغنيات والذهاب إليهن فى ساعة الفجر حتى أن بعض الولاة كانوا يعقدون مجالس الغناء ولا سيما بشر بن مروان(٥) الذى اتخذ المغنى الكوفى حنين نديماً له وكان بشر يرتدى عادة فى مجالس السمر الخاصة غلالة رقيقة صفراء ، وملاءة مصقولة وكان لايسمح بدخول احد عليه أثناء السمر والغناء .

يدل هذا على أن موجة من المتعة والمجون طغت على عدد كبير من الناس فى الكوفة . وقد روى أنه لما خرج ابن رامين إلى مكة للحج بجواريه بكى الشعراء بكاءاً مراً لخروجه ووصفوا لوعتهم من فرقة مجلسه .

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٢١ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ١ ص ١٤٦ ، ج ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ١٢ ص ٧٨ ، ٧٩ .

٥) الأصفهانى : لأغانى ج ٢ ص ١٢٠ .

وقد نظم محمد بن الأشعث قصيدة يصف خروجهن إلى مكة ويصف لوعته وحزنه على فراق الجوارى(١). ومن ذلك قوله :

أية حال يا ابن رامين　　حال المحبين المساكين
تركتهم موتى ولم يتلفوا　　قد جرعوا منك الأمرين
وسرت فى ركب على طية　　ركب تهـــام ويمـانين
يا راعى الذود لقد رعتهم　　ويلك من روع المحبين
فرقت جمعاً لا يرى مثلهم　　بين دروب الروم والصين

وفى بداية الدولة العباسية بيعت جوارى ابن رامين وانتقلت سلامة الزرقاء . وهى أشهر جواريه إلى محمد بن سليمان بن العباس(٢) . وكانت حظية عنده .

الأعياد :

احتفل المسلمون فى الكوفة شأنهم شأن المسلمين فى كل مكان بعيدى الأضحى والفطر ، وكان الأمير فى الكوفة يخرج لأداء صلاة العيدين فى المسجد مع بطانة فى موكب رسمى مهيب تحيطه الحاشية ، وعليها ملابس مزركشة وخلفه وأمامه الجند يحملون الأعلام والسيوف . وتنحر الذبائح فى عيد الأضحى وتوزع على الفقراء الهدايا والصدقات . ويتزاور الناس فيما بينهم ويتهانوا ويهنىء كل واحد الآخر بالسلامة والصحة والدعاء له بزيارة مكة وقبر الرسول .

واحتفل الكوفيون أيضاً بعيد النوروز وهو أول أيام الربيع وهو من الأعيـــاد الفارسية المشهورة . وكان لهذا العيد مظاهر معينة ، حيث

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ١٢٢ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ١٢٨ .

كان سكان المملكة الساسانية يهدون فيه الملك هدايا كثيرة من المال كانت تبلغ الملايين . كما أن الملك فيه يهدى إلى قواده الخلع والهدايا .

واحتفلوا بعيد المهرجان ويقع فى أول أيام الشتاء وهو من الأعياد الفارسية أيضاً التى يتهاون الناس فيه الهدايا كما يتهادون فى عيد النوروز ، وكان القواد ورجال الخليفة تخلع عليهم فيه ملابس الشتاء ، وكان الناس يعيرون فيه الفرش والآلات والكثير من الملابس[١] .

كما أن الرعية كانت تقدم إلى السلطان هدايا مالية كبيرة . ولما جاء العرب أوقفوا تقديم هذه الهدايا واعتبروها مخالفة للإسلام ، ولكن هذه الرسوم ظهرت مرة أخرى فى عهد عثمان بن عفان حيث طالب الولاة والأمراء أن يقدم الشعب لهم الهدايا فضج الناس وحمل عثمان على إبطالها[٢] .

ولكن أعيد تقديم الهدايا فى هذين العيدين فى عهد معاوية فكان أهل السواد يقدمون إليه الهدايا المالية الكبيرة حتى بلغت هدايا النوروز ، والمهرجان فى العراق فقط فى عهد معاوية « مائة وعشرون[٣] مليون دينار ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة أمر بإبطال هذه الضريبة[٤] ، ولكن الخلفاء الذين أعقبوه ظلوا يجبونها فى العراق وغيره من الأقاليم .

ولا ننسى أعياد الزواج وقد كانت هذه الحفلات من أشهر الأعياد فى الكوفة ، فكانت تقام الولائم وتنصب الموائد وكان يدعون إليها البارزين من قومهم بالإضافة إلى أهل العروسين . وكان العامة من الناس

---

(١) الثعالبى : يتيمة الدهر . ج ٢ ص ٥٨ .

(٢) الصولى : أدب الكتاب ص ٢٢٠ .

(٣) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٩٤ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ .

يحاولون فى هذه المناسبات أن يظهروا بمظاهر الغنى فكان يستأجرون الزينة والآلات والفرش[١] أو يستعيرونها من أقاربهم أو أصدقائهم وتقام فى هذه الحفلات مجالس الغناء والطرب[٢] .

وعيد الختان وكانت تقام فى هذا العيد ولائم لاطعام الناس وسميت هذه الولائم (الأعذار)[٣] ، وكان الناس لا يختنون أولادهم منفردين وإنما جماعات ، وإذ كان الرجل لديه ابناً واحداً فإنه يختن معه عدداً من اليتامى وتنثر الحلوى والنقود على رؤوسهم كما توزع الكسوة للفقراء والمحتاجين .

وكانت لأهل الذمة ولا سيما المسيحيون منهم أعيادهم الكثيرة التى يحتفلون بها منها :

عيد الميلاد (أو عيد البشارة) ، ويعنون به بشارة غبريال وهو (جبريل على زعمهم) لمريم بميلاد (عيسى) يعملونه فى التاسع والعشرين من (برمهات) من شهور القبط[٤] . وفى هذا العيد كان النصارى يزينون كنائسهم ويوقدون فيها الشموع ويلبسون فيها أجمل الملابس وأبهاها كما يقومون بالتزاور فيما بينهم ويغمسون أطفالهم فى النهر فى عيد التعمد رغم شدة البرد[٥] .

وعيد الزيتونة : وهو عيد التسبيح يعملونه فى سابع أحد من صومهم وعادتهم أن يخرجوا بسعف النخيل من الكنيسة وهو يوم ركوب المسيح

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٥ ص ١١٩ ؛ آدم متز : الحضارة الاسلامية ص ٢٩٥ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٢٠ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٢٩٢ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٥ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٦١ ؛ تريتون : أهل الذمة ص ١٢١ .

(للحمار) فى القدس[١] .

وعيد الفصح وهو العيد الكبير عندهم يقيمونه يوم الفطر من صومهم الأكبر[٢] .

كان اليهود يحتفلون بعيد رأس السنة اليهودية ويسمونه عيد (رأس هيشا) كما يحتفلون بعيد الصوم العظيم ويسمونه (صوماريا) ومدته خمس وعشرون ساعة[٣] ، وعيد المظال ، ومدته ثمانية أيام يجلسون فيه تحت ظلال النخيل وأشجار الزيتون ، وسائر الشجر ويزعموا أن ذلك تذكاراً منهم لإظلال الله لهم فى التيه بالغمام[٤] .

وعيد الفصح أو الفطر ومدته سبع أيام يأكلون فيها الفطير وينظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير ، ويعتقدون أن فى هذه الأيام خلص الله بنى إسرائيل من يد فرعون وأغرقه ، فخرجوا إلى التية فجعلوا يأكلون اللحم ، والخبز والفطير وهم بذلك فرحين ، وفى إحدى هذه الأيام السبعة غرق فرعون[٥] .

حلبات الخيل :

كان سباق الخيل عند العرب تسلية شعبية لكافة طبقات المجتمع فكانت هذه اللعبة تحظى بحب واعتزاز كبير من الناس ، وكانت الصحراء مدرسة طبيعية لتعليم فنون الفروسية وسباق الخيل . وكان العرب ينقلون هذه اللعبة معهم حيثما يحلون وكانت تجرى هذه السباقات بصورة

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٥ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٥ .
(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٢٦ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٦ ، ٤٢٧ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٢٧ .

عامة فى الاعياد والمناسبات العامة فى أرض فسيحة وقد أقيمت لها الحلبات الواسعة وأصبحت لعبة لها ما يميزها عن غيرها من الألعاب .

وقد نال سباق الخيل هذا اهتماماً كبيراً عند خلفاء بنى أمية فذكر المسعودى أن هشام بن عبد الملك كان أول من أقام حلبات الخيل كما اهتم بتحسين نسل هذه الخيول ، وقد اشترك فى السباق فى عهده نحو أربعة آلاف من خيله وخيول الآخرين ولم يسبق هذا السباق مثيل[١] . وفضلا عن ذلك كانت أميرات البيت الأموى يتدربن على ركوب الخيل ويشتركن فى السباق[٢] ، كما أن الوليد الثانى كان محباً للخيل مغرماً بها . قال المسعودى : «كان الوليد مغرماً بالخيل وأحبها وجمعها وأقام الحلبة»[٣] . وكان لدى الوليد حصاناً اشتهر فى ذلك العصر يسمى السندى .

وكان الوليد يحضر حلبات الخيل ليشهد السباق مع عدد كبير من الأمراء وكبار الدولة وكانت (رصافة الوليد) مسرحاً لسباق الخيل . وقد انتقلت هذه الحلبات إلى بقية الأمصار الإسلامية ولا سيما الكوفة ، وقد أقام ابن هبيرة فيها حلبة للسباق . وقد شغف أهل الكوفة بالمراهنة عليها .

* * *

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٩ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٤١ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٥٠ .
(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٥٠ .

الباب الثالث

الحالة الاقتصادية

تمهيـــد

١ ــ الثروة الزراعية .

٢ ــ الحركة التجارية .

٣ ــ الصناعة فى الـكوفة .

٤ ــ المعاملات التجارية المالية.

الفصل الأول

الثروة الزراعية

١ — الثروة الزراعية :

(ا) السياسة الزراعية

(ب) اشهر الحاصلات .

(ج) أنواع الأراضى الزراعية .

(د) الإقطاعات .



الحياة الاقتصادية فى الـكوفة

تمهيد :

لقد تركت الحياة الاقتصاديه أثراً واضحاً فى حياة المسلمين وتاريخهم ، ولا يخفى ما للظروف الاقتصادية من أثر عظيم فى تطور الحياة الاجتماعية حيث أن الوجود الاجتماعى هو الذى يحدد التفكير الاجتماعى أو بعبارة أخرى أن أسلوب الناس فى المعيشة هو الذى يحدد طريقهم فى التفكير ، وعلى هذا فقد تطورت الحياة الفكرية بصورة عامة فى الـكوفة وصارت مصدراً لـكثير من التيارات التى لونت حياة الناس على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية بألوان شتى ، فحياة المجون واللهو والشعر الخليع وغيرها تمثل انعكاساً للتطور الاقتصادى .

كما لعبت التجارة دوراً كبيراً فى نشر الدعوات والآراء والمبادىء وقربت الأفكار من بعضها وكانت واسطة لنقل الوسائل الحضارية إلى كثير من المجتمعات والبلدان لهذا كان لابد من أن نتعرض بالتفاصيل إلى الحياة الاقتصادية فى الـكوفة وكيف أحدثت هذه الحياة أثرها المطلوب فى هذا المجتمع .

١ — الثروة الزراعية

(أ) سياسة الدولة الزراعية :

لم تنل الزراعة فى الكوفة العناية اللازمة عندما استوطنها العرب أول أمرهم حيث كانوا جنود محاربين تحت السلاح متأهبين للقتال والرحيل فى كل وقت ، والزراعة كما نعلم تحتاج إلى الاستقرار والسكنى قرب المناطق الزراعية ، وقد يؤدى هذا الاستقرار إلى فقدان العرب الروح العسكرية ، وروح القتال التى امتازت بها القبائل العربية القادمة إلى العراق .

يضاف إلى ذلك أن الخليفتين عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان حظرا على العرب سكنى المدن القديمة كالمدائن وغيرها من مدن العراق ، وأمرا قادتهم أن ينزلوا العرب بمواضع بعيدة كل البعد عن المدن والقرى وحظرا عليهم الاشتغال بالزراعة لئلا يتقاعسوا عن الحرب ويميلون إلى الترف فيفقدون بذلك ميزاتهم العسكرية وحماسهم للحرب .

وقد وجد عمر بن الخطاب ضرورة بقاء العرب أمة عسكرية كما وجد فى تفريقهم على الأرض خطراً على وجودهم لقلة عددهم بالنسبة للمغلوبين وقد تجلى ذلك فى قول الطبرى فقال « أراد العرب الفاتحون أن يقسم عمر ابن الخطاب أراضى السواد عليهم باعتبارها جزءاً من الغنائم التى حازوها بانتصارهم على جيوش الفرس ، ولكن عمر أبى ذلك عليهم وصمم على ترك هذه الأراضى لأصحابها مقابل دفع الخراج »[١] .

ويضاف إلى هذا كله أن العرب الذين استوطنوا العراق لم تكن لديهم الخبرة الكافية فى شئون الزراعة لعدم درايتهم بالأساليب الزراعية ،

---

(١) الطبرى ، ج ٢ ص ١٨٣ .

حيث أن الجزيرة العربية التى عرفت بالجدب والجفاف جعلتهم يبتعدون عنها كل البعد ، كما أن القبائل العربية كانت تحتقر الزراعة كثيراً .

وعلى هذا فقد ترك العرب الأراضى الزراعية بيد سكانها الأصليين ، وهم « النبط » الذين انتشروا فى سواد العراق وكانوا يقومون بزراعة السواد ، وقد أشار كريمر إلى ذلك بقوله « كان أهل الولايات المغلوبة يحرثون ويبذرون والمسلمون يحصدون ولا عمل لهم سوى الحرب وشن الغارات »[١] .

عندما فتح العرب السواد تركوا تنظيم القرية على ما كانت عليه . فكان لكل قرية رئيس يدعى « دهقان » يشتغل أهالى القرية له ، ثم ظهر بمرور الزمن ملاكون عرب وجدوا إلى جانب الدهاقين التى انحطت منزلتهم إلى مجرد جباة[٢] .

اهتم الخليفة عمر بن الخطاب اهتماماً كبيراً بالزراعة فقام بإصلاحات واسعة فى هذا المجال لتسهيل عملية الزراعة على الفلاحين والمزارعين فى الأراضى التى استولى عليها العرب ، وكانت أولى هذه الإصلاحات أن أرسل عثمان بن حنيف الأنصارى لمسح السواد[٣] لمعرفة مقدار الأراضى الصالحة للزراعة وطلب من الفلاحين العناية بالتربة وحرثها وإصلاح الطرق والجسور[٤] .

واهتم عمر أيضاً بمشاريع الرى ونظمها تنظيما يتفق مع الحاجة إليها . فبعث أبى موسى الأشعرى يأمره بحفر نهر بالبصرة بعد أن توجه الأحنف ابن قيس زعيم البصرة بالشكوى من فقر تربة البصرة وملوحة مياهها[٥] .

---

(١) فون كريمر : تاريخ الحضارة فى الشرق ، ج ١ ص ١٧١ .
(٢) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، ج ١ ص ١٢ ، ١٣ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٦٨ .
(٤) الطبرى ، ج ٤ ص ١٨٤ .
(٥) ابن الفقيه الهمدانى : مختصر البلدان ص ١٩٨ .

وقد سمح الخليفة عمر بن الخطاب لجنده بالاستيلاء على الأراضي التى لاحق لأحد فيها وهى أرض الأكاسرة والأراضي التى هرب أصحابها عنها[١] كى لا تبقى بوراً دون زراعة الأمر الذى يؤدى بالتالى إلى ضرر مادى كبير. وسمح أيضاً بإحياء الأراضى الموات فقال «من أحيا أرضاً موتاً ليست فى يد مسلم ولا معاهد فهى له» وروى أيضاً أنه كتب إلى الناس «من أحيا مواتاً فهو أحق به»[٢].

وفى الكوفة طلب دهاقين الأنبار من سعد بن أبى وقاص أن يحفر لهم نهراً كانوا قد سألوا عظيم الفرس حفره لهم فكتب إلى سعد بن عمرو بن حرام بحفرة لهم[٣].

وفى خلافة عثمان بن عفان اقطع أراضى العراق[٤] ولاسيما صوافى كسرى على الصحابة لزراعتها والاستفادة منها ولكن انشغاله بتهدئة الفتنة شغلته عن القيام باصلاحات بارزة فى مجال الزراعة والرى.

بذل الإمام على جهوداً فى خلافته لتشجيع الزراعة على الرغم من انشغاله فى النزاع مع معاوية، فأمر بحفر الأنهر وشق الترع وتطهيرها، وقد أشار اليعقوبى إلى ذلك بقوله «إن على بن أبى طالب كتب إلى عامله قرظة بن كعب الأنصارى: أما بعد فإن رجالاً من أهل الذمة من عملك ذكروا نهراً فى أرضهم قد عفا وادفن وفيه لهم عمارة على المسلمين فانظر أنت وهم ثم أعمر وأصلح النهر فلعمرى لئن يعمروا أحب الينا من أن يخرجوا وإن يعجزوا أو يقصروا فى واجب من صلاح البلاد والسلام».

---

(١) الطبرى، ج ٤ ص ١٨٣.
(٢) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١ ص ٦٦.
(٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٧٣.
(٤) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ٢٧٣.
(٥) اليعقوبى: التاريخ ج ٣ ص ١٧٩.

وقد اهتم الخلفاء الأمويين فى الزراعة واستصلاح الأراضى كما اهتموا فى أمر البطائح وتجفيفها. وكانت البطائح مشكلة العراق الزراعية الكبرى إذ كان نهرى دجلة والفرات يتفرعان عند مصبيهما فى شط العرب إلى نهيرات كثيرة متشعبة وكانت هذه النهيرات ضحلة فتفيض المياه على جوانب النهيرات وتغرق القرى والأراضى الزراعية ، وفى أواخر العهد الساسانى فى العراق انبثقت بثوق عظام فعجز كسرى عن سدها فطغى الماء على الأراضى والعمارات فتحول بذلك قسم كبير من الأراضى إلى بطائح واسعة .

ولما تولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة طلب من مولاه عبد الله بن دراج عامل خراج العراق بمكافحة الفيضانات والاهتمام بأمر البطائح وتجفيفها ، فاستخرج له من البطائح أراضى واسعة بلغت غلتها خمسة ملايين درهم فى السنة[١] . وقد تابع الولاة الأمويين الاهتمام بالزراعة ، فشجعوا الفلاحين على إحياء الأراضى الموات، فكان زياد بن أبية يقطع الرجل قطعة من الأرض تبلغ مساحتها ستين جريباً ويدعه سنتين فإن عمرها وزرعها أصبحت له وإلا أخذها منه[٢] . وقد وضع الولاة الأمويين شروطاً معينة لإحياء الأراضى الموات ، هى أولها مطالبة الفلاحين بإقامة حاجز بينها وبين غيرها ، وثانيهما سوق الماء إليها إن امتازت بالجدب أو نزحه إن كانت بطائح ، وثالثهما حرثها جيداً بحيث يصبح سطحها مستوياً[٣] .

كما اهتم الولاة الأمويين بمشاريع الرى عناية كبيرة ، فأمروا بحفر الأنهار وشق القنوات وأقاموا القناطر والجسور والمسنيات[٤] لمكافحة الفيضانات وحجز مياهها من غمر الأراضى المجاورة للنهر . فقد بنى

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٥٦ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٧٧ .

(٤) المسنيات : السدود وتتكون من قش وتراب يقام فى وجه المياه الجارية .

زياد بن أبية جسراً كبيراً فى الكوفة ليمنع فيضان الماء ، وظل هذا الجسر طوال العهد الأموى ، وقد أجريت عليه إصلاحات كثيرة فى عهد ولاة بنى أمية ، مثل ابن هبيرة ، وخالد بن عبد الله القسرى ويزيد بن هبيرة ، ثم أصلحت بعد بنى أمية مرات[1] .

وعندما تولى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر العراق حدثت ثورات وفتن شغلت الناس عن الزراعة ، وترك عدد كبير من الفلاحين مزارعهم والتحقوا بالثوار وهاجر القسم الآخر إلى المدن تاركين قراهم مما أدى إلى انحطاط الزراعة انحطاطاً كبيراً وبالتالى أدى إلى قلة الخراج . وعلى الرغم من ذلك كله قام بإصلاحات كبيرة ، فقد اعتنى بشئون الرى . فحفر الأنهار الكثيرة كنهر الصين ونهر النيل ونهر الزابى وغيرها . وقد عامل الحجاج العمال الذين يقومون بحفر هذه الأنهار معاملة قاسية جداً فكان يجمع هؤلاء العمال ويربطهم بالسلاسل حتى لا يهربوا أو يتباطأوا فى العمل[2] .

كما اهتم الحجاج بزيادة مساحة الأرض المزروعة فجفف قسماً كبيراً من البطائح التى تمتد من الشمال الغربى إلى جوار الكوفة[3] ولكن الوليد ابن عبد الملك عارض ذلك أول الأمر لكثرة المال اللازم لتجفيفها وقد أشار البلاذرى إلى ذلك فقال « إن بثوقاً انبثقت أيام الحجاج وكبرت وعظمت وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأنه قدر للنفقة على سدها ثلاث آلاف ألف درهم (ثلاثة ملايين) فاستكثرها الوليد فقال له سلمة بن عبد الملك أنا أنفق على سدها من مالى على أن تعطينى خراج الأرضين المجففة التى لا يبقى فيها الماء بعد إنفاق المال على أيدى ثقاتك فأجابه إلى ذلك فحصلت له

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٥ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٨ .
(٣) ابن حوقل ، ص ٢٣٨ ؛ الأصطخرى ص ٨١ ، ٨٢ .

أرضون وطساسيج كثيرة ، لحفر النهرين المسميين بالسيبين »[١] .

وقد اتخذ الحجاج إجراءات قاسية تتعلق بالفلاحين أنفسهم فقد منع هجرة الفلاحين من قراهم إلى المدن ، فأمر بإرجاعهم إلى مزارعهم وقراهم بالقوة ونقش على يد كل واحد منهم اسم قريته[٢] . وكان يخرج إلى المزارع والحقول يتفقد أحوال الزراعة فيقف عند كل حقل ليسأل الفلاحين عن طرق الزراعة وحال المحاصيل وكان يكتب - فضلا عن ذلك - إلى عبد الملك بن مروان تقارير وافية عن كميات الأمطار التى تسقط فى العراق[٣] .

وقام الحجاج أيضاً بتسليف الزراع من بيت المال لتخفيف حدة الأزمة التى كانوا يعانونها ، فأقرض الفلاحين مليونى درهم[٤] .

ومنع أهل السواد من ذبح البقر لتوفير الأعداد اللازمة منه للحراثة والزراعة والرى . وقد لقى انتقادات كثيرة من سكان السواد لهذا الإجراء فقال فيه الشاعر :

شكونا إليه خراب السواد فحرم جهلا لحوم البقر[٥]

ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قام بإصلاحات فى مجال الزراعة فحاول تخفيف الضرائب عن كاهل الفلاحين واعتبر ذلك عملا مشجعاً للفلاحين للإقبال على الزراعة . فكتب رسالة إلى واليه على الكوفة يطلب منه العطف على الفلاحين وتخفيف الضرائب عنهم وألا يحمل خراباً على عامر وألا يأخذ من العامر إلا وظيفة الخراج[٦] ونهى عمرو لأنه عن تسخير

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٢ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٣ ص ٤١٦ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢٢٥ .
(٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥ .
(٥) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥ .
(٦) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٠٧ (مخطوط) .

الفلاحين فى أعمال الأرض[١] .

وحذا يزيد بن عبد الملك حذو عمر بن عبد العزيز فى العناية بشئون الزراعة والرى فأمر واليه على الكوفة عمر بن هبيرة سنة ١٠٥ ه بمسح السواد وكانت هذه المرة الثانية بعد عثمان بن حنيف فى عهد عمر بن الخطاب ولكن هذا المسح أدى إلى فائدة بيت المال وإلى الضرر بالمزارعين فقد وضع ابن هبيرة على النخل والشجر وأضر بأهل الخراج ، وأعاد السخرة والهدايا وما كان يؤخذ فى النيروز والمهرجان[٢] .

وقام ابن هبيرة بكرى الأنهار وأصلح القنطرة التى بناها زياد بن أبيه فى الكوفة[٣] .

ولما جاء خالد بن عبد الله القسرى والياً على العراق اعتنى أيضاً بشئون الرى والزراعة فشق الأنهار والترع للحصول على كميات كبيرة من المحصولات الزراعية فحفر نهر الجامع وأصلح القنطرة التى بناها زياد بن أبيه فى الكوفة وحفر بثر المبارك[٤] . وقام بتجفيف مستنقعات الجزء الأدنى من نهر دجلة وأضاف بذلك مساحات واسعة إلى أراضى الكوفة الزراعية .

كان لمياه نهر الفرات وروافده وخصوبة التربة أثراً فى جعل سواد الكوفة من أغنى المناطق الزراعية فى العراق ، وقد وصف الأصطخرى هذا السواد فقال « إن سواد الكوفة سواد مشتبك غير متميز تخترق إليه أنهار من نهر الفرات »[٥] .

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ، ج ٣ ص ٤٨ .
(٢) اليعقوبى : التاريخ ، ج ٣ ص ٥٥ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٥ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٤ ؛ ابن الفقيه : مختصر البلدان ص ١٨٣ .
(٥) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٥٩ .

ويمتد السواد من غرب الفرات إلى الحيرة والقادسية على حدود الصحراء[١] .

وقد اعتمد قسم فى سكان الكوفة فى زراعتهم على الأمطار فى بعض الأوقات وكان لتأخير نزول المطر أثر سيء على الحاصلات الزراعية .

وعرف أهل الكوفة وسائل الرى الصناعيـــة الراقية فاستعملوا الناعور[٢] والدولاب[٣] والدالية[٤] وغيرها .

(ب) أشهر الحاصلات :

اشتهرت الكوفة بزراعة عدد كبير من المحصولات الزراعية كالحنطة والشعير وقد زرعت هذه المزروعات فى أرض السواد، وأن خراج السواد كان يؤخذ فى كثير من الأحيان من الحنطة والشعير . وقد ذكر قدامة ابن جعفر بأن فلاحى السواد كانوا يدفعون ١٧٧,٢٠٠ كر حنطة ، و٩٩,٧٢٢ كر شعير جزءاً من خراجهم سنوياً[٥] . ومن الحاصلات الزراعية الأخرى التى اشتهرت بها الكوفة الأرز وكانت منطقة السواد مركزاً هاماً لزراعته . وقد ذكر التنوخى « أن حقول الأرز فى الأراضى المنخفضة والأهوار قرب الكوفة وعلى قنوات الفرات السفلى مثل سورا ونهر الصراة ونهر النيل »[٦] .

---

(١) الاصطخرى ، ص ٧٢ .

(٢) الناعور : هو دولاب يديره تيار الماء وكانت منطقة النهروان من المناطق التى تستعمل النواعير فى رى مزارعها .

(٣) الدولاب : يدار من قبل حصان أو بقرة .

(٤) الدالية : دولاب يديره ثور أو بقرة .

(٥) قدامة بن جعفر : الخراج ص ٢٣٩ .

(٦) التنوخى : نشوار المحاضرة ج ٨ ص ٦٧ .

ومن محصولات الكوفة الزراعية أيضاً : السمسم ، والذرة والماش والعدس والدخن(١) .

وكان سواد الكوفة من أكبر مراكز زراعة النخيل فتمتد مزارعه غرباً حتى القادسية وشمالا حتى الأنبار وهيت(٢) .

كذلك انتشرت زراعة الفواكه فى الكوفة وكثرت ، وكانت الكروم من أشهرها وقد كثرت أصنافها وتعددت أنواعها منها عنب « دير العاقول » و« عكبرا » و« سروج » و« حلوان »(٣) وغيرها . وقد أشار البلاذرى إلى كثرة الفواكه فى العراق فقال لاحظ المغيرة بن شعبة أن إنتاج العراق من الفواكه زاد على إنتاج الحنطة والشعير(٤) .

وقد اشتهرت الكوفة ببساتينها الجميلة وكانت تحيط بها من جميع الجهات . ومن أشهر تلك البساتين ، بستان « زائدة» وتقع فى السبخة وهى ضاحية من ضواحى الكوفة(٥) وقد امتازت الأديرة التى انتشرت فى ضواحى الكوفة بأشجارها الباسقة وثمارها اليانعة وأزهارها الجميلة ؛ وقد وصف الشابشتى إحدى أديرة الكوفة فقال « إنه يحتوى على مائة بيت للرهبان وحول كل بيت بستان كبير فيه من كل الثمار والنخل والزيتون ، وكانت غلة كل بستان تباع حوالى مائتى دينار ، وكانت الأنهار تجرى فى هذه البساتين»(٦) .

---

(١) ابن خرداذبة ، ص ١٣ ، ١٤ .

(٢) الاصطخرى ، ص ٥٨ ؛ ابن حوقل ص ٢٤٠ .

(٣) المقدسى ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٥ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٩ .

(٥) الطبرى، جـ ٢ ص ١٠٢ .

(٦) الشابشتى : الديارات ص ١٧١ .

وقد زرعت أنواع من الزهور والرياحين وكان من أشهرها البنفسج والزنبق الأبيض (أزاذ)[1] والنرجس والورد الجورى، والعذارى، والأقحوان والشيح والقيصوم والخزامى والياسمين والنرجس[2] وغيرها. وكانت الأديرة مركزاً لزراعة الأوراد والرياحين.

(ج) أنواع الأراضى الزراعية :

لقد كانت فى الكوفة أنواع عدة من الأراضى الزراعية التى استولى عليها العرب الفاتحون وهى :

١ ـ أراضى الصلح :

وهى الأراضى التى صالح أهلها المسلمين وبقيت ملكية هذه الأراضى بيدهم لقاء دفعهم ضريبة واحدة[3]. وكانت نسبة هذه الأراضى قليلة جداً فى الكوفة، وتشتمل على أرض الحيرة بفضل معاهدتهم مع خالد ابن الوليد[4] وسعد بن أبى وقاص. وبانقيا «ناحية من نواحى الكوفة» والأنبار[5].

٢ ـ الأراضى التى فتحت عنوة :

وهذه الأراضى فتحت بحد السيف وظلت خاضعة لنظام الجباية والخراج وهى لا تباع ولا تشترى وتبقى ملكا لصاحبها يستغلها فى الزراعة

(١) المقدسى، ص ١٢٨.

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٦ ؛ ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٢٤٨.

(٣) يحيى بن آدم القرشى : الخراج، ص ٩.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٢٤٤.

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان، ص ٢٤٧.

وقد أراد الخليفة عمر بن الخطاب أن تبقى هذه الأراضى مورداً مالياً ثابتاً للمسلمين والدولة فى عهده ومن بعده. وكان سواد الكوفة من الأراضى الخراجية بخلاف البصرة التى كانت أراضيها من أراضى الموات.

وقد طالب الفاتحون عمر بن الخطاب بتقسيم هذه الأراضى فقالوا له: «قسمه بيننا فإنا فتحناه عنوة بسيوفنا فأبى عمر وقال: فما لمن جاء بعدكم من المسلمين»[1]. وقد استقر الخليفة عمر على هذا الرأى بعد أن أيده عدد من كبار الصحابة ومنهم على بن أبى طالب الذى قال لعمر «إن قسمتها اليوم لم يكن لمن يجىء بعدنا شىء ولكن نقرها فى أيديهم يعملونها فتكون لنا ولمن بعدنا»[2].

٣ — الصوافى:

وهى الأراضى التى كانت لكسرى وأهل بيته وأرض من قتل فى الحرب وأرض من هرب[3]، وأوقاف البريد وأوقاف بيوت النار والآجام وغيرها، حيث اصطفاهما عمر بن الخطاب، وأصبحت ملكا للدولة الإسلامية وقد بلغت وردات هذه الصوافى سبعة الألاف ألف درهم[4].

وقد ظلت هذه الصوافى ملكا للدولة الإسلامية حتى جاء عثمان بن عفان فوزعها على المسلمين.

---

(١) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٣٦٨.

(٢) اليعقوبى: التاريخ ج ٢ ص ١٢٩.

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٧٢؛ أبو يوسف: الخراج ص ٥٧؛ يحيى بن آدم القرشى: الخراج ص ١٩٦.

(٤) البلاذرى: فتوح البلدان ص ٢٧٢.

(د) الاقطاعيات :

كان سواد الكوفة ملكا مشتركا للمسلمين ووقفاً عليهم كما رأينا سابقاً ولكن هذه القاعدة التى وضعها عمر بن الخطاب تغيرت بعد وفاته فأقطع عثمان بن عفان الأراضى لقسم من الصحابة والتابعين وبعض قادة الجيش . رغبة منه فى إسكانهم منطقة الكوفة ، أو تقديراً منه لخدماتهم الكبيرة وجهادهم فى الإسلام . وكانت هذه القطائع على نوعين هى :

١ — قطائع خاصة : وهى أراضى داخل مدينة الكوفة أقطعت لغرض تشييد المنازل والدور عليها . وكان عددها تسع عشرة إقطاعية شيد عليها الصحابة دورهم وسميت «مساكن الوجوه» وهم[1] :

طلحة أو تسمى دار الطلحيين وكانت فى الكناسة . والزبير ، وأسامة ، وسعد وابن أخيه هاشم بن عتبه ، وأبو موسى الأشعرى ، وحذيفة العبسى ، وعبد الله بن مسعود ، وسلمان الباهلى ، والمسيب الفزارى وعمرو بن حريث المخزومى ، وجبير بن مطعم الثقفى ، وعتبة بن عمر الخزرجى ، وأبو جبير الأنصارى ، وعدى بن حاتم الطائى ، وجرير البجلى ، والأشعث الكندى ، والوليد بن عتبة وأخيه عمار ، والفرات بن حيان العجلى ، وجابر بن عبد الله الأنصارى ، وأم هانى (أرملة هبيرة المخزومى) وهى أخت على بن أبى طالب .

٢ — قطائع عامة : قطعت هذه الأراضى خارج الكوفة من الأراضى الساسانية الواسعة « الصوافى » لتكون لأصحابها مورد رزق ثابت لا يتعلق بالعطاء أو غيره وهم[2] :

١ — أقطع طلحة بن عبد الله — النشاستج .

٢ — وأقطع عدى بن حاتم الطائى — الردحاء .

---

(١) ابن الفقيه : المعارف ص ٧٩ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ما سنيون : خطط الكوفة ص٢١ .

٣ — وأقطع وائل بن حجر الحضرمى — ضيعة زرارة .

٤ — وأقطع خباب بن الأرت — صعبنا .

٥ — وأقطع خالد بن عرفطه — أرضاً عند حمام أعين .

٦ — وأقطع الأشعث الكندى — ظيز ناباد .

٧ — وأقطع جرير بن عبد الله البجلى ، أرضاً على شاطىء الفرات (الجرفين) .

٨ — وأقطع عبد الله بن مسعود — أرضاً بالنهرين .

٩ — وأقطع عبدالله بن مالك الزهرى — قرية هرمز .

١٠ — وأقطع عمار بن ياسر — أسبينا .

١١ — وأقطع الزبير بن العوام — أرضاً .

١٢ — وأقطع أسامة بن زيد — أرضاً ثم باعها .

الفصل الثاني

الحركة التجارية

تمهيد :

(ا) تجارة الكوفة الخارجية :

١ — التجارة البحرية .

٢ — التجارة البرية .

(ب) تجارة الكوفة الداخلية .

(ج) الصادرات والواردات .

تمهيد :

من العوامل التى ساعدت على تطور التجارة فى الكوفة وازدهارها يرجع إلى أسباب كثيرة منها موقعها الجغرافى على أطراف الوادى الخصيب قرب الصحراء إذ هيأ لها أن تكون محطة مهمة فى طريق الحج وملتقى القوافل القادمة من الجزيرة العربية[١] والشام ومصر ، كما أن هــــذا الموقع جعلها نقطة التقاء وتبادل بين إيران والهند وأواسط آسيا والصين شرقاً والشام ومصر وشمال أفريقيا غرباً[٢] ، وأن وقوعها على نهر الفرات جعلها تتصل بالشمال بحلب وأنطاكية ثم بالبحر الأبيض المتوسط . كما تمكنت عبر نهر الفرات من أن تتصل بالهند عن طريق الخليج العربى ، أن هذا الموقع الجغرافى الممتاز لمدينة الكوفة جعلها تتمتع بشهرة واسعة فى عالم التجارة فى ذلك العصر والسيطرة على تجارة العراق الخارجية ، وهكذا قدر لسكان العراق عامة والكوفة خاصة أن يصبحوا وسطاء ناجحين فى تجارة العالم .

ومن هذه العوامل أيضاً أن الدولة شجعت التجارة بصورة مباشرة فقامت بعدد من المشاريع التى سهلت عملية التجارة فشقت القنوات[٣] والترع وأقامت الجسور[٤] والقناطر . كما أنها نشرت الأمن والنظام فى ربوع العراق وحاولت حراسة الطرق ومراقبتها والقضاء على قطاع الطرق واللصوص كما أنها أقامت محطات تجارية فى الطرق التجارية للراحة وتبديل الدواب. فضلا عن أن الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة شجعوا الطلب على البضائع الأجنبية وقدموا التسهيلات اللازمة لها وقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك فعفا التجار عن بعض الضرائب المفروضة على البضائع .

كما أن نفوذ العراق السياسى وقوته وسع بشكل واضح نشاط العمل التجارى فى الكوفة .

---

(١) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص ٤٧٥ .

(٢) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية فى البصرة ص ٢٢٤ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٨٤ ، ٢٨٢٧ ، ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٨ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٥٧ ؛ ماسنيون خطط الكوفة ص ١٧ .

وثمة عامل مهم جداً كان له تأثير فعال فى التجارة وهو أن سكان الحيرة الذين نزحوا إلى الكوفة بعد تمصيرها لعبوا دوراً كبيراً فى تنشيط التجارة فى المدينة لما لهم من خبرة واسعة وممارسة طويلة فى هذا الميدان ، فكانوا يجوبون بلاداً كثيرة طلباً للتجارة والربح حتى قال ابن الفقيه « وأبعد الناس نجعة فى الكسب بصرى وحيرى ، ومن دخل فرغانه القصوى والسوس الأقصى فلا بد أن يرى فيها بصرياً أو حيرياً »[١] .

وقد أكد الجاحظ هذا الرأى فقال :

« إنه ليس فى الأرض بلدة واسعة ولا نائية شاسعة ولا طرف من الأطراف إلا وأنت واجد بها المدينى والبصرى والحيرى » .

معنى هذا التقاء الخبرة الواسعة التى قدمها تجار الحيرة والموقع الجغرافى الممتاز ، والغنى الوافر ، والمال الكثير الذى جاءها من الفتوحات ، جعلها بلداً تجارياً ممتازاً استطاعت أن تكون علاقات تجارية نشيطة مع بقية أقطار العالم .

* * *

وكانت التجارة فى الكوفة مربحة جداً درت على التجار أرباحاً طائلة . وقد جاء فى الحديث النبوى الشريف : « تسع أعشار الرزق فى التجارة » .

وقد أشار الطبرى إلى أن عمر بن الحريث جاء إلى مسجد الكوفة واشترى من غنائم نهاوند بمليون درهم ثم باعها بمليونى درهم[٢] .

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ١٥ — ١٩١ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٥ ؛ البيروتى : الجماهير فى معرفة الجواهر ص ٦٩ .

(ا) تجارة الكوفة الخارجية[1]

١ ـ التجارة البحرية :

كان ظهور الدولة العربية وتوحيد الشرق الأوسط من أهم العوامل التي ساعدت على نشر الأمن والسلام وتحولت التجارة من البحر الأحمر ،

---

(١) لقد كان للعراق القديم صلات وعلاقات تجارية مع الشرق قديمة جداً ترجع إلى حوالى القرن السابع ق . م فى عصر البابليين والآشوريين (يوسف غنيمة : تجارة العراق قديماً وحديثاً ص ٢٥) .

حيث أن البصرة مهيأة منذ القدم لأن تكون مدينة تجارية تنتهى إليها الطرق الآتية من إيران والهند حيث أطلق العرب على المنطقة التى كانت فيها الأبلة أرض الهند (انظر الطبرى ج ٢ ص٥٥٣) وذلك لاتصال هذه المنطقة المستمر بالهند وسكنى عدد كبير من الهنود فيها .

وكان البابليون يصلون بسفنهم إلى الهند فيحصلون على كثير مما يحتاجون إليه من المواد الكمالية الغالية والأحجار الكريمة والبهارات والتوابل والعاج والقرنفل والأخشاب الصلبة وبعض المنسوجات الحريرية والعقاقير (يوسف غنيمة ـ تجارة العراق قديماً وحديثاً ص ٢٥ ـ ٢٦) واتخذت بابل من دجلة والفرات معبرين كبيرين للسفن التجارية وكان فى إشرافها المباشر على الخليج العربى أثراً كبيراً فى تلك التجارة . وقد أقامت على الخليج العربى مستودعات تجارية ضخمة ويسرت وسائل الاتصال ووسائل المراقبة للسفن الوافدة من جميع الجهات . وترجع شهرة البصرة ثم بغداد فى العصر الإسلامى بالتجارة إلى هذه الأسباب .

وقد بلغ من عناية الحكومة بالتجارة أنها ندبت نفسها للاشراف عليها كما سعرت السلع وسنت شروطاً قانونية للمعاملة ولحركة البيع والشراء وكان للبابليين والأشوريين سفن بحرية ضخمة وظل لإقليم العراق صبغة تجارية متمركزة فى الابلة والبصرة فى عهد الإسكندر أيضاً ثم فى أيام الفرس والسلوقيين والاشكانيين والساسانيين (انظر الطبرى ج ٤ ص ١٤٨ — ١٥٠) غير أن هذه التجارة تناقصت إلى حد ما فى العهود الساسانية نظراً لتشجيع خصومهم البيزنطيين التجار عن طريق البحر الأحمر الذى كان رغم بعده أمن وأسلم لبعده عن سيطرة الساسانيين (صالح العلى — التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ٢٢٩) . ولكن الفرس استطاعوا أن يحكموا الطريق البحرى الذى يربط الهند بالعراق عن طريق الخليج العربى والمحيط الهندى وبقيت السيادة لهم على بحر الهند (المحيط الهندى) فقط سيادة مطلقة حتى أن سكان الهند وسكان الحيرة لم يجدوا غير هذا الطريق. فكان الفرس والهنود =

وصارت تسلك طريق خليج البصرة حيث كان أقصر وأسلم وأقل كلفة ، ونفقة ، وكانت ملاحة العرب فى الواقع تقتصر على المحيط الهندى والبحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط وظلت الإبلة[1] — مرفأ لتجارة العراق ، وكان شط العرب ملتقى السفن التجارية القادمة من الشرق والغرب ، وكان يتفرع من البصرة طريقان بحريان رئيسيان أحدهما يذهب إلى الغرب متجهاً إلى البحر الأحمر فيدور حول الجزيرة العربية ماراً بالبحرين وعدن حيث كانت عدن يومها مرفأ لمراكب الهند وكان التجار العرب السائرين فى البحر الأحمر لا بد لهم أن يعرجوا على سواحل أفريقيا الشرقية حتى سفالة (موزبيق)[2] .

أما الطريق الثانى فيسير من البصرة شرقاً إلى الهند[3] ثم الصين . وقد كانت التجارة البحرية مع الهند نشيطة جداً لقربها من العراق ، فضلا عما يلقاه التجار الهنود من تشجيع . وقد اشتهر السيرافيون والعمانيون

= والعرب يذهبون إلى جزيرة سرنديب (سيلان) ومنها يشترون البضائع التى ترد من الصين وقد سير الفرس وسكان الحيرة سفنهم للوصول إلى البحر ونقل البضائع التجارية فى الفرات وانحدروا إلى دجلة العوراء (شط العرب) كما نسميه اليوم ثم إلى البحر (يوسف غنيمه : تجارة العراق قديماً وحديثاً ص ٢٦) .

هذا وقد لاقت هذه التجارة مصاعب كثيرة وعقبات نتيجة لسقوط الإمبراطورية الساسانية حيث تحطمت على أثر ذلك ارستقراطيتها التى كانت أهم مستهلك لسلعها ، محلها محل العرب الذين يفضلون المنتجات المحلية (صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ٢٢٩) .

(١) المسعودى: مروج الذهب ج ١ ص ٨٩ . غزا عتبة بن غزوان الأبلة وفتحها عنوة وكتب إلى عمر يعلمه ذلك ويخبره أن الأبلة فرضة البحرين وعمان والهند والصين . البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٠

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١١٥ .

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١١٧ .

بالتجارة مع الصين بصورة خاصة[١] .

وكانت السفن التجارية تمر بسواحل بلاد فارس حاملة أنواع السلع من منتجات العراق ، ومما ترد إليه من بلاد سوريا واليونان أيضاً كالحديد والنحاس والقصدير . وكان التجار بعد أن يقضوا وطرهم من البيع والشراء تنشر السفن الشراعية أشرعتها موغلة فى البحر لبيع سلعهم ويشترون من الأمصار التى يمرون عليها كأثيواب الحرير والإستبرق ، والقرنفل ، والدار الصينى والتوابل والزعفران والصمغ والصدف والعاج والأحجار الكريمة والعطور وغيرها من حاصلات الثغور[٢] .

ثم تأتى السفن وتفرغ تلك السلع فى العراق فيأخذ الأهلون حاجتهم منها ويبعث بالباقى إلى سورية والاسكندرية وإلى البلاد العربية ومصر[٣] وكان العراق همزة وصل بين دول الغرب وبين الهند فى وقت لم يعرف فيه طريق رأس الرجاء الصالح .

وقد ذكر ابن خرداذبة « أن تجار العراق كانوا يتاجرون مع جزيرة سيلان ويشترون منها الأحجار الكريمة وخاصة العقيق ثم التوابل ويأخذون إليها البضائع ومنها النبيذ العراقى[٤] الشهير .

وقد وصلت السفن العربية المبحرة من الهند إلى (خانقو) أى (كانتون) ميناء الصين الشهير بعد أن تمر فى طريقها بخليج البنغال وبحر الصين .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٧١ ؛ يوسف غنيمه : تجارة العراق قديماً وحديثاً . ص ٢٩ .

(٢) يوسف غنيمة : تجارة العراق ص ٢٩ .

(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٦٧ .

(٤) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ٦٢ .

وكانت السفن التجارية تتبع حركة الرياح الموسمية فتقلع من البصرة فى أواخر فصل الخريف وأوائل فصل الربيع حيث تهدأ الريح وكان المحيط الهندى لا يصلح للملاحة إلا فى فصل الشتاء[١] . وقد قيل إن الرحلة إلى الصين كانت تستغرق سنتين[٢] .

أما الطريق البحرى الذى يبدأ من البصرة ويسير مخترقاً الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر فإنه صالح للملاحة فى جميع فصول السنة[٣] . ولكن هذا الطريق كانت تكثر فيه قراصنة البحر لهذا كان على السفن التجارية أن تزود بالحراس لمقاومة هجمات القراصنة ولصوص البحر . وقد ذكر المقدسى أنه « لا بد فى كل مركب من مقاتلة ونفاطين » لحماية المركب وكانت أخطر منطقة فى هذا الطريق (سقطرى) وهى منطقة تجمع القرصان الهنود»[٤] .

وكانت السفن التجارية تختلف فى أحجامها نسبة للبحار التى تبحر فيها فالسفن التى تسير فى الخليج الفارسى والمحيط الأطلسى كانت كبيرة جداً ترتفع عن سطح الماء حتى يستعمل الناس السلام للصعود إليها ، وكان ارتفاعها يبلغ نحو العشرة أقدام. وقد كانت الأبلة ميناء السفن البحرية[٥]، الكبيرة. أما السفن الصغيرة (القوارب) فهى للتجارة النهرية ولتجارة السواحل وقد استعملت هذه القوارب فى الترع والأنهار والأهوار بكثرة لأغراض تجارية وعسكرية . فقد سار خالد بن الوليد من (أمغيشيا)[٦] إلى الحيرة

(١) ابن رسته : الأعلاق النفسية ص ٦٢ .

(٢) المروزى : فى الصين والترك والهند ، ج ١ ص ٣ ٦

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤ .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٢٥٨ .

(٦) وهى مدينة فى جنوب العراق .

وحمل الرجال والأثقـــال فى السفن وسيرها فى نهر الفرات . وقد استعملت القوارب الصغيرة أيضاً لنقل الجيوش البصرية التى كانت تحارب فى الأهوار[١] كما نقل مصعب بن الزبير جيشه ، من البصرة إلى الكوفة فى هذه القوارب الصغيرة[٢] .

وقد نشطت التجارة النهرية فى الكوفة بمرور الزمن حتى وصلت أوجها فى العصر العباسى الأول ، مما دعا الخليفة المنصور فى سنة (١٤٥هـ) إلى حفر خندق كبير حول الكوفة وفتح له مجرى من الفرات ونصبت عليه قناطر من زوارق ذوات أبواب بغية تسهيل المواصلات التجارية[٣] .

وقد اتصلت الكوفة فيما بعد ببغداد حيث كانت السفن القادمة من الفرات تسير فى نهر عيسى حتى المحول « التى تقع غرب بغداد على بعد فرسخ منها ، حيث تنقل أحمالها إلى قوارب صغيرة تتمكن من السير فى نهر الصراة ـ وهو فرع من نهر عيسى ـ إلى بغداد »[٤].

وقد تمتعت الملاحة فى أنهار العراق والبحار المتصلة بها بحرية تامة لجميع الناس فلم تقتصر على شعب من الشعوب أو أمة من الأمم وليس أدل على ذلك من رغبة عمر بن عبد العزيز حين كتب كتاباً أرسله إلى جميع ولاته فى الأقطار المشرفة على بحار أو أنهار كبيرة يقول فيه : إن جميع البحار وحرية التجارة فيها مباحة لجميع الدول ما لم تشكل هذه الدول خطراً على المسلمين.

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٢) الطبرى ، ج ٢ ص ٧٢٤ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٥ ص ٢٥٨ ؛ الطبرى جـ ٧ ص ١٤٩ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٧ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٨ .

(٥) اليعقوبى : البلدان ص ٢٥٠ ؛ ياقوت : معجم البلدان جـ ٤ ص ٤٣٦ فى سنة (٣١٥هـ ـ ٩٢٧م) أرسل على بن عيسى ثلثمائة قارب من دجله إلى الفرات فى هذا الطريق وكان نهر النيل يصل بين الفرات ودجلة فى العراق الجنوبى .
اليعقوبى : البلدان ص ٣٢٤ .

عملا بالآية الكريمة « وهو الذى سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحماً طريا وتستخرجوا منها حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

وكانت توجد محطات على الطرق النهرية الهامة ومراكز حراسة لحماية السفن التجارية من اللصوص وذلك لضمان سلامة المواصلات واستمرارها[١] وكانت تجبى فى هذه المحطات الضرائب التجارية التى تسمى المكس .

وقد ذكر ابن رسته بأنه توجد فى المحلات اليابسة التى توجد بين الممرات المائية (عند البطيحة) بيوت من القصب فيها حراس يشرفون على سلامة المواصلات[٢] .

وكان ميناء (الكلأ) ميناء خاصاً للقوارب والسفن النهرية التى كانت تحمل التجارة بين البصرة والكوفة من جهة وبين الأهواز من جهة أخرى .

لم تكن البوصلة معروفة إذ ذاك وإنما كان البحارة يستعينون بالظواهر الطبيعية كالشمس والقمر والنجوم . وكان أغلب ملاحى المحيط الهندى من العراقيين والسيرافيين والعمانيين[٣] . وكان هؤلاء الملاحين يسترشدون بخرائط فى رحلاتهم ، وليس أدل على ذلك من قول المقدسى : « ورأيت معهم (أى التجار) دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها »[٤]. كما استعانوا بالحمام الزاجل لنقل الرسائل بين السفن والموانى .

لقد كان خليج البصرة ضحلا عند مصب دجلة العوراء . فإذا بلغته السفن الكبيرة ارتطمت بالأرض وتحطمت فأنشىء لذلك منار فى البحر

---

(١) ابن رسته : الأعلاق النفسية ص ١٨٤ .
(٢) ابن رسته : الأعلاق النفسية ص ١٨٥ .
(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٩٢ .
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٠ .

تسترشد به السفن الذاهبة إلى البصرة[1] .

٢ ـ التجارة البرية :

كانت تجارة الكوفة البرية نشيطة طول السنة ، لوقوعها على حافة الصحراء كما أنها كانت نقطة التقاء الطرق البرية التى توصلها بالشرق والطرق التى توصلها بالغرب . ومن هذه الطرق الرئيسية ، الطريق الشرقى مع إيران ولا سيما خراسان وما وراء النهر وكان التجار القاومين إلى هذه المناطق يسلكون طريق خراسان المشهور الذى يمر بالكوفة ثم إلى همدان وقزوين والرى ونيسابور ومرو وبخارى وسمرقند وكان يتشعب هناك إلى فرعين أحدهما يذهب إلى الشمال حيث خوارزم ، والفرع الآخر إلى الشرق حيث الصين .

وكانت للكوفة علاقات مهمة مع إيران فقد كانت إيران تابعة لولاية الكوفة إدارياً وخاضعة لسلطة أمير الكوفة أو واليها الأمر الذى جعل التجارة مع إيران قوية ونشيطة جداً طوال أيام السنة وكان يستورد منها الفاكهة بكميات كبيرة[2] .

وكان العراق عامة (والكوفة خاصة) مركزاً مهماً لتجارة الترانسيت الإيرانية فى طريقها إلى الحجاز وغيرها .

ومن الطرق المهمة أيضاً الطريق الجنوبى مع الجزيرة العربية والشام والطريق الغربى الذى يتجه إلى مصر وشمال أفريقيا ، وكان الطريق الجنوبى

---

(١) كان هذا المنار على شكل بيوت أنشئت فوق جذوع نخل منصوبة فى البحر يبلغ ارتفاعها حوالى خمسين قدماً فوق سطح الماء ورتب فى البيوت قوماً يوقدون النار فى الليل حتى تتباعد المراكب عن الأماكن الضحلة .

الاصطخرى : المسالك والممالك ص ٨٩ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢ .

ناصر خسرو : سفرنامه ص ١٠٠ .

(٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣١ ـ ٣٢ .

ينشط فى مواسم الحج(١) . أما التجارة البرية مع الصين فكانت ضئيلة جداً وذلك لطول الرحلة وبعد الطريق ، وكان التجار يفضلون الطريق البحرى فى تجارتهم مع الصين(٢) .

أما الطريق البرى إلى الهند فكان شاقاً وطويلا ، وكان ينطلق من الكوفة إلى خراسان ومن خراسان إلى السند ثم الهند .

وأشار ابن خرداذبة إلى طريق آخر كان اليهود يسلكونه فى القرن الثالث الهجرى مسافرين من البصرة إلى الأهواز وكرمان ثم إلى السند أو الهند(٣) والصين . ولا ندرى أسلك التجار العرب فى القرن الأول الهجرى هذا الطريق أم لا .

واتصلت الكوفة بشبه جزيرة العرب اتصالا قوياً ولا سيما بمكة والمدينة(٤) وكان التجار ينشطون كثيراً فى موسم الحج ، وكانت كناسة الكوفة محطة تجارية لهم تمركزت فيها أعمالهم التجارية .

واتصلت الكوفة أيضاً بدمشق(٥) عبر الطريق الجنوبى الذى يربط الكوفة ببلاد العرب والشام . وكان الفرات الشريان الرئيسى

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٣٣

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١١٧ .

ذكر المسعودى فقال « إن رجلا من التجار من أهل مدينة سمرقند فى بلاد خراسان خرج من بلاده ومعه متاع كثير حتى انتهى إلى العراق فحمل من جهازه وانحدر إلى البصرة وركب البحر حتى أتى إلى بلاد عمان وركب إلى بلاد « كله » وهى النصف من طريق الصين أو نحو ذلك وإليها تنتهى مراكب الاسلام من السيرافيين والعمانيين فى ذلك الوقت فيجتمعون مع من يرد من أرض الصين فى مراكبهم . . وعلى هذا فقد ركب هذا التاجر من مدينة (كله) فى مراكب الصينيين إلى مدينة خانقون (ميناء الصين) — المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ١١٧ .

(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣ .

(٤) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٢٨ .

(٥) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٩٩ .

لهم الذى يصل بين سوريا والرقة شمالا وبين الكوفة والبصرة جنوباً ، وكانت السفن التجارية تأتى باستمرار محملة بالبضائع السورية مبحرة فى نهر الفرات .

كان للعرب محطات تجارية على الطرق التجارية البرية شمالا وغرباً تقيم فيها (جاليات) عراقية . ففى الشرق ، أشار بن حوقل إلى وجود مثل هذه المحطات فى سمرقند وفيها جالية عراقية[1] . كما أشار إلى وجود جالية من التجار العراقيين من أهل الكوفة والبصرة وبغداد[2] تقيم بسجلماسة ، وكان لتجار العراق بمصر وكلاء من يهود العراق . وأغلب الظن أن مثل هذه المحطات التجارية لم تظهر فى القرن الأول الهجرى ، وإنما ظهرت فى القرن الثالث الهجرى عندما توسعت التجارة وأصبح لها وسطاء ووكلاء .

هذا وتقوم الحكومة عادة بإنشاء الطرق التجارية وإصلاحها وتقسيمها إلى أميال[3] ومراحل وحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق وكان لقوة الحكومة وسيطرتها أثراً كبيراً فى عملية التجارة ، فالحكومة الضعيفة لا يمكن أن تحمى طرقها بل تصبح تحت رحمة قطاع الطرق واللصوص الأمر الذى يؤدى إلى عرقلة التجارة واضطرابها وبالتالى يؤدى إلى ندرة البضائع وارتفاع أسعارها ارتفاعاً فاحشاً .

لذلك فإن الحكومات كانت تبدى اهتماماً كبيرا بحماية الطرق وتأمين وصول البضائع . كما أقامت الحكومة محطات للاستراحة على طول الطريق ، وقيل أنه بلغ الحجاج أن قوماً من الأعراب يفسدون الطريق فكتب

---

(١) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٣٧٢ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٤٢ .

(٣) وهذا نص « أمر بعمارة هذا الطريق وصنعة الأميال عبد الله بن عبد الملك أمير المؤمنين رحمت الله عليه من دمشق إلى هذا الميل تسعة ومائة ميل .

Repertoire : vol. 1. p. 18.

إليهم كتاباً يتهددهم فيه .. فكفوا عن الطريق[١] .

ولما ولى زياد بن أبية أمر العراق طلب من رؤساء القوم حماية الطرق وحدد لكل رجل منهم حداً ، فساد الأمان والاستقرار فى الطرق التجارية حتى أنه كان يقول «لو ضاع حبل بينى وبين خراسان عرفت من أخذه»[٢] .

كان اهتمام الحكومة بطرق التجارة أمراً جوهرياً فى العصور الإسلامية فكانت الطرق تقسم إلى مراحل أو منازل أو محطات ، وتبلغ المسافة بين كل محطتين حوالى فرسخين[٣] ، وفى كل محطة بدالة فيها الدواب والخيول ، ويعتنى فيها فى هذه الاصطبلات سواس مهرة[٤] ، وكانت هذه الطرق تحت إشراف صاحب ديوان البريد الذى له خبرة واسعة بأحوال الطرق قال قدامة بن جعفر لا ينبغى أن يكون صاحب البريد عالماً بأسماء المواضع وذكر المنازل وعدد الأميال والفراسخ وغيره فى وصف حال المنزل فى مائة وخشونته وسهولته[٥] وعمارته » .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٦٦ ؛ ديعومبين : النظم الاسلامية ص ١٥٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٥١ .

(٣) الفرسخ : يساوى ٦ كم .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٦٦ ، ديعومبين : النظم الإسلامية ص ١٥٦ .

(٥) قدامة بن جعفر : الخراج ص ١٨٥ « مخطوط » .

(ب) تجارة الكوفة الداخلية — الأسواق

تركزت التجارة فى مناطق معينة من الكوفة فكانت الكناسة من أهم هـــذه المراكز لوقوعها عند الباب الغربى قرب البادية[١] وكانت الكناسة[٢] محطة تجارية كبرى مع الجزيرة العربية فكانت موضعاً لإناخة الإبل وتحميل البضائع وتفريغها ، كما كانت تباع فيها الماشية والإبل فى سوق البراذين[٣]، وبها سوق خاص لبيع الرقيق[٤] وكانت تباع فيها غنائم الحروب. ولما انحطت الكوفة فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى أصبحت ضاحية منعزلة لا شأن لها ولا أهمية[٥] .

ومن مراكز التجـــارة أيضاً (دار الرزق) وتقع على الضفة اليمنى لنهر الفرات عند رأس الجسر المنصوب على هذا النهر ، وقد بناها المسلمون أول الأمر لتكون مخزناً كبيراً لجمع غنائم الحروب[٦] وأموال الصدقات قبل توزيعها على المقاتلة[٧] . ثم تطور هذا المخزن تدريجياً فأصبح مركزاً تجارياً هاماً فى تجارة الكوفه وقامت دار الرزق بدور كبير فى الحركات والاضطرابات والفتن الداخلية التى حدثت فى الكوفة[٨] فى تاريخها الطويل وبالإضافة إلى هذه المراكز كانت هناك أسواق كثيرة فى المصر لعرض البضائع وبيعها على الناس .

وقد سبق إن قلنا إن العرب عندما سكنوا الكوفة لم ينسوا مدرستهم الأولى فى العصر الجاهلى والإسلامى وهى الأسواق وقد أنشئوا هذه

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١١٧ .

(٢) الكناسة فى الكوفة مثل المربد فى البصرة مكان واسع للتجارة (ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١) .

(٣) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١١٧ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .

(٥) البراقى : تاريخ الكوفة ص ٢٢ .

(٦) البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٤٥ .

(٧) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .

(٨) نفس المصدر ص ٢٢ .

الأسواق لتحل محل أسواقهم الشهيرة كسوق عكاظ وغيرها وكانت هذه في أول أمرها مناطق معينة يجلس فيها الباعة دون أن تكون لها حدود معينة أو بناء معين وكانت تغطي سقوفها بالحصر في بعض الأحيان حتى زمن الوالي خالد القسري . حيث عقدت بالحجارة والجص وكانت هذه الأسواق تمتد من جسر الكوفة حتى مركز المدينة . وقد لعبت أسواق الكوفة دوراً كبيراً في الحياة السياسية فكانت مراكز للثورة على الحجاج وسياسته[١] وقد تطورت هذه الأسواق فيما بعد فصارت نموذجاً احتذى به في بناء أسواق بغداد[٢] .

أشهر الأسواق :

سوق البراذين : وهو سوق لشراء واستئجار الحمير والبغال والإبل وغيرها ويقع هـــذا السوق بجانب الحدادين[٣] . وسوق الحدادين : وكان يصنع فيه بعض الآلات الحديدية كالسيوف وغيرها من الحاجات الضرورية للسكان[٤] . وهناك سوق الغنم البيع وشراء الأغنام ويقع شرق الكناسة على تخوم مذحج[٥] . وسوق الصاغة : وتصنع فيه بعض المصنوعات الذهبية كالحلي وغيرها من أدوات الزينة وأصبح لهذا السوق أهمية كبرى عندما توغل أهل الكوفة في الترف وزاد اهتمامهم بالكماليات فضلا عن صناعة أدوات الزينة ، ويقع هذا السوق بالقرب من الجامع في الجهة الجنوبية[٦] ، وهناك سوق الخز والقصارين :وهو خاص لبيع الخز الذي اشتهرت به الكوفة سنين طويلة ويوجد في هذا السوق مكان للقصارين[٧] . وكذلك سوق أصحاب الأنماط

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٦٩ .
(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .
(٣) نصر بن مزاحم : صفين ص ٦٨ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .
(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .
(٥) الطبري ، جـ ٢ ص ١١٠ ؛ ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .
(٦) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٦ .
(٧) الصقارون : هم محوروا الثياب (الخياطون) .

ويقع هذا السوق فى أطراف دار الوليد[١] . وهناك سوق لبيع الحنطة والسويق[٢] ، وسوق البزازين[٣]: وهو خاص لبيع الأقمشة والمنسوجات المختلفة . أما سوق الصيارفة والسماسرة فكانت من أهم وأشهر أسواق الكوفة وكانت تقع حوانيت الصيارفة فى مسجد بنى جذيمة[٤] ، وفى جوارهم تقع حوانيت سماسرة العبيد ثم المكارية فى جوانب الكناسة[٥] . وكان هؤلاء الصيارفة ، وأكثرهم من الأقلية المسيحية ، الذين نزحوا من الحيرة واستوطنوا الكوفة تتحكم فى المسكوكات الفارسية الفضية والمسكوكات البيزنطية الذهبية وتركزت تجارة التبادل والصيرفة فى أيديهم[٦] . وسوق الزياتين : فكان خاص لبيع الزيت المستخرج من السمسم وبذور القطن والكتان وكان يقع هذا السوق قرب قصر الإمارة[٧] .

وفى أسواق الكوفة كان يجلس (صاحب السوق)[٨] لمراقبة الباعة ، ومراقبة الأوزان والمكاييل والخبازين والقصابين والجزارين وغيرهم . وكان بعض الولاة يشرفون بأنفسهم على مراقبة السوق والموازين والمكاييل ويتجولون فى أسواق الكوفة ويأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر وأن يعدلوا فى موازينهم ومكاييلهم .

فقد ذكر ابن سعد أن علياً كان يمشى فى الأسواق ويأمر الناس بتقوى الله وحسن البيع فيقول « أوا الكيل والميزان ويقول لا تنفخوا اللحم »[٩] .

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ١٨٢ .
(٢) السويق : هو طحين الشعير ، انظر ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٦ .
(٣) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٤ .
(٥) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .
(٦) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .
(٧) الطبرى ج ٧ ص ١٥٦ .
(٨) صاحب السوق : وهى تطور لوظيفة الحسبة فيما بعد .
(٩) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٣ قسم ١ ص ١٨ .

قال شريح قاضى الكوفة مررت مع على بن أبى طالب فى سوق الكوفة وفى يده الدرة وهو يقول : « يا معشر التجار خذوا الحق وأعطوا الحق ، تسلموا لا تعطوا قليل الربح فتحرموا كثيراً »[١] كما أن زياد ابن أبيه كان يذهب إلى الأسواق للتفتيش على الأسعار والمكاييل والموازين . وكان يسأل عماله عن الأسواق والأسعار فيها[٢] .

ولم تقتصر أعمال الحسبة فى الكوفة على ذلك وإنما تعدتها إلى النظر فى الطعام ، واللباس ، والمساكن والجوامع ومراعاة احوال الفقراء والمعوزين[٣]. وكانوا يراقبون أيضاً الصباغين والحاكة كى لا يهربون بأموال الناس أو حاجاتهم . وكان صاحب السوق عادة يتقاضى راتباً على أعماله هذه من بيت المال[٤] .

وكان للمحتسب أو (عامل السوق) أعوان يساعدونه على القيام بواجباته[٥] وكان ديوان المحتسب يقع بين حوانيت الصيارفة والسماسرة[٦] فى الكوفة ، على أن وظيفة المحتسب هذه تنظمت لأول مرة بصورة مرضية فى تاريخ الكوفة فى عهد ابن هبيرة حوالى سنة ١٠٣ هـ . ، وكان المحتسب قبل هذا يسمى صاحب السوق وكان عاصم بن الأحول على الحسبة والمكاييل والموازين فى الكوفة[٧] فى عهد ابن هبيرة .

---

(١) وكيع : أخبار القضاة جـ ١ ص ١٩٦ .

(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٤ ص ٣٤٠ (مخطوط) .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤١٢ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤١٢ .

(٥) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٧ ص ١٠٨ .

(٦) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبير جـ ٧ قسم ٢ ص ٦٥ .

(جـ) واردات الكوفة وصادراتها

قلنا إن مدينة الكوفة كانت على صلات تجارية مهمة مع مدن العراق والجزيرة العربية بصورة خاصة والدول الأجنبية بصورة عامة . وكانت هذه الصلات تقوم على أساس اقتصادى هو تبادل البضائع والمنتجات ، وكانت واردات الكوفة فى الحقيقة تفوق صادراتها ، وذلك أن الكوفيين لم يزاولوا أى مهنة كانت لانشغالهم بالحروب . وكانوا بطبيعتهم رجالا محاربين بعيدين كل البعد عن معرفة أى صناعة غير صناعة الحرب فكانوا يعمدون إلى جلب حاجاتهم من الخارج بطريق الشراء أو المبادلة . كما أن حياة الرخاء والترف التى تمتع بها سكان الكوفة وزيادة عدد السكان أدى إلى استيراد الكثير من البضائع الكمالية من الأقطار المجاورة .

أما صادراتها فكانت تعتمد على المنتجات المحلية (كمناديل الخز الكوفية والوشى ودهن البنفسج وأنواع من الفاكهة والتمور)[1] .

أما واردات الكوفة فكانت تأتى من مصدرين ، أولهما البلاد العربية الإسلامية وثانيهما البلاد الأجنبية . أما من البلاد العربية فكان يستورد من(البصرة) التمور والخز وماء الورد والحناء ، وثياب الكتان الرقيقة[2] .

ومن (الموصل) الستور والمسوح وقماش الموسلين[3] والحنطة والشعير

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ ؛ يوسف غنيمة : تجارة العراق قديما ص ٥٣ .

(٣) المسوح : ج مسح : كساء مخطط يعمل منه البيت كما يستتر به ويفترش والموسلين نوع من القماش يصنع فى الموصل وسمى بذلك نسبة إلى الموصل ولا زال يسمى بهذا الاسم حتى اليوم .

والعسل والجبن والسماق وحب الرمان ، والقير والحديد ، والسكاكين والنشاب والسلاسل[١] والملح[٢] .

ومن (واسط) البسط والستور والحصر[٣] .

ومن (الجزيرة العربية) الخيل الأصيلة والأديم[٤] والنجائب[٥] .

ومن (ميسان)[٦] الستائر والوسائد والأنماط[٧] والجرار المذارية[٨] .

ومن (الرقة) الزيت والصابون الجيد ، والزيتون والأقلام[٩] .

ومن (حلوان) الرمان والتين[١٠] والكامخ .

ومن (حران) الموازين والعسل والقطن[١١] .

ومن (الجزيرة الفراتيـــة) الجوز واللوز والسمن والخيل

---

(١) المقدسى : احسن التقاسيم ص ١٤٥ ؛ يوسف غنيمة : تجارة العراق قديما ص ٥٢ .

(٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٣ .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٩ .

(٤) الأديم : وهو الجلد المدبوغ عليه شعره أو صوفه أو وبره .

(٥) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٥ .

(٦) مدينة تقع بين البصرة وواسط .

(٧) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٢ .

(٨) نوع من الجرار أشتهر بأنه يرشح الماء ، والمذار التى تنسب إليها هذه الجرار وهى قصبة « ميسان » بين واسط والبصرة وبينها وبين البصرة أربعة أيام وكانت معروفة بجرارها . ياقوت : معجم البلدان ، ج ٧ ص ٤٣٣ .

(٩) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤١ ، ١٤٥ .

(١٠) الجاحظ: التبصر بالتجارة ص ٣٤، الكامخ : من المخللات تشهى الطعام : الجاحظ، البيان والتبيين ج ٣ ص ١٩١ .

(١١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٤٥ .

والجياد[١] .

ومن (نصيبين) الموازين ، وحجر الزجاج والفواكه والبلوط[٢] .

ومن (الشام) المنسوجات الحريرية والقطن والمنسوجات القطنية[٣] . وزيت الزيتون والسكر والفواكه (من تفاح وزيتون وتين) والزجاج والأدوات الزجاجية . وكان العرب يستوردون من الشام السيوف الدمشقية والمشرفية[٤] . ومن (اليمن) البرود والحلل اليمانية والثياب السعيدية والحلل النجرانية[٥] والعدنية والأديم والزعفران، والورس والخضاب[٦] والبخور والدروع والسيوف اليمانية ، والبغال والحمير[٧] .

ومن (عمان) اللؤلؤ[٨] .

ومن (مصر) النسيج القطني والثياب من مختلف الأنواع والمنسوجات الصيفية والكتانية والبغال والحمير ودهن البلسان .

ومن (المغرب) اللبود وثياب الصوف ، والفرو ، والرقيق والجوارب والسيوف ، والبزاة السود[٩] .

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٤٥ .

(٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٢ .

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم ص١٨٠ ، ١٨١ ؛ الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٠ . ابن خورداذبه : المسالك والممالك ص ١٥٣ .

(٤) ابن منصور : لسان العرب ج ١١ ص ٧٥ ؛ نسبة إلى المشارف وهي قرى من أرض العرب ؛ الثعالبي . فقه اللغة ص ١٨ .

(٥) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٧ ؛ الحلل النجرانية : كانت تدفع جزءاً من الجزية للمسلمين ؛ محمد أحمد الله : الوثائق السياسية ص ١٠٣ .

(٦) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ ؛ ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٧١ .

(٧) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٢ .

(٨) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٢ ، ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ .

(٩) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ ؛المقدسي : أحسن التقاسيم ص ٢٣٩؛ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ١٥٣ .

ومن (الأندلس) أجود أنواع النحاس والزئبق ، والجوارى والأقمشة القطنيه والصوفية[١] .

أما واردات الكوفة من البلاد الأجنبية فكان يرد إليها :

من (الهند) التوابل ، والكافور ، والعطور الهندى.والقرنفل ، وجوز الهند ، والرماح ، والقطيفة ، والأبنوس ، والياقوت ، والماس ، وجلود النمور ، والفيلة[٢] ، والسيوف القلعية[٣] .

ومن(الصين) الحرير، والثياب الحريرية ، والديباج والغضائر، والجوارى والعقاقير ، والمسك ،وأوانى الفضة والذهب ،والمداد والكاغد والسروج ، والطواويس[٤] والذهب .

ومن (التبت) أجود أنواع المسك وأعطرها[٥] رائحة .

ومن (فارس) ثياب الكتان والسابرى والجوامع والأقفال والمرايا والسيوف والدروع والطين السيرافى ودهن النيلوفر ودهن الياسمين وماء الورد[٦] .

ومن (مرو) الجياد والطنافس المروية والثياب المروزية[٧] .

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ، ص ٢٥٢ ؛ المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٢٩ .

(٢) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص٢٩ ؛ ابن‌خرداذبه : المسالك والممالك ص٧٠ ، ٧١ ؛ اليعقوبى : البلدان ص ٢٥١ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ١٤٨؛جاء ذكر هذه السيوف فى كتاب أبى دلف مسعر بن مهلهل فيما ينقل عنه ياقوت قال : ثم رجعت من الصين إلى : كله : وهى أول بلاد الهند من جهة الصين وإليها تنتهى المراكب ، ثم لاتتجاوزها وفيها قلعة عظيمة فيها معدن الرصاص القلعى لايكون إلا فىقلعتها وفىهذه القلعة تضرب السيوف القلعية وهى الهندية العتيقة.

(٤) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص٢٧ ؛ ابن خرداذبه: المسالك والممالك ص ٦٩ ، ٧٠؛ ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥١ .

(٥) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥١ .

(٦) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٣٢ ؛ ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٤ .

(٧) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ٢٩ ؛ ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٤ .

٤ — المعاملات المالية والتجارية

ا — الصيرفة

ب — البنوك

ج — السفاتج

د — الصكوك

هـ — القروض

و — الحوالات

ز — النقود

٤ — المعاملات المالية والتجارية

(أ) الصيرفة :

رأينا كيف انسع نطاق المعاملات التجارية فى الكوفة ، وكيف أن التجار تعاملوا مع أصقاع بعيدة وأقطار نائية. ولما كان من الصعوبة بمكان نقل المال اللازم لشراء البضائع أو تداول العملة لاختلافها بين الأقطار المختلفة ، فكان لابد أن يظهر من يقوم بتيسير هذه العمليات لقاء مبلغ معين يؤخذ من التجار على سبيل العمولة . وقد اطلق على الأشخاص الذين اشتغلوا بتبديل العملات اسم الصيارفة ، وعلى العملية نفسها اسم الصيرفة .

ولما بنيت مدينة الكوفة نقل أهل الذمة نشاطهم إليها وكونوا سوقا خاصة للصيرفة . كما انتقل اليها مسيحيون من الحيرة كانوا يزاولون مهنة الصيرفة[١]، وسيطروا عليها. وقد نزح إلى الكوفة أيضاً صيارفة من مسيحى نجران فى اليمن[٢] ، حتى صار معظم الصيارفة فى الكوفة من المسيحيين[٣].

وقد أتقنت الكوفة عمل الصيرفة ونظمته بشكل يشابه (بنوك اليوم). وكانت عملية الصيرفة هذه تدر ربحاً طائلا لتوسع التجارة وازدهارها وتكون الثروات الطائلة عند الأفراد الذين كانوا يستخدمون أموالهم فى الصيرفة[٤].فضلا عن الأرباح الضخمة المتكونة من الفائض أو الربا كما أن الصيرفة والصيارفة لعبوا دوراً هاماً فى سياسة المدينة فكانت تمول المؤامرات

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٤ .

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ٢٤ .

(٣) الجاحظ : ثلاث رسائل ص١٧ .

(٤) المبرد : الكامل ج ١ ص ٣١٠ .

والفتن الداخلية وتنفق عليها مبالغ طائلة ، وكانوا يجمعون الأموال لتمويل المؤامرات[1] والدعاية لها. ومن هنا تعهد الصيرفى ابن مقرن للمنصور سنة (١٤٥) ﻫ بأن يعمل على إقرار الأمن والطمأنينة فى الكوفة[2] .

واشتغل صيارفة الكوفة بتحويل الدنانير إلى دراهم وبالعكس وكان لهم فضل كبير فى تقدم فن الصيرفة فى العراق[3] بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة ، فقد تعلم يهود بغداد فن الصيرفة عن صيارفة الكوفة وأتقنوه .

ولم يقتصر فن الصيرفة على مسيحى المدائن والحيرة ويهود بغداد وإنما تعداها إلى المسلمين حيث ظهر منهم عدد قليل من الصيارفة وكان هؤلاء على اتصال دائم بنصارى نجران الذين نزحوا من اليمن[4].

كانت حوانيت الصيـــارفة فى الكوفة تقع فى مسجد بنى جذيمة[5]. ولما كان الإسلام قد حرم الربا فان الصيـــارفة المسلمين كانوا يمزجون أعمال الصيرفة بالتجارة ، وكانوا يبيعون المدينين بضائع بسعر أعلى بكثير من سعر السوق ويكون الدفع مؤجلا والفرق بين سعر السوق وسعر البيع هو الفائدة المستحقة عن ثمن البضاعة عن المدة التى أجل فيها الدفع ويسمى هذا النظام بالعينة أو الورق[6] .

كانت تأتى أموال الصرافين هذه من (الودائع) التى يودعها الناس عندهم كما أن عملية الإقراض كانت تجلب لهم أرباحا كبيرة لكثرة الفائض الذى يأخذونه عند تسليفهم الناس من هذه الودائع .

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .
(٢) البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٤٦ .
(٣) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .
(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٤ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٤ .
(٦) صالح العلى : التنظيمات فى البصرة ص ٢٦٠ .

والخلاصة أن عملية الصيرفة هذه قامة بدور مهم فى حياة الكوفة الاقتصادية والاجتماعية إذ اشتغل هؤلاء الصيارفة بالتسليف والقروض ، كما أنهم كانوا يتوسطون بين الناس ودار الضرب ، ويقبلون الودائع ثم يقومون بصرف النقود وتبديلها .

(ب) البنوك :

لم تكن البنوك فى الكوفة بالمعنى المفهوم اليوم ،وإنما كان أغلبها محلات أو حوانيت خاصة يمتلكها أفراد يتوفر لديهم المال اللازم ، وكان هؤلاء الأفراد الذين أنشأوا هذه البنوك ، أما تجاراً أخذوا يشتغلون بالصيرفة أو صيارفة يشتغلون بصرف النقود ثم وسعوا معاملاتهم إلى قبول الودائع وتسليف النقود .

وقد قام أصحاب البنوك بخدمات كثيرة فكانوا يسلفون الأموال للتجار ويستلمون منهم الودائع ويقرضون النقود ، وقد كان لهذه البنوك الشخصية فروع فى بعض الأماكن على اتصال بالمركز[١] .

وقد قامت هذه البنوك بدور كبير فى عالم التجارة والاقتصاد وساعدت على استعمال السفاتج الصكوك والحوالات والقروض وغيرها .

(ج) السفتجة :

هى أن تعطى مالا لرجل فيعطيك خطاً يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له فى مكان آخر . وهى كلمة (فارسية) .

وظهر استخدام السفاتج فى معاملات الكوفيين التجارية فى فجر تاريخها ذكر السرخى « أن ابن الزبير كان يأخذ بمكة الورق من التجار فيكتب لهم إلى البصرة وإلى الكوفة فيأخذون أجود من ورقهم » وكذلك

---

(١) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية فى البصرة ص ٢٦٥ .

كان ابن عباس يأخذ الورق بمكة على أن يكتب لهم إلى الكوفة بها[١] . وكانت السفاتج وسيله هينة لتسوية المعاملات بين مختلف المدن والأقطار وكان التجار يستخدمونها لتصفية حساباتهم بين مختلف الأقطار[٢] وكانت السفاتج محدودة الانتشار فى القرنين الأول والثانى وظلت محصورة فى الاستعمالات الشخصية طيلة هذه الفترة . وما أن جاء القرن الثالث والرابع الهجرى حتى شاع استعمالها بشكل واسع وتعددت أغراضها .

(د) الصكوك :

وهى سيلة أخرى من وسائل المعاملات التجارية والصك أمر خطى يدفع مقدار من النقود (أو العطاء أو الرزق) إلى الشخص الوارد اسمه فيه . قال البلاذرى « كان على سعيد بن العاص ديون تبلغ تسعين ألف دينار مسجلة عند غرمائه بالصكوك »[٣] .

وقد شاع استعمال الصك فى صدر الإسلام فكانت الأرزاق والرواتب تدفع « أحياناً كثيرة بالصكوك وقيل أن عمر بن الخطاب كان أول من صك وختم أسفل الصك »[٤] .

وجاء فى العقد الفريد أن الحجاج قال ليزيد بن مسلم بعد أن منع عطاء أحد الأفراد وحبس اسمه . افكك لهذا عن اسمه واصكك له بعطائه[٥] .

وكانت الصكوك أيضاً تقـــوم مقام النقود فى كثير من الحالات

---

(١) السرخسى : المبسوط جـ ١٤ ص ٣٧ ؛ صالح العلى : التنظيمات فى البصرة ص ٢٦٤ .

(٢) الزبيدى : تاج العروس ١ ص ٥٩ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف جـ ٤ قسم ٢ ص ١٣٢ .

(٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ١٣٢ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ١ ص ٣٦ .

« اشترى يزيد بن المهلب مثوناً وكتب صكا للبائع بالثمن »[١] .

وكانت الصكوك تكتب وتصرف بنفس المدينة ، وكانت أحياناً على بيت[٢] المال أو على الصرافين والجهابذة[٣] .

وكلمة صك كانت تطلق أحياناً على (سند الدين) وقد جرت العادة أن يوقع الصك شاهدان[٤] ثم يختم فى أسفله .

لقد كوتب محمد ابن سيرين على عشرة آلاف درهم وعشرة وصائف فى صك لقاء عتقه[٥] .

كما أن صاحب الأغانى أشار إلى الصكوك التى تقوم مقام (سند الدين) فقال « إنه إذا كان السلطان بالمدينة إذا جاء مال الصدقة ، أدان من أراد من قريش منه وكتب بذلك صكوكاً عليه[٦] » فيستعبدهم به ويختلفون إليه ويداورونه فإذا غضب على أحد منهم استخرج ذلك منه حتى كان هرون الرشيد فكلمه عبد الله بن مصعب فى صكوك بقيت فى ذلك على غير واحد من قريش فأمر بها فخرقت عنهم فذلك قول جعفر بن الزبير :

فما كنت دياناً فقد دنت إذ بدت
صكوك أمير المؤمنين تدور[٧]

هذا وأن بعض الصكوك تعطى ولم يكن لها موعد معين لدفعها فقد كتب سعيد بن العاص صكا على نفسه لشخص بمقدار عشرون ألف درهم بشهادته

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ١ ص ٣٤٣ .
(٢) مسكويه : تجارب الأمم ، ج ٣ ص ٤٦١ .
(٣) الجهبذ : ج ، جهابذه : الفاقد الذى يميز الجيد من الردىء
(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٣٢٥ .
(٥) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٧ قسم ١ ص ٧٨ .
(٦) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ١٠١ .
(٧) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ١٠١ .

وشهادة مولى له وقال سعيد لهذا الشخص « إنك لن تصادف عندنا شيئاً فخذ هذا فإذا جاءنا شيء فائتنا »[1].

وقد ذكر ابن حوقل فقال : « إنى رأيت صكا كتب بدين على محمد ابن أبى سعدون بادوغشت (مراكش) وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار[2].

ولم يقتصر أمر الصكوك على المال فقط ، وإنما تعداها إلى أبعد من ذلك فقد كانت الأرزاق توزع على الناس بالصكوك فى بعض المدن وذلك بأن يعطى الأهالى صكوكا يأخذون بموجبها الأرزاق من دار الرزق كما كان الحال فى الحجاز[3] . وقد قامت الصكوك مقام سندات التملك للضياع والأملاك ، وكان ابن المقفع فى الكوفة فأعجب بجارية ولم يكن عنده دراهم فبعث فجاء بصك ضيعته ، وقال هذه عهدة ضيعتى خذيها[4] . كما استعملت الصكوك لدفع رواتب المقاتلة والجند .

(هـ) القروض :

لقد كان الصيارفة يعطون قروضاً أو سلفاً للأشخاص المحتاجين لقاء ربح معين وكانت هذه العملية تجلب لهم أرباحاً كبيرة لكثرة الفائض الذى يأخذونه وهناك أمثلة واضحة على مقدار هذه القروض فقد أقرض أبو دكين فى الكوفة (مولى مراد) عشيرته « سبعمائة ألف[5] درهم » .

(و) الحوالات :

وذلك بأن يودع التاجر أو الشخص الذى لديه المال أو النفائس عند

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١ ص ١٦ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص ٤٢ .

(٣) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٧٧

(٤) الأصفهانى : الأغانى ج ١٣ ص ١٢٦ .

(٥) السكرى : المحبر ص ٢٤٢ .

صراف ويأخذ وصلا بها ، وعندما يشترى هذا التاجر حاجة ، أو بضاعة يعطى حوالة على الصراف ، ويقوم هذا الصراف بصرفها ، هذه الودائع كانت من أهم مصادر أموال الصرافين والبنوك فقد أودع أبو على الخازن خمسين ألف دينار مع صراف[1] . وجعلت هذه الحوالات المعاملات التجارية منظمة وسريعة . كانت هذه البنوك ذات نفع عظيم فقد سهلت عملية التبادل التجارى بين الأمصار والأقاليم النائية وقللت من مشاكل نقل النقود بين الأمصار وتعريضها للأخطار والسلب بالإضافة إلى مصاريف النقل المالية .

* * *

(١) مسكويه : تجارب الأمم ج ٢ ص ١٨٨ .

(ج) النقود :

لم يكن للعرب عملة خاصة بهم فكانوا يتعاملون بالنقود الفارسية والبيزنطية وغيرها كالدراهم الفضة الفارسية وتسمى الورق ، والدنانير الذهبية البيزنطية[١] تسمى (العين) فلما جاء الإسلام أقر الرسول (ص) النقود على ما كانت عليه وتعامل الرسول نفسه بهذه النقود . ولما تولى أبو بكر الخلافة أقر تداولها بين الناس ولم يغير منها شيئاً .

وقد كثر استعمال عدة أنواع من الدراهم فى ذلك العصر هى :

(١) الدرهم البغلى[٢] . ويزن ٣٠ قيراط = ٨ دوانيق = ٦٦ر٤ غرام[٣]

(٢) الدرهم الطبرى[٤] . ويزن ١٠ قراريط = ٤ دوانيق = ٨٣ر٢ غرام[٥]

(٣) الدرهم الجرارقى[٦] . ويزن ١٢ قيراط = ٥ر٤ دوانيق = ٤٠ر٣ غرام[٧] .

(٤) الدرهم الوافى .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ : الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٨ .

(٢) الدراهم البغلية : نسبة إلى « بغل » وهو اسم رجل يهودى ضرب تلك الدراهم وكان يعرف (برأس البغل) ، الكرملى : النقود العربية ص ٢٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٨ . المقريزى : شذور العقود ص ٢ ، الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢١٠ .

(٤) الدرهم الطبرى : من الدراهم المضروبة فى طبرستان ، وقيل الدراهم المضروبة فى طبرية فى الأردن ، الكرملى النقود العربية ص ٢٤ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٨ ؛ المقريزى : شذور العقود ص ٢ ، الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢١٠ .

(٦) الدراهم الجوارقية : نسبة إلى جورقان (بالضم) قرية بنواحى همدان . الكرملى النقود العربية ص ٢٣ .

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ ، الماوردى الأحكام السلطانية ص ٢٦٨ . المقريزى : شذور العقود ص ٢ ، الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢١٠ .

(٥) الدراهم السميرية[١] :

إن هذه النقود ـ الساسانية والبيزنطية ـ لم تبق على حالها ، فقد طرأت عليها تغيرات تدريجية فظهرت (الدراهم والدنانير) وعليها كتابات عربية وكان الخليفة عمر أول من ضرب هذه العملة في سنة ١٨ هـ — ٦٣٨ م على وزن (١٤) قيراطاً على نقش الكسورية وشكلها وأعيانها (صورها) ولكنه زاد عليها كتابات عربية مثل (الحمد لله) وفي بعضها الآخر (محمد رسول الله) وأضيف إلى البعض الآخر (لا إله إلا هو) وعلى جزء منها أضيف اسم (عمر)[٢] ولما بويع عثمان بن عفان ضرب في خلافته دراهم ونقش عليها عبارة التكبير (الله أكبر) . وقد شاع في الكوفة في عهد عمر بن الخطاب تزييف العملة الإسلامية، فكان الفرس قد غشوا هذه العملة فسميت (الزيوف) وقد أمر عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال في الكوفة أن يكسر هذه الزيوف ويحولها إلى فضة[٤] .

كان الضرب عادة من اختصاص الحكومة المركزية فكانت النقود تضرب في الحجاز ثم تحمل إلى بقية الولايات وظلت على هذا الوضع حتى اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وترامت أطرافها فسمح للولاة بضرب النقود في مراكز ولاياتهم ولما انتهت سنة ٢٤ هـ صار لكل ولاية تقريباً داراً للضرب في عاصمتها .

وفي العهد الأموي الأول لم يحدث تغير هام في النقود ، ففي سنة ٦١ هـ

---

(١) الدارهم السميرية : نسبة إلى رجل يهودي اسمه (سمير) ضرب هذه الدراهم .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥٠ ؛ الكرملي : النقود العربية ص ٩ .

(٣) المقريزي : شذور العقود ص ٢ ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الإسلامي جـ ١ ص ١٢٠ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٥١ .

ضرب معاوية دنانير عليها صورته متقلداً سيفاً[١] وضرب دراهم الواحد منها يساوى ستة دوانيق[٢] سميت بالناقصة لأنها تنقص (حبة أو حبتين) .

كما ضرب زياد بن أبية عامل معاوية على العراق (الكوفة والبصرة) دراهم وزن العشرة منها تساوى ستة مثاقيل[٣] وقيل تساوى سبعة مثاقيل[٤] .

وعندما جاء مصعب والياً لأخيه على العراق سنة ٧٠ هـ ضرب نقوداً مشابه لنقود الأكاسرة وعليها بركة فى جانب و (الله) فى الجانب الآخر[٥] وجعل كل عشرة دراهم سبعة مثاقيل ، وظلت هذه الدراهم تستعمل حتى جمعها الحجاج بن يوسف وكسرها ثم أذابها ، كما أن مصعب بن الزبير ضرب دنانيراً بجانب الدراهم التى ضربها . وظلت هذه النقود تتداول بين الناس إلى أن تولى عبد الملك بن مروان فعرب النقد فى سنة (٧٤ — ٧٥ هـ) فضرب نقوداً جديدة وجعلها إسلامية بحتة وكتب عليها كتابات إسلامية مثل (لا إله إلا الله وحده لا شريك له) و (محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) وسورة الإخلاص (الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد) وكتب عليها تاريخ الضرب (بسم الله ضرب هذا الدينر سنة خمس وسبعين) ، ولكنه حافظ على الوزن السابق للدينار الذى كان وزنه (مثقال واحد) فأبقاه كما هو ، وقسمه إلى عشرين وحدة متساوية بعد أن كان اثنين وعشرين قيراطاً إلا حبة وهو وزن الدينار السابق وبنفس الوقت استمرت

---

(١) الكرملى : النقود العربية ص ٣٣ ؛ النقشبندى : الدينار الإسلامى ص ١٧ .
(٢) المقريزى : شذور العقود ص ٤ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢١١ .
(٣) المقريزى: شذور العقود ص ٤ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢١١ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٢ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٩ .

نسبة العشرة دراهم إلى سبعة مثاقيل دون تغير[١] .

وعمل عبد الملك موازين معينة من الزجاج لوزن النقود الذهبية والفضية لمنع الغش والتلاعب وسميت هذه الموازين (صنجات الوزن)[٢] .

وقد أرسل عبد الملك بن مروان بنموذج من السكة ، وهى حديدة منقوشة عليها النقود[٣] إلى الحجاج بن يوسف عامله على العراق (الكوفة - والبصرة) وأمره بنشر هذه العملة ومنع تداول العملة السابقة ولو بالقوة وأمر الناس بجلب الدراهم القديمة إلى دار الضرب لطبعها من جديد[٤] . وتحويلها إلى السكك الإسلامية[٥] .

كما طلب عبد الملك من الحجاج أن يضرب الدراهم على خمسة عشر قيراطاً[٦] وقد ضرب هذا النوع من النقود فى العراق سنة ٧٦ هـ ، وطبعت على هذه النقود الجديدة أسماء الولاة والبسملة باللغة العربية . وكانت هذه النقود غير مرغوب فيها عند الناس . وقد أثارت نقد القراء .

وأشار البلاذرى إلى أسباب هذه الكراهية فقال « إن الحجاج ضرب دراهم بغلية كتب عليها (بسم الله) ، (الحجاج) ، ثم كتب عليها بعد سنة ، (الله أحد الله الصمد) فكره الفقهاء مسها على غير طهارة فسميت مكروهة[٧] .

---

(١) المقريزى : شذور العقود ص ٤ — ٦ .

(٢) الدميرى : حياة الحيوان ص ٧٨ ، ٧١ ، النقشبندى : الدينار الإسلامى جـ ١ ص ١٥ ؛ زكى حسن : فنون الإسلام ص ٥٨٥ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٧٩ .

(٤) المقريزى : شذور العقود ص ٥ ؛ النقشبندى : الدينار الإسلامى ص ١٥ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٩ .

(٧) الكرملى : النقود العربية ص ٤٣ .

وقد سار خلفاء بنى أمية فى أثر الخليفة عبد الملك بن مروان فى ضرب النقود إلا أنهم تشددوا فى صحة العيار وتخليص الفضة من الشوائب والزيوف . فلما ولى عمر بن هبيرة الكوفة ليزيد بن عبد الملك (يزيد الثانى سنة ١٠١ - ١٠٥ هـ) ضرب دراهم كانت أجود بكثير مما ضربها الحجاج فخلص الفضة من الشوائب واشتد فى تبديل العملة كما شدد على من يضربونها وكانت دراهمه هذه تدعى « الهبيريه »[١] وكان الدرهم الهبيرى يزن (ستة دوانيق)[٢] .

وعندما ولى خالد بن عبد الله القسرى الكوفة لهشام بن عبد الملك سنة (١٠٦ - ١٢٠ هـ) اشتد فى تخليص الفضة من الشوائب واشتد فى أمر النقود أكثر من شدة ابن هبيرة حتى استطاع أخيراً أن يحكم أمرها[٣] ، وكان الدرهم الخالدى يزن (سبعة دوانيق) كما أن حجمه أكبر من حجم الدراهم الهبيرية . وسميت الدراهم الخالدية[٤] .

ولما تولى يوسف بن عمر الثقفى سنة (١٣٠ - ١٣٦ هـ) بعد خالد أفرط فى الشدة إفراطاً كبيراً وذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أسلافه فى تخليص العملة والدقة فى العيار[٥] وصغر حجمها وجعلها على وزن ستة وضرب هذه السكة فى مدينة واسط[٦] .

وقد غالى يوسف غلواً شديداً فى مراقبة الطباعين وأصحاب العيار فحبس

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٩ ؛ الكرملى : النقود العربية ص ٤٣ .

(٢) المقريزى : شذور العقود ص ٤٤ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٩ .

(٤) الكرملى : النقود العربية ص ٤٥ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٦٩ .

(٦) البراقى : تاريخ الكوفة ص ٢٥٤ ؛ الكرملى : النقود العربية ص ٤٥ .

وقطع الأيدى وانتزع الجلود(۱) وغيرها من الإجراءات القاسية فى سبيل السيطرة على شئون العملة .

هذا وكانت الدراهم الهبيرية والخالدية واليوسفية أجود أنواع الدراهم لبنى أمية . حتى أن الخليفة المنصور لم يكن يقبل فى جباية الخراج غير هذه الدراهم(۲) .

لقد كانت الدولة تمتلك دور ضرب النقود وأن دار الضرب هذه كانت فى البداية صغيرة محدودة الإنتشار يقتصر عملها على إعادة سك النقود الممسوحة ولكن الحجاج وسع دار الضرب فى الكوفة ليتمكن من إعادة سك النقود القديمة على العيار الجديد الذى قرره لها وقد جلب الحجاج لدار الضرب هذه الطباعين من الأقاليم الأخرى(۳) ، وفرض عليهم رقابة شديدة ليضمن صحة العيار وصفاء المعدن المستخدم فى المسكوكات حتى إنه ختم على أيديهم(٤) .

وفى دار الضرب هذه كانت تضرب الدراهم للخليفة مما يجتمع له من ذهب وفضة ويضرب أيضاً خلاصة النقود المزيفة(٥) والمستوقه(٦) والبهرجة(۷)، كما أنه أذن للتجار من الناس أن يضرب لهم الأوراق (الدنانير والدراهم(۸)) لقاء

---

(۱) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ .

(۲) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ۲٦٩ . المقريزى : شذور العقود ص۷ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ۲۱٤ .

(۳) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ .

(٥) المزيفة (الزيوف) الدراهم التى خلط بها نحاس وطلى بها. الكرملى : النقود العربية ص ٥٠ ؛ النقشبندى : الدينار الإسلامى ج ۱ ص ١٤ .

(٦) الستوق : الدراهم التى غلب عليها الغش . الكرملى : النقود العربية ص ٥٠ .

(۷) البهرجة : الدراهم المزيفة التى يردها التجار . الكرملى : النقود العربية ص ٥٠ .

(۸) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ النقشبندى : الدينار الإسلامى ج ۱ ص ١٦ .

أجور زهيدة جداً تسمى ثمن الحطب أو بنسبة أجرة الضرب[١] . فكان يؤخذ درهم واحد عن كل مئة درهم أى معنى هذا ١٪ وربما اختلفت هذه الضريبة باختلاف المدن(٢) .

لقد راقب ولاة الكوفة ولا سيما فى العهد الأموى تداول العملة بين الناس، وقد عهدوا إلى المحتسب بالتفتيش ومراقبة الدراهم والدنانير لمنع الغش والتلاعب والتزوير . وقد أشار الكرملى إلى رجل كان يجلس فى السوق يسمى (الناقد) وكان واجبه تمييز الدراهم وفحصها حتى يعرف جيدها من رديئها ويضمن تمام وزنها[٣] .

وقد فرضت الحكومات عقوبات شديدة لمنع ضرب النقود خارج دور الضرب الحكومية وعدته عملا إجرامياً يستحق مرتكبوه أقصى العقوبات. وأشار البلاذرى إلى « أن مروان بن الحكم أخذ رجلا يقطع الدراهم فقطع يده »(٤) وعبد الملك بن مروان أخذ رجلا يضرب على غير سكة المسلمين فأراد قطع يده ثم ترك ذلك وعاقبه وقيل إن عمر بن عبد العزيز أتى برجل يضرب على غير سكة السلطان فعاقبه وسجنه ، وأخذ حديده وطرحه فى النار(٥) .

أما طريقة ضرب النقود فكانت تتم بتنقية الذهب والفضة بالمسبك

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤ ؛ المقريزى شذور العقود ص ٥ ؛ النقشبندى : الدينار الاسلامى ج ١ ص ١٦ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٢٣٣ .

(٢) جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٤٥ ؛ الكرملى : النقود العربية ص ٣٦ ؛ النقشبندى : الدينار الاسلامى ج ١ ص ١٦ .

(٣) الكرملى : النقود العربية ص ١٢ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٦ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٧٠ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٥ .

عدة مرات ثم يقسمون الذهب والفضة إلى أجزاء ذات وزن معين حسب الوزن الشرعى أو وزن الامام ويكون فى الذهب ٧٢ حبة من الشعير وفى الفضة ٥٠ حبة وخمسا حبة[١] .وتطرق لتكون دائرية ، ثم يضعون الطابع (السكة) فوق تلك القطعة ويضربون عليها بمطرقة حتى تتأثر بالنقش وتظهر عليها الكتابة وتسمى هذه الحديدة بالسكة[٢] . وقد وصف ابن خلدون[٣] السكة وقال « وهى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة » . ولفظ السكة كان اسماً للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ثم صارت تعنى النقوش الماثلة على الدينار والدرهم، ثم صارت تعنى النظر فى استيفاء حاجاتها وشروطها وهى الوظيفة[٤] .

وقد أشار الجاحظ إلى أنه كانت تضرب النقود عادة فى الكوفة فى عيد النيروز وهو أول أيام السنة الفارسية[٥] .

* * *

---

(١) ابن خلدون : المقدمة جـ ٢ ص ٨١١ ، ٨١٢ .
(٢) جرجى زيدان : التمدن الاسلامى جـ ١ ص ١٢٦ .
(٣) المقدمة جـ ٢ ص ٨٠٨ — ٨٢٩ .
(٤) ابن خلدون : المقدمة جـ ٢ ص ٨٢٩ .
(٥) الجاحظ : التاج ص ١٤٦ .

الفصل الثالث

الصناعات فى الكوفة

تمهيد :

الصناعات الرئيسية فى الكوفة

(ا) صناعة النسيج

(ب) صناعة الحدادة

(ج) صناعة النجارة

(د) صناعة الخزف والفخار

(هـ) صناعة الدهون

(و) صناعة الصباغة

(ز) صناعة الصابون

(ح) صناعة النبيذ

(ط) العمال والحرفيون

تمهيد :

لم تكن الصناعة فى العصور الإسلامية الأولى صناعة بالمعنى المفهوم اليوم وإنما كانت صناعة بسيطة ساذجة لسد حاجة السكان الاستهلاكية المحلية والاكتفاء الذاتى .

ولكن هذه الصناعة البسيطة تطورت بمرور الزمن بالنسبة لحاجة المجتمع المتطور حتى وصلت إلى أوجها فى العراق فى القرن الرابع الهجرى . ومع ذلك فإن المصادر التاريخية لا تعطينا معلومات كافية عن تطور هذه الصناعة ونموها والمراحل التى مرت بها فى مدينة الكوفة اللهم إلا بعض الشذرات الصغيرة المبعثرة فى بطون الكتب .

والعرب عندما جاءوا من الجزيرة العربية إلى الكوفة نقلوا معهم بعض الخبرات السابقة البسيطة عن بعض المراكز الحضارية فى أطراف بلاد العرب ولا سيما فى اليمن إلى هذا المصر الجديد ، وقد التقت الخبرة العربية الإسلامية مع خبرة صناع الحيرة « الذين ورثوا الحضارة الساسانية» والذين وفدوا إليها بعد نشأتها ، ولا سيما النصارى حيث برعوا فى الصناعة براعة فائقة(١) .

وقد استفاد هؤلاء الصناع من تسامح العرب واعترافهم بمهارتهم الفنية واعتمدوا عليهم أول الأمر .

ولذلك فإن الحرف والصناعات الفنية ظلت بعد الفتوحات الإسلامية فترة طويلة من الزمن فى أيدى أهل البلاد المفتوحة . ولقد تتلمذ الصناع العرب على أرباب الصناعات الفنية فى تلك البلاد مسلمين وغير مسلمين مستهدفين الاختلاط بين سكان تلك البلاد المختلفة وانتقال الفنين الصناع إلى ديار

---

(١) الجاحظ : ثلاث رسائل ص ١٨ .

الإسلام[١] وكانت هذه الأساليب الفنية المحلية تتطور فى كل إقليم تطوراً لاتفقد فيه كل صلتها بماضيها ولـكنها تخضع للتنظيم المحلى الذى يتطلبها العهد الجديد[٢] .

وعلى هذا فقد ورث المسلمون فى الفنون الصناعية خير ماحذقته الأمم التى خضعت لسلطانهم أو الشعوب التى اعتنقت الإسلام ، وصار إلى الفنانين المسلمين ما عرفه الساسانيون من أسرار صناعة النسيج الفاخر والتحف الفضية والذهبية وما اشتهر عند القبائل الرحل من أساليب نسج السجاد وما أتقنته الشعوب التركية فى آسيا الوسطى من صناعة التحف وما نبغ فيه أهل الشام من صناعة الزجاج والخزف وغيرها .

---

(١) زكى حسن : أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الاسلامية ص ٣١ .
(٢) زكى حسن : نفس المصدر ، ص ٢٠١ .

١ـ صناعة النسيج

لما انتشر الإسلام وانقضى دور الزهد والتقشف الذى ساد العالم الإسلامى فى بداية تاريخه بسبب كراهية الترف والملابس الحريرية لقيت صناعة النسيج تشجيعاً كبيراً فى الأقطار الإسلامية المختلفة ولا سيما بعد أن انتشرت عادة الخلفاء والأمراء فى مكافأة رجال الدولة بالملابس الثمينة والخلع الفاخرة[١] .

هذا وأن صناعة النسيج من أهم الصناعات التى ظهرت فى الكوفة فى القرن الأول الهجرى ، كما أنها تعتبر من أقدم الصناعات اليدوية وكانت حوانيت النسيج هى الصفة الغالبة على المدينة فى تلك العصور[٢] . وأن الحياة هنا جعلت العناية بالملابس أمراً ضرورياً ، فقد رأينا فى فصل سابق كيف أن الملابس تنوعت بشكل غريب ، وأصبح لكل جماعة أو طبقة نوع خاص بها كما أنه كان لكل مناسبة زى خاص بها فضلا عن إقبال الأغنياء والأمراء على اقتناء الملابس بكميات كبيرة جداً لهذا شجعت الحكومة على استيرادها من الخارج من جهة وصنعها فى الداخل من جهة أخرى .

ومن البديهى حقاً أن تكون صناعة النسيج أول أمرها صناعة بسيطة بدائية ذات أغراض محدودة ، ولكنها تطورت بمرور الزمن حتى أصبح لأهل الكوفة شهرة واسعة ومهـــارة خاصة بصناعة (الوشى)[٣] وهو نسيج حريرى مطرز ، وقد اشتهرت الكوفة أيضاً بصنع (الخز)[٤] ،

---

(١) زكى حسن : فنون الاسلام ص ٢٤٥ .

(٢) Pope, Survey of Persian Art. Vol. III. p. 1996.

(٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص ١٩ .

(٤) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ ؛ الخز : نسيج رقيق يعمل من الصوف والحرير .

وليس أدل على ذلك من قول ابن الفقيه « إن للكوفيين مهارة خاصة فى صنع الوشى وفى صنع الخز»[١] وقد لاقت هذه المنسوجات رواجا كبيراً فى الأقطار الاسلامية كافة . كما كانت للكوفة شهرة واسعة فى صنع العمائم الكوفية المنسوجة من الخز المشهورة بجمالها وجودتها[٢]، وكذلك صنعت المناديل الحريرية المستعملة لتغطية الرأس والتى لا تزال تسمى حتى اليوم بالكوفية[٣] .

ومن المنسوجات الكوفية أيضاً الثياب أو الحلل النجرانية وقد نقل (عرب اليمن) صناعتها إلى الكوفة عندما هاجروا إليها وسكنوها . كما استعمل عرب الكوفة من المنسوجات (الملحم، والعتابية والسقلاطون)[٤].

وقد كان للحيرة (وارثة الحضارة الساسانية)[٥] فضل كبير فى تطوير صناعة النسيج فى الكوفة وعلى هذا الأســـاس كانت مركزاً هاماً قبل بناء الكوفة لصناعة المنسوجات بأنواعها فكان ينسج فيها أقمشة قطنية وصوفية وأقمشة من الوبر[٦] وأقمشة موشاة بالقصب أو مطرز بالذهب ، وقد أشار يوسف غنيمة فى حديث عن المناذرة إلى خروجهم فى كل عيد (... وعليهم

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ ؛ Dozy, p. 437.

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ .

(٣) Dozy, p. 394.

(٤) الملحم : وهى ثياب سدادها من الحرير ولحمتها من القطن Dozy, p. 113.

(٥) العتابية : وهى ثياب مخططة تصنع من خيط القطن والحرير Dozy, p. 436.

(٦) Pope, Survey of Persian Art. Vol. III. p. 1996.

(٧) لقد وصلت صناعة النسيج أوجها فى العصر الساسانى ، وقد وصلت إلينا بعض القطع الجميلة من المنسوجات الحريرية الساسانية وهى مكونة من مجموعات من دوائر أو أشكال هندسية فيها رسوم حيوانات أو طيور أو فرسان فى الصيد متقاربة أو متجاورة وفى ترتيب هندسى بديع ويفصلها فى بعض الأحيان رسم شجرة محورة عن الطبيعة ترمز إلى شجرة الحياة أو شجرة الخلد . زكى حسن : فنون الاسلام ص ٢٤٥ .

(٨) Dozy, p. 788.

حلل الديباج المذهب)[١] .

ومن ألبسة الحيرين أيضاً الطيلسان وكانت هذه الألبسة من جملة مافرضه خالدبن الوليدمن جزية على النصارى العباديين وزعيمهم عبدالمسيح بن بقله[٢].

ومن الثياب الحارية (الشرعبية والسيراء) ومن ألبستهم أيضاً (أثواب الرضا) وهى جباب (جبب) أطواقها من الذهب فى قضيب الزمرد ، ويظن أن ملوك الحيرة كانوا يهبونها لمن رضوا عنه وأصدق لهم الخدمة[٣].

هذا وكانت للثياب الحارية (الحيرية) شهرة واسعة فى القرن الرابع الهجرى[٤] لما امتازت به من متانة وجمال ، وكانت مدينة « الأنبار »[٥] مركزاً هاماً لنسج العباءات القطوانية .وصناعة الأقمشة الحارية وقد انتقلت إلى الكوفة بعد أن هاجر سكان الحيرة إليها ، وبعد أن أصبحت الحيرة مدينة ثانوية تابعة للكوفة ، ولم تخل مدينة من المدن فى ذلك العصر من الحاكة ونساجو الأقمشة وقد امتلأت الكوفة ومدنها التابعة لها بهم ، وذكر ابن رسته قائلا « وكانت مدينة — قصر بن هبيرة — مملوءة بالحاكة»[٦] ويقصد بها الكوفة .

ووضع فى مدينة الكوفة أيضاً (الخمر) التى تضعها النساء على وجوهن وكان يحمل منها بكميات كبيرة إلى الحجاز فتتهافت نساءه على شرائها[٧].

---

(١) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٢ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٦ .

(٣) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٣ .

(٤) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٣ .

(٥) الأنبار : وهى مدينة بضواحى الكوفة وسميت بهذا الاسم حيث كان أصحاب النعمان وصنائعه يأخذون أرزاقهم منها : البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٧ .

(٦) ابن رسته : الأعلاق النفيسه ص ١٢١ .

(٧) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٧٣ .

وقد تتلمذ الصناع العرب على أيدى الصناع الفرس وغيرهم من أهل البلاد الأصليين . وساعد تنقل عمال النسيج من مكان إلى آخر على إنتشار أساليب متنوعة وطرق فنية مختلفة إلى مختلف نواحى البلاد الإسلامية(١) .

هذا وقد استلزمت صناعة النسيج وجود صناعة الصباغة ، فقد استعمل العرب الأصباغ النباتية (وهى التى تستخرج من النباتات لصبغ الأقمشة) . هذا وأن جميع الألوان الزرقاء تصبغ عادة « بالنيلة »(٢) أما اللون الأحمر فكان يستخرج عادة من « الفوه »(٣) والأصفر كان يستخرج من الزعفران، وغيرها من الألوان .

وقد تفنن الصباغون فى الصباغة فأوجدوا ألواناً متعددة وذلك بخلط الأصباغ الأولية بنسب معينة لإيجاد مختلف الألوان .

وقد كانت بعض الملابس يكتب عليها بالخط العربى كتابات متنوعة كأبيات الشعر أو بعض الأدعية ، كما يكتب على النسيج نفسه مكان نسجه وتاريخه . ولدينا أمثلة واضحة على ذلك. وقد عملت الحكومة دور النسيج الخاصة للخلفاء والأمراء سمتها دار الطراز(٤) تنتج فيها ما تحتاجه الحكومة من الملابس الفاخرة .

---

(١) Pope : Survey of Persian Art. III, p. 1992.

(٢) النيلة : نبات يزرع فى إيران يستعمل لصبغ الألوان الزرقاء ، ولكنه أخذت تجلب هذه النيلة فى الآونة الأخيرة من البنغال

وطريقة استعماله أن توضع النيلة فى أوانى فخارية كبيرة (avat) وتغلق ثم توضع الأقمشة المراد صبغها ، وهى لازالت موجودة حتى الآن فى العراق .

(٣) الفوه اسم نبات يستعمل لصبغ الأقمشة باللون الأحمر.

(٤) بسم الله بركة من الله مما أمر به عبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أصلحه الله محمد ابن سليمان أن يصنع فى طراز تنيس كسوة الكعبة على يدى الخطاب ابن مسلمه عامله سنة تسع وخمسين ومائة .

كما أن الحيرة عرفت بصناعة (البسط)[١] وكانت للبسط الحيرية شهرة واسعة فى ذلك العصر فكانت تزين برسوم الحيوانات وكان ينسج فيها صور الخيل والجمال والفيلة والطيور[٢] كما رسمت فيها رسوم هندسية كالمستطيلات والمربعات أو غيرها بألوان زاهية مختلفة ، وكان الصوف والوبر من أهم المواد المستعملة فى الحياكة .

وهناك أنواع جيدة من السجاد كان أهل الكوفة يتقنون حياكتها وكانت البسط والسجـــاد تستعمل لأغراض مختلفة فمنها ما يفرش على الأرض وهى إما كبيرة وتسمى (البسط) أو مستطيلة وتسمى (الأنخاع) والبعض منها يعلق للزينة ويسمى (الأنماط) وهناك نوع خاص للصلاة يسمى (السجاد)[٣] .

وترجع شهرة البسط (الحيرية) إلى تأثرها الكبير بصناعة السجاد الإيرانى التى ترجع شهرته إلى عصور قديمة جداً[٤] وكذلك اشتهرت مدينة(النعمانية)بصناعة البسط أيضاً وكانت الرسوم التى ترسم فى بسط الحيرة

= وهناك نص آخر (بسم الله بركة من الله لعبد الله المهدى محمد أمير المؤمنين أطال الله بقاءه مما أمر به إسماعيل بن إبراهيم أن يصنع فى طراز تنيس على يدى الحكم بن عبيد سنة اثنتين وستين ومائة) .

(١) تعود صناعة البسط فى العراق إلى العصر البابلى ولاتزال موجودة حتى الآن وساعدت ظروف الحياة الرعوية بصورة خاصة على ظهور هذه الصناعة ويكون عادة الصوف من أهم المواد المستعملة فى صناعة البسط والسجاد ويظهر أنه كان يستعمل فى سدى جميع البسط إلا القليل منها إذ كان سداها من الحرير ، وكان القطن والكتان يستعمل أحياناً فى صنع البسط — الدورى — تاريخ العراق الاقتصادى ص٩٣ .

(٢) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٣ .

(٣) الألوسى : بلوغ الأدب ، ج ٣ ص ٣٩٣ — ٣٩٤ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٩٣ .

(٤) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٣٩٧ .

امتاز السجاد الإيرانى بأن العناصر الهندسية والنباتية التى غلبته وميزته عن غيره من السجاد منذ العصر الإسلامى حتى القرن التاسع الهجرى ويرجع جمال السجاد الإيرانى وشهرته الى جمال ألوانه وتناسقها وحسن توزيعها إلى متانة الصناعة وجودة الأصواف — كما وجد أن البسط الإيرانية قد كتب عليها كتابات جميلة بخط كوفى بديع . زكى حسن : فنون الإسلام ص ٣٩٨ .

تقلد فى النمانية حتى أن مصنوعاتها من البسط كانت تسمى بالبسط الحيرية[١] واشتهرت منطقة ميسان ودست ميسان بصناعة أجود البسط والستائر[٢] كما أن اشتهدت واسط بصناعة السجاد[٣] .

وصنعت الوسائد أيضاً وعملت من نسيج الصوف واستعملت للنوم والجلوس .

وكانت صناعة الخيام من الصناعات المهمة عند أهل الكوفة وكانت تصنع عادة من الصوف أو الشعر أو الوبر أو القطن وتختلف أسماء الخيام بالنسبة للمادة المصنوعة منها وبالنسبة لحجمها أيضاً فالخيمة المصنوعة من الصوف تسمى بـ (الخباء) والخيمة المصنوعة من الشعر تسمى بـ (الفسطاط) والخيمة المصنوعة من الوبر تسمى بـ (البجاد) والخيمة المصنوعة من القطن تسمى بـ (السرداق) وهناك نوع خاص من الخيم يدعى (الطراف) يصنع من نوع خاص من الجلد يستعمله الأغنياء وذوى الثراء[٤] .

ومن هذه الصناعات أيضاً صناعة الحصر ، وكانت تصنع من سعف النخيل وأوراق البردى والحلفاء والقصب وغيرهـــا ويستعمل لفرش الأرض أو لتعليقها على الجدران .

---

(١) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ١٨٦ ؛ يوسف غنيمة : الحيره ص ٨٣ .
(٢) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٣ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٩٤ .
(٣) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٩٤ .
(٤) الألوسى : بلوغ الأرب جـ ٣ ص ٣٩٣ — ٣٩٤ .

(ب) الحدادة

لقد كان للأسلحة أهمية كبرى فى حياة العرب منذ العصر الجاهلى ونظراً لقلة مناجم الحديد فى الجزيرة العربية كان العرب يستوردونه من البلدان الأخرى لاستعماله فى صنع الأسلحة ولا سيما السيوف الدروع والرماح والأسنة وغيرها ، ولما لم تكن صناعة الأسلحة هذه تسد حاجة العرب بما يحتاجونه من السلاح فصاروا يستوردونها من بقية الأقطار المشهورة بها كدمشق واليمن والهند وغيرها .

ولما كانت الكوفة قاعدة حربية قبل كل شىء ومركزا يجتمع فيه جيوش العرب للخروج إلى الفتح فقد نشطت فيها صناعة الأسلحة وتجارتها .

وقد استخدم اهل الكوفة عدة معادن فى هذه الصناعة مثل الحديد والنحاس والبرنز، وكانت فى الكوفة سوق خاص لهذه الصناعة تسمى (سوق الحدادين) يقع بجانب سوق البراذين[1] وقد ترك الحيريون أثراً عظيما فى نمو هذه الصناعات وتقدمها كما تركوا أثراً مشابهاً فى جميع أوجه النشاط الصناعى بالمدينة ، وكانت للحيرين مهارة خاصة فى صناعة الأبواب الحديدية[2] ومشكات السلاح والسيوف الحيرية الشهيرة والسهام ونصال الرماح .

ووردت فى البلاذرى إشارة إلى أن المسلمين العرب زالوا مهنة الصناعة إذ قال « إن الهالك أول من عمل الحديد من العرب فى الكوفة وكان ولده يعيرونه بذلك»[3] . كما صنع العرب أوانى الطبخ والقدور من النحاس .

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة (ديرسكون) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٣ ، ابن حزم الأندلسى : جمهرة أنساب العرب ص ١٨٠ .

(ج) النجارة

كان لصناعة النجارة مكانة خاصة فى الكوفة ، وكان النجارون يصنعون الأثاث المنزلى كالمناضد والكراسى[١] والأبواب وغيرها . وقد صنعت كؤوساً خشبية فى دير الجماجم[٢] وكان استعمال هذه الكؤوس شائعاً فى ذلك العصر كما كانت تصنع أدوات القتال كالرماح والسهام والأقواس وغيرها . هذا وكان لأهل الحيرة تأثيراً كبيراً فى تطوير النجارة وتحسينها حيث كانت لهم اليد الطولى فى فن النجارة والتنجيد[٣] .

ونشطت كذلك صناعة السفن والقوارب، وكانت صناعتها على أشكال مختلفة منها قوارب صغيرة تسير فى دجلة والفرات سفن كبيرة للحرب والتجارة أو السفر ، وقد أجرى الحجاج عليها إصلاحات فكان أول من أجرى فى البحر السفن المقيرة المسمرة غير المخروزة والمدهونة وذوات الجاجى[٤] .

وكان فى الأبله كثيراً من دور صناعة السفن[٥] .

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٢٥٠ .

(٢) دير الجماجم : ضاحية من ضواحى الكوفة .

(٣) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٥ .

(٤) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٣١٤ ، ٣١٥ ؛ الجاجى : مقدمات السفن العالية .

(٥) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٥٨١ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ١٠٣

(د) الخزف أو (الفخار)

لقد كان إنتاج الخزف فى العالم الإسلامى كثيراً جداً ، وقد وصل إلينا من الخزف الإسلامى أكثر مما وصل من أى نوع آخر من أنواع التحف الإسلامية . وقد امتاز صناع الخزف فى العراق بتنوع إنتاجهم فى أشكالها وفى طرق الزخرفة وأساليب الصناعة[1] . وقد أكد المؤرخون أن هذه الصناعة وجدت فى العراق وإيران فى فجر الإسلام[2] .

وكان لمدينة الحيرة فى العراق (وارثة الحضارة الساسانية) الأثر الأكبر فى نقل هذه الصناعة إلى الكوفة بعد أن انتقل إليها معظم سكانها كما قلنا سابقاً . وعلى هذا الأساس شاركت الكوفة مدينة الحيرة شهرتها بصناعة الفخار[3] .

وصنع فى مدينة الكوفة الأوانى الفخارية والجرار ذات الألوان الزاهية[4] .

وقد تفنن الكوفيون خاصة والعراقيون عامة فى هذه الصناعة حيث استطاعوا أن يطوروا أساليبها وأن يتقنونها فنجحوا فى هذا نجاحاً كبيراً كما أنهم نجحوا فى إبداع أنواع فاخرة من الطلاء منها أبيض زبدى ، ولون أزرق وأخضر فيروزى ولون أحمر بنفسجى[5] . وكان لتلوين الفخار ورسم النقوش عليه أثر فى رواجه ، وكانت هذه النقوش عادة على شكل رسوم

---

(١) زكى حسن فنون الإسلام ص ٢٥٨ .

(٢) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٥٩ .

(٣) لقد كانت صناعة الفخار فى العراق قديمة جداً وكانت الأدوات المعمولة منه هى الأدوات الشائعة قبل إدخال المعدن والزجاج فى الحياة الاعتيادية ، وصنعت من الفخار الجرار الكبيرة والصغيرة للماء وللنبيذ وكذلك الأوانى ، والكؤوس ، والسروج ، والحباب ، وهى من الفخار غير المزجج . الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص٩٧ .

ومن أشهر هذه الجرار (الجرار المذارية) نسبة إلى مذار وهى قصبة ميسان بين مدينة واسط والبصرة . معجم البلدان ج ٧ ص ٤٣٣ .

(٤) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨١ .

(٥) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٥٩ .

هندسية كالدوائر والعقود المتشابكة والطيور المتقابلة والمتدابرة والحيوانات التى تحيط بها فروع النباتات والوريقات فضلا عن الرسوم الآدمية[١] ، وكتابات كوفية وتخطيطات مشجرة وصور فى بعض الأحيان[٢] .

هذا وقد عثرت بعثة رتلنكر على طائفة كبيرة من الأوانى الفخارية فى أطلال الحيرة مختلفة الأشكال[٣] مطلية بطلاء ذات ألوان زاهية .

لقد قطعت هذه الصناعة شوطاً بعيداً فى مضمار التقدم والرقى حتى إن المعتصم لما بنى مدينة سامراء جلب إليها صناع الخزف من الكوفة والبصرة[٤] .

هذا وأغلب الظن أن صناعة الخزف فى الكوفة اقتبسها العرب من الفرس وانتقلت إليهم على أيدى الصناع الإيرانيين وغيرهم من سكان الحيرة الذين انتقلوا إلى الكوفة بعد بنائها .

وقد أكد هذا زكى حسن إذ قال « إن الخزف الإسلامي بوجه عام كانت صناعته فى بداية الأمر ذيلا لصناعة الخزف الساسانى . وطبيعى أنه أخذ فى فجر الإسلام يبتعد شيئاً فشيئاً عن الأساليب القديمة (الساسانية) حتى أصبح له طابع إسلامى ظاهر »[٥].

ومما يميز الأوانى الخزفية الإسلامية الجديدة هو البريق المعدنى وذلك أن الخزافين المسلمين استطاعوا أن يطوروا صياغة الخزف وتلوينه وأن يكسبوه بريقاً معدنياً ، وأكد زكى حسن أن نشأة الخزف ذى البريق المعدنى كان فى العراق أول أمره[٦] .

---

(١) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٦١ .

(٢) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٩٩ .

(٣) مجلة الجمعية الأسيوية الملكية ص١٦٦ ، ١٩٣٠ ؛ يوسف غنيمة : الحيرة ص٨٥

(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٢٦٤ .

(٥) زكى حسن : فنون الإسلام ص٢٦١ .

(٦) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٦٠ ؛ الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٩٨ .

هذا وقد عثر المنقبون على تحف من الخزف ذى البريق المعدنى فى إيران والعراق ومصر وغيرها[١].

لقد كانت الأساليب الفنية فى صناعة الخزف تنتشر بسرعة عظيمة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى ، وقد عثر منقبوا الآثار فى مصر وإيران والعراق والشام على كثير من الأنواع المشتركة بين تلك الأقاليم[٢] .

كما اشتهرت مدينة الرقة بالخزف والفخار ، وقد امتاز هذا الخزف بالذوق الفنى الرفيع . وقد تأثر الخزف الرقى بالفن الإسلامى بالإضافة إلى الفن الهلينستى . لقد كان الفن الإسلامى قد أخذ صورته الروحية من بلاد العرب أما قوامه المادى فقد تم صوغه فى أماكن أخرى كانت له فيها قوة وحياة ، وعلى هذا فإن الخزف هذا امتاز بروحه الإسلامية وقوامه المادى بالفن الساسانى والفن الهلينستى ، وأصبحت مدينة الرقة أشبه ببودقة اشتملت على عدة فنون متضاربة صهرتها وأخرجت لنا فناً مميزاً بطابعها الخاص[٣].

وقد وجدت الحفريات التى أجريت هناك نماذج جميلة ذات ألوان زاهية براقة فكان منها ماهو مطلى ومنها ما هو غير مطلى[٤] . وقد وجدت فيه نقوش جميلة سوداء ومنها متعددة الألوان حتى أنه وجد فيها خزف ذو بريق معدنى بالألوان المختلفة[٥] .

لم تقتصر صناعة الكوفة على الخزف وحدها وإنما كان إلى جانبها صناعة القاشانى المزجج الذى استعمل فى أغراض شتى كالبناء وغيرها . وقد كشفت لنا حفريات الكوفة بعض هذا القاشانى وقد كتب عليه بالحروف الآرامية والسريانية وظهرت فيه كتابات عربية لخط الكوفى وكانت معظم هذه

---

(١) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٥٩ .

(٢) زكى حسن : فنون الإسلام ص٢٥٨ .

(٣) سعاد ماهر : (فصله من مجلة كلية الآداب) (خزف الرقه) ج٢ م ١٦ ص١١١

(٤) سعاد ماهر : نفس المصدر السابق ص ١١٢ .

(٥) سعاد ماهر : نفس المصدر ص ١١٤ ، ١١٥ .

الـكتابات تنطوى على معانى الاستغفار والتوبة[١].

وتوجد بين أيدينا نصوص كثيرة واضحة لهذا الغرض كتبت على الطابوق المزجج وزينت فيها المبانى والعمارات وبعض المبانى الهامة، «بسمله وقيم السموات والأرض وسعت رحمتك كل شيء ، سبحنه وتعالى عما يشرك المشركون نسألك اللهم برحمتك وأسمائك الحسنى وبوجهك الكريم وسلطنك العظيم وكلمتك التامة التي بها تقوم السموات والأرض وبها نعصم برحمتك من الشيطين وننجى بها من عذابك يوم القيامة وبنعمتك السبغة وفضلك العظيم وبحلمك وقدرتك وعفوك وبجودك أن تصلى على محمد عبدك ونبيك وتتقبل شفعته فى أمته صلى الله عليه وسلم عليه ورحمت الله»[٢].

كما كتبت عليه لوحات فيها الكثير من الوعظ والإرشاد[٣] .

واستعمل القاشانى فى شواهد القبور كتب فيه اسم الميت وتاريخ وفاته وبعض الأدعية وغيرها . «بسملة هذا القبر لعبد الرحمن بن خيرى الحجرى، اللهم اغفرله وأدخله فى رحمة منك وإبنا معه ، استغر له إذا قرأ هذا الكتب وقل آمين وكتب الكتب فى جمدى الآخر من سنة إحدى وثلثين »[٤] .

ويكون شاهد القبر أحياناً خالياً من عبارات الدعاء والاستغفار مقتصراً على اسم المتوفى . « بسملة هذا قبر عروة بن ثابت توفى فى شهر رمضان سنة تسع وعشرين للهجرة » .

---

(١) مجلة سومر : محمد على مصطفى : (حفريات الكوفة) ج ١ ص ٤ .

(٢) Repertoire : vol. 1. p. 10.

بسم الله لا إله إلا الله وحده لاشريك له محمد عبد الله ورسوله أمر عبد الله أمير المؤمنين بتقوى الله وطاعته والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وبصلة الرحم وتعظيم ماصفر الجبابرة من حق الله وتصغير ماعظموه من الباطل وإحياء ماأماتوا من الحقوق وإماتة ماأحيوا من العدوان وأن يطاع الله ويعصى العباد فى طاعة الله ، والطاعة لله ولأهل طاعة الله ولا طاعة لأحد فى معصية الله يدعو إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى العدل فى أحكام المسلمين والقسم بالسوية فى فيئهم ووضم الأخاس فى مواضعها التى أقر الله بها لذوى القربى واليتامى والمساكن .

Repertoire, Chronologique depigraphique arabe, vol. I, p. 30.

(٣) نفس المصدر السابق ص ٦ .

(٤) نفس المصدر السابق.

كما استعمل القاشانى أيضاً فى كتابة اللوحات التذكارية فيكتب فيها تاريخ إنشاء بعض المرافق العامة واسم الخليفة واسم المهندس المعمارى الذى أشرف على العمل كإنشاء القباب[١] والقناطر[٢] وتعمير الطرقات[٣] أو بناء المساجد[٤] وتوسيعها ، وبناء المدن وغيرها[٥].

---

(١) « بسملة إلا الله وحده لاشريك له محمد رسول الله صلى الله عليه ، بنى هذه (القبة) عبد الله عبد الله الامام المأمون أمير المؤمنين فى سنة اثنتين وسبعين تقبل الله منه ورضى عنه أمين رب العالمين والحمد لله » . Repertoire, vol. 1. p. 9.

(٢) «هذه القنطرة أمر بها عبد العزيز بن مروان الأمير اللهم بارك له فى أمره كله وثبت سلطاته على ما ترضى وأقر عينه فى نفسه وحشمه أمين وقام بينائها سعد أبو عثمان وكتب عبد الرحمن فى صفر سنة تسع وستين » . Repertoire, vol. 1. p. 7.

(٣) « أمر بعمارة هذا الطريق وصنعه الأميال عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين رحمت الله عليه من أيليا إلى هذا الميل ثمنية أميال » . Repertoire, vol. 1. p. 14.

وهناك نص آخر «أمر بعمارة هذا الطريق وصنعة الأميال عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين رحمة الله عليه من دمشق الى هذا الميل سبعه أميال ومائة ميل » .
Repertoire, vol. 1. p. 15.

(٤) بسملة لا إله الا الله وحده لا شريك له ، ولا نعبد إلا إياه ربنا الله وحده ودينا الاسلام ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم أمر ببناء هذا « المسجد» وهدم الكنيسة التى كانت فيه عبد الله أمير المؤمنين الوليد ذى القعدة سنة ست وثمانين .
Repertoire, vol. 1. p. 17.

وهناك نصوص أخرى كتب فيها عن توسيع بعض المساجد كالمسجد الحرام « بسمله محمد رسول الله أمر عبد الله أمير المؤمنين أكرمه الله بتوسعة المسجد الحرام وعمارته والزيادة فيه نظراً منه للمسلمين واهتماماً لأمورهم وكان الذى زاد فيه الضعف مما كان عليه قبل وأمر ببنيانه وتوسعته فى المحرم سنة سبع وثلاثين ومائة وفرغ منه ورفعت الأيدى عنه فى ذى الحجة سنة أربعين ومائة بتيسير أمر الله بأمر أمير المؤمنين ومعونة منه له عليه وكفاية منه له وكرامة أكرمه الله بها فأعظم الله أجر أمير المؤمنين فيها نوى من توسعة المسجد الحرام وأحسن ثوابه عليه فجمع الله . . . له به خير الدنيا والآخرة وأعز نصره وأيده .
Repertoire, vol. 1. p. 31.

(٥) (بسمله لا اله الا الله وحده لا شريك له محمد رسول الله أمر بصنعة هذه المدينة عبد الله بن هشام أمير المؤمنين وكان هذا مما عمل أهل حمص على يدى سليمن بن عبيد سنة عشر ومائة) . Repertoire, vol. 1. p. 24.

(هـ) صناعة الدهون

كانت صناعة استخراج الدهون[١] من البذور فى الكوفة من الصناعات القديمة التى كان يزاولها سكان هذا المصر، وكان من أهم الزيوت التى تستخرج زيت الزيتون وزيت السمسم ودهن اللوز[٢] ودهن الخروع ودهن بذور القطن والكتان وصار لها سوقاً خاصاً فى الكوفة سمى سوق الزياتين[٣] .

وكان لعمال هذه الصناعة مهارة خاصة ميزتهم عن باقى صناع المدن الأخرى حتى أن المعتصم لما بنى سامراء جلب عمال الزيت من الكوفة[٤].

وكانت الكوفة والبصرة من أشهر المناطق فى صناعة العطور فصنعت ماء الورد ودهن البنفسج[٥].

ولقد طبقت شهرة الكوفة الآفاق فى استخراج هذا النوع من الطيب الذى استخرج من الأزهار التى زرعوها لهذا الغرض .

ومن صناعة أهل الكوفة أيضاً الدباغة وصنع الأحذية وتسمى الأخفاف وتصنع الأخفاف هذه من الجلد المدبوغ فيدعونه « السبت » وينتعل بها السادة[٦] من الطبقة الأرستقراطية .

نشطت هذه الصناعة فى الحيرة ثم انتقلت منها إلى الكوفة وقد استعمل صناع الجلود قشور الرمان للدباغة[٧] .

---

(١) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ .
(٢) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء ص١٦٩ ، ١٤٩ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٥٦ .
(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٢٦٤ .
(٥) ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٢ ؛ الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٥٣ .
(٦) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٨ .
(٧) الجاحظ : البخلاء ص ٢٣٧ .

(و) الصياغة

اشتهرت الحيرة منذ فجر تاريخها بالصياغة قبل بناء الكوفة ، حيث كان صياغ الحيرة يصيغون الذهب والفضة ويرصعونها بالجواهر . وأشار يوسف غنيمة إلى أن النعمان كان يركب فى كل عيد ومعه أهل بيته وعليهم حلل الديباج المذهبة وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب،وفى أوساطهم الزنانير المفضضة بالجواهر وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان فإذا قضوا صلواتهم انصرفوا إلى مستشرقة فى النجف[١] . ولما بنيت الكوفة انتقل إليها عدد كبير من هؤلاء الصاغة وتركوا مدينة الحيرة التى بدأت تتضاءل بالنسبة للكوفة وقد لاقت هذه الصناعة فى مدينة الكوفة رواجاً شديداً وإقبالا كبيراً لزيادة الترف وتطور المجتمع السريع وكانت أدوات الزينة للنساء أهم هذه الصناعة ومحورها التى كانت تصنع من الذهب والفضة ، فكان يصنع للنساء الأكاليل والأساور والخلاخيل والمعاضد والقلائد والعقود والخواتم وغيرها .

وكان كثيرون من الأغنياء المترفين يصنعون بعض أدواتهم من الذهب والفضة لإظهار التفاخر ، كالأوانى والكؤوس[٢] وفضلت فى خرفتها مناظر الصيد والحيوان والطيور ، كما صنعوا من الذهب والفضة أدوات الزينة فاقت حد التصور ، وقد أهدى إلى مصعب بن الزبير نخلة مصنوعة من الذهب عليها أنواع الجواهر منظومة بين السعف على مثال «البسر والتمر» وقد قدر ثمنها بألفى ألف دينار[٣] .

وكان لهذه الصناعة سوق خاصة بها فى الكوفة يقع بالقرب من الجامع من جهة القبلة[٤] (الجهة الجنوبية) . يسمى سوق الصاغة .

(١) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٨٣ .

(٢) البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر ص ٣٠ ؛ ديماند : الفنون الإسلامية ص ٣٢ و ٣٤ .

(٣) البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر ص ٦٨ .

(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٦ .

(ز) صناعة الصابون

كان لصناعة الصابون أهمية كبيرة فى حياة سكان الكوفة ولا سيما بعد أن انغمسوا فى الترف والنعيم وعلى هذا الأساس بنيت الحمامات العامة فيها بكثرة وأشهر هذه الحمامات حمام (أعين)(١) وحمام (عمر)(٢) الذى كان ينسب إلى عمر بن سعد بن أبى وقاص .

وكان للصابون الذى يصنع موضع خاص من السوق الذى يباع فيه قال الطبرى عند ذكره لبناء مسجد الكوفة « حين عزموا على بناء المسجد وضعوه فى موضع أصحاب الصابون والتمارين من السوق »(٣) .

وكان سكان الكوفة يستعملون الصابون بكثرة فى المناسبة الدينية ولاسيما الأعياد ولم تشر المصادر إلى الكمية التى يحتاجونها سكان الكوفة من الصابون فى هذه المناسبة .

وقد كان الصابون يصنع على هيئة قطع جامدة . وكانت (الرقة) بعد الكوفة من أعظم مراكز صناعة الصابون فى القرن الرابع الهجرى(٤) . ويسمى بالصابون (الرقى) نسبة إلى الرقة(٥) .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ .
(٣) الطبرى جـ٣ ص ١٤٨ .
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص ١٤١ ، ١٤٥ .
(٥) وهو صابون جاف يصنع على شكل أقراص .

(ج) صناعة النبيذ :

اشتهرت الكوفة بصناعة النبيذ ، وصار لنبيذها شهرة واسعة في العراق مما أدى إلى أن تنتج منه كميات كبيرة ، وكانت كثرة الأعناب وغنى الكوفة وضواحيها بالبساتين سبباً في دفع أهلها للاستفادة من هذه الأعناب التي تفيض عن حاجة الإستهلاك ، فكانوا يقولون «لو لم تعصر الأعناب لبارت على أهلها »[1] . ومن الأسباب الأخرى :

أن بعض الأطباء كانوا يصفونه علاجا للمرضى « حيث كان ابن ابجر طبيب الكوفة المشهور يصفها لهم »[2] .

هذا بالإضافة إلى حيـــاة الترف واللهو التي سيطرت على المجتمع الكوفي .

كان لخمور الكوفة شهرة واسعة خارج العراق ، فقد كان يرسل من هذه الخمور كميات كبيرة إلى جزيرة سرنديب (سيلان) حيث أن ملك الجزيرة كان يشرب الخمور العراقية بكثرة[3] .

(١) ابن قتيبة : الأشربة ص ٦٦ ط دمشق ١٤٧ .
(٢) ابن قتيبة : الأشربة ، ص ٩٢ ط .
(٣) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ٦٧ .

(ط) العمال والحرفيون

يمكننا أن نقسم العمال في الكوفة إلى قسمين أحدهما العمال المأجورون،[١] وهؤلاء العمال يشتغلون لحساب أشخاص آخرين وليس لحسابهم الخاص ، لقاء أجور معينة على عملهم هذا ، وتكون أجورهم عادة أجور يومية أو بالقطعة .

وكان مكان المعمل عادة بيوتهم الخاصة أو بيوت مستخدميهم (أصحاب العمل) أو في حوانيتهم الخاصة التي أعدت لهذا الغرض[٢] . إن هؤلاء العمال كانوا مرتبطين ارتباطاً كلياً برب العمل وتحت سيطرته وهو الذي يتحكم في مصيرهم .

أما القسم الثاني يمكن أن نسميهم (العمال المستقلين) عن رب العمل ورئيسه ، وهؤلاء كانوا يشتغلون لحسابهم الخاص وهم يمتلكون العمل نفسه ، وتكون الأرباح عادة لهم وعليهم الخسارة كل هذا جعلهم يشعرون بالاستقلال التام في عملهم . ويكون مركز عملهم هذا في بيوتهم الخاصة أو في حوانيتهم ، ويستخدم هؤلاء العمال (الصناع) ليساعدوهم في العمل ، وقد يكونوا هؤلاء الصناع من أولادهم ، أو غيرهم من أفراد العائلة أو عمالا يستأجرونهم لهذا الغرض[٣] .وكان هؤلاء العمال يمتلكون أدوات ووسائل الإنتاج كما يمتلكون رأس المال[٤] أيضاً وبعبارة أخرى يمتلك (المواد الخام والآلات) حتى يتمكنوا من القيام بعملهم بسهولة ويسر ، بعيداً عن

---

(١) صالح العلي : التنظيمات في البصرة ص ٢٦٩ .

(٢) Boissonnde, Life and work in medieval Europe. p. 181.
صالح العلي : التنظيمات في البصرة ص ٢٧٠ .

(٣) Boissonnde, Life and work in medieval Europe. p. 181.

(٤) نفس المرجع السابق .

سيطرة رب العمل وتحكمه وسيطرة رأس المال وقد يعمل العمال المستقلون منتجاتهم بالإتفاق مع الزبون الذى يتعامل معهم ويتفق على سعر معين ليعمل له البضاعة المطلوبة ،وأن يعرضها هو بنفسه امام إحدى الدكاكين فى السوق أو أن يبيعها رأساً إلى تاجر الجملة ولا ينتج أكثر من الكمية المطلوبة للبيع وبهذا تكون أرباحه محدودة(١) .

أما الصناع (أو العمال المأجورون) الذين كانوا يشتغلون عند العمال فكان أكثرهم من العبيد(٢) أو الموالى(٣) الذين استوطنوا الكوفة بعد بنائها لسد حاجة المجتمع من الصناعات الإستهلاكية حيث أن الحرف والصناعات اليدوية ظلت بعد الفتح الإسلامى فترة من الزمن بيد أهل البلاد المفتوحة(٤) .

وقد قسم هؤلاء العمال إلى أصناف ودرجات فى العمل حسب مهارة العامل الفنية وقابليته فكان منهم عمال مهرة مثل (الحدادين ، والنجارين والصاغة والحاكة) نسبة إلى الأعمال التى فيها نوعا من الإبداع والخلق وعمال عاديين . ويزاول هؤلاء الأعمال التى لاتحتاج إلى التفكير فى العمل وإنما يكون أعملهم عملا يدوياً .

وهناك إشارات إلى اسماء المهن التى اشتغل الموالى فيها ، كالنجارة(٥) وبيع الخز(٦) والبز(٧) والحدادة(٨) والخياطة والحياكة والحجامة(٩) .

---

(١) Boissonnade : Life and Work in Medieval Europe, p. 181.

(٢) وكيع : أخبار القضاة جـ ٢ ص ٣١٠ .

(٣) وكيع : أخبار القضاة جـ ٢ ص ٣١ .

(٤) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٧ .

(٥) ابن سعد : الطبقات الكبيرة جـ ٦ ص ٢٤٩ .

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبيرة جـ ٦ ص ٢٣٧ .

(٧) ابن سعد : الطبقات الكبيرة جـ ٦ ص ١٤٧ .

(٨) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .

(٩) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٨ .

وكان هؤلاء العمال والصناع خاضعين لرقابة الحكومة (ولا سيما لصاحب السوق)[١] أو المحتسب فهو الذى يحاسبهم على أعمالهم ليكفل سلامة البيع والشراء . كما تأخذ الحكومة منهم الضرائب والرسوم على البضائع والحرف التى يزاولونها[٢] وتكلفهم بالقيام بأعمال أخرى كتنظيف الشوارع وكسحها وبناء بعض المرافق العامة للدولة وغيرها من أعمال السخرة . وكانت الدولة أو الحكومة تعفى الصناع وأصحاب المهن من دفع الضريبة فى بعض الحالات تشجيعاً[٣] لهم ، وقيل إن ابن عامر عندما أنشأ سوق الكوفة جعلها حرة لاضريبة عليه[٤]. وليس معنى هذا أنهم لا يدفعون شيئاً إلى الحكومة فى كل الأحوال ، وإنما كانت تأخذ منهم ضرائب مباشرة وهى العشور (المكس) على ما يستوردونه من الخارج وقد لاتعدو درهماً واحداً[٥] وكانت هذه المكوس عادة تلقى كثيراً من المعارضة من قبل التجار والباعة وكانت مصدرا للإستياء والضجر فلما جاء عمر بن عبد العزيز ألغى هذه الضريبة وكتب إلى عامله يقول « ضع عن الناس الفدية ، وضع عن الناس المائدة وضع عن الناس المكس وليس بالمكس، ولكنه البخس الذى قال الله فيه: «ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين». فمن جاءك بصدقة فاقبلها منه ومن لم يأتك بها فالله حسيبه »[٦] .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٤٢٧ .

(٢) لقد كان هذه الضرائب والرسوم أشد وطأة عليهم من الخراج والجزية لأنها لم تكن محدودة أو مبنية على قاعدة أو نظام حيث كان مقدارها وزمن تأديتها منوطة بعمال الخليفة وجباة المال . بندلى جوزى : من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام ص ٥٧ .

(٣) Boissonnade : Life and Work, p. 104.

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٢ .

(٥) وقد جاء فى قصيدة لجابر بن جنى التغلبى (٦٤٥ م) فقال :

وفى كل أسواق العراق أتاوة   وفى كل ما باع أمرؤ مكس درهم

(٦) ابن سلام : الأموال ص ٥٢٧ ؛ صالح العلى : التنظيمات فى البصرة ص ٢٧٤ .

ومن أهم الميزات التى تمتع بها هؤلاء العمال هى حرية إختيار العمل أو المهنة[1] ، فكان العامل فى الكوفة يزاول أى مهنة يشاء وفقاً لقابلياته الخاصة وحسب رغبته وإختياره ، وقد يتركها لغيرها متى شاء وكذلك يستطيع أن يفتح حانوته فى اى مكان يشاء من المدينة دون ما تدخل الدولة فى ذلك .

لم تكن هذه الحرف أو الصناعات وراثية كما كان الحال فى العصور الوسطى فى أوروبا ، إنما كانت حرية إختيار العمل والنقل من مهنة إلى أخرى أمراً طبيعياً ، كما أن العمال كانوا أحراراً فى الجمع بين المهن أو الحرف المتعددة ، فكان بعضهم يجمع بين مهنتين أو أكثر ، وقد أشار السكرى إلى أن أبو دكين أحد موالى الكوفة « اشتغل ببيع العطور والرقيق والدواب فى وقت واحد »[2] .

كان لابد لهؤلاء العمال من مؤسسات تحميهم من الاستغلال ولم تكن هناك بالطبع نقابات لهم طيلة القرن الأول الهجرى بالمعنى المفهوم اليوم ، إنما كان هناك نوع من التكتل بين أصحاب الحرف والشعور بروح الجماعة بين أهل الحرفة الواحدة . فقد كان كل واحد منهم يشعر بصلة قوية تربطه بإخوانه الذين يزاولون نفس المهنة . وذكر « أن الصناع وأصحاب المهن كونوا فيما بينهم رابطات كانت تقابل التنظيم العشائرى وقد أعطتهم هذه الروابط بعض الفوائد فى حياتهم المهنية غير أنها لم تؤثر على وضعهم السياسى أو الإجتماعى »[3] .

وكان يقيم فى هذه الأسواق عرفاء يقومون بحل المنازعات والخلافات فى السوق بين الباعة أنفسهم أو بين المشترين والباعة .

---

(١) Boissonnade : Life and Work, p. 181.

(٢) السكرى : المحبر ، ص ٣٤٢ .

(٣) صالح العلى : التنظيمات فى البصرة ، ص ٢٧٧ .

وقد ذكر وكيع «فقال سئل عن بيع السنانير فقال كانت قضية فى بيع (سوق) السنانير وقضية فى سوق الدجاج فقضى فيها عريف سوق الدجاج وعريف سوق السنانير فأصاب عريف سوق السنانير فجمع له شريح السوقين»[١] .

وأغلب الظن أن الفوائد التى حصل عليها العمال كانت فوائد معنوية فقط وهى تقوية الشعور بروح الجماعة .

أما تأثيرهم فى الوضع السياسى فلم يذكر حيث لم يستطيعوا أن يتدخلوا فى سياسة الدولة أو يوجهونها حسبما يشاءون أو حسب مصلحتهم الخاصة .

هذا وكان الإنتساب إلى المهنة أمراً مألوفاً فقد حل محل الألقاب والكنى فى بعض الأحيان ، فكان بائع الزيت يسمى الزيات[٢] وبائع التمر (التمار)[٣] كميثم التمار وبائع القماش يسمى (البزاز)[٤] والصائغ[٥] ، وعنترة الحجام[٦] والحداد[٧] وغيرها .

وكان أصحاب الصنائع والحرف الواحدة يعيشون جماعات فى محلات خاصة بهم أو فى أسواق خاصة حيث كان لكل حرفة أو صناعة سوق خاص فيها مستقل عن غيرها . وكان فى الكوفة سوق الحدادين وسوق الصاغة وسوق الخياطين والقصارين . وقد ساعد هذا التجمع على تكوين

---

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٣٩٧ .
(٢) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٦ ص ٣٦٨ .
(٣) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٦ .
(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .
(٥) الطبرى ، ج ٨ ص ١٣٥ .
(٦) ماسنيون : خطط الكوفة ص ١٧ .
(٧) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٣١ .

نوع من الشعور بالمصلحة المشتركة وبقوتهم كطبقة أو ككتلة إجتماعية لها مصالحها الخاصة التي يجب أن لا يستهان بها. وتكونت لهؤلاء الحرفيين بمرور الزمن بعض العادات والتقاليد الخاصة بكل مهنة من المهن وأصبحت نظام أو شبه قانون يسيرون عليه. وكان يجب على كل شخص الإلتزام بها فلا يحيد عنها وإلا تفرض عليه بعض العقوبات المادية والمعنوية الرادعة.

إن هذا التماسك والاتحاد بين العمال والصناع وهذه الأنظمة التي نمت في بيئتهم أدت إلى أن تعترف بها الدولة، كنظام خاص بهم ينظم حياتهم اليومية كما أخذ بها القضاة في فض المنازعات التي تحدث بين هؤلاء الصناع. وليس أدل على ذلك من قول شريح لقوم من الغزالين احتكموا إليه قال «إذا كانت بينكم سنة أعجمية فسنتكم بينكم»[1]. وهذا اعتراف من الدولة باستقلال العمال ومراعاتهم.

ولقد كانت الدولة تعامل هؤلاء الصناع حسب أديانهم لا حسب حرفهم في بعض الأحيان، ولذلك لم تعترف لهم بأية رابطة مهنية أو تجمع مهني حتى أن الجزية كانت تجبيها الدولة منهم عن طريق رؤسائهم الدينيين وهم الدهاقين[2] وكان بعضهم رؤساء لبعض الحرف في بعض الأحيان[3].

ولعله من العوامل التي عاقت ظهور النقابات في هذا العصر هي هجرات الصناع التدريجية غير المنتظمة وعدم وجود إحتكارات أو قيود على الصناعات واستخدام العبيد في الصناعة بكثرة[4]. كما أن بساطة الحياة وعدم تعقيدها قللت مشاكل العمال ومطالبهم فلم يتطلب الأمر

---

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٣٥١ .

(٢) صالح العلي : التنظيمات في البصرة ص ٢٧٧ .

(٣) Boissonnade : Life and Work, p. 103.

(٤) صالح العلي : التنظيمات في البصرة ص ٢٧٧ .

وجود سلطة أو هيئة أو منظمة لتحمى مصالحها العمالية من الضرر أو الإحتكار .

وكان بعض العرب على مايظهر رغب فى حياة العمل التى كانوا يحتقرونها ويحتقرون من يشتغل بها . فشارك بعضهم الطبقات العاملة فى أعمالها . فكان عمر بن سعد بن أبى وقاص يستغل حماماً ينسب إليه[١] . واعين خادم أبيه استعمل حماماً آخر[٢] كما أن لعزوم من بنى فهد كانت له جبانة (مقبرة) يضرب فيها اللبن[٣] .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٨٠ .

(٣) كان هذا اللبن وحشوه فيه قصب فربما وقع حريق بها فاحترقت الحيطان حتى أن بعضهم أوصى الا يجعل فى قبره لبن عزومى . البلاذرى : فتوح البلدان ص ٩٠١ .

الباب الرابع

التنظيمات المالية فى الكوفة

---

١ — موارد الكوفة المالية

٢ — المصروفات

٣ — مستوى المعيشة

الفصل الأول

موارد الكوفه المالية

كانت للكوفة موارد مالية معينة ثابتة تستطيع بواسطتها دفع رواتب الجند والموظفين والقيام بالخدمات العامة وكان من أهم موارد بيت المال .

١ — الخراج :

كان الخراج من أهم موارد الدولة الرئيسية الذى اهتمت به ونظمته بشكل دقيق ويرجع الفضل فى ذلك إلى الخليفة عمر بن الخطاب، فقد عين أشخاصاً من ذوى الكفاءة والخبرة والأخلاق لمسح أرض كل قطر أو بلد لمعرفة مساحة الأرض الصالحة فيه ومقدار الحاصلات الزراعية حتى يتسنى له أن يفرض الخراج على هذه المناطق بصورة عادلة . وقد أرسل الخليفة خبراء من الصحابة إلى العراق منهم عثمان بن حنيف وحذيفة بن اليمان لمسح أراضى السواد (أرض الكوفة) ولإحصاء أهله وتقدير الخراج والجزية عليهم ، فصار حذيفة بن اليمان على ماوراء دجلة (شرق دجلة) وصار عثمان بن حنيف على مادونه[1] (غرب دجلة) . وأمرهما عمر أن لا يحملا أحداً فوق طاقته[2] أو أرضاً مالا تطيق[3] كما أمرهما أيضاً أن لا يمسحا تلا أو أجمة ولا مستنقع ماء أو أرضاً لا تبلغها الماء وأن يمسحا بالذراع العمرى[4] .

وقد مسح عثمان بن حنيف أرض السواد بدقة متناهية لأنه كان عالماً

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٩ ؛ أبو يوسف : الخراج ص ٢٣ .

(٢) اليعقوبى : التاريخ جـ ٣ ص ١٢٩ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٤٤ .

(٤) الذراع العمرى ، هو ذراع وقبضة وإبهام قائمة فوق القبضة وينسب إلى عمر بن الخطاب. الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٦٦ ؛ اليعقوبى : التاريخ جـ ٢ ص ١٢٩ .

بالخراج من قبل حتى إنه قيل (مسحها مساحة الديباج)[1] دلالة على دقة المسح وبعد هذا فرض عمر بن الخطاب على كل جريب عامراً أو غامراً يناله الماء قفيزاً من الحنطة أو قفيزاً من شعير أو درهمان[2] .

أما حذيفة بن اليمان فلم يوفق فى عملية المسح هذه على الوجه المطلوب لأن سكان المنطقة لم يعينوه على أمره وغشوه . يقول أبو يوسف « أما حذيفة فكان أهل جوخى (شرق دجلة) قوماً مناكير فلعبوا به فى مساحته»[3] ولم يقتصر وضع الخراج فى السواد على الحنطة والشعير وإنما تعداها إلى محصولات أخرى فقد وضع على جريب السمسم خمسة دراهم ، وجريب الكرم عشرة دراهم ، وعلى جريب القطن خمسة دراهم وعلى خضر الصيف فى كل جريب ثلاثة دراهم[4] كما وضع على كل جريب من الزيتون اثنا عشر درهماً[5] وجريب النخيل ثمانية دراهم وجريب قصب السكر ست دراهم[6] وقد حمل من خراج السواد (فى أول سنة ثمانون ألف ألف درهم)[7] وقيل مائة ألف ألف درهم[8] فى خلافة عمر بن الخطاب » .

٣ ـ الجزية :

أرسل عمر بن الخطاب عثمان بن حنيف كما رأينا سابقاً ليضع الخراج

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٤٥ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٥٦ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٤٥ .

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٤٥ .

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٤٥ — ٤٦ ؛ الجريب = ٦٠ ذراع فى ٦٠ ذراع يساوى ٣٦٠ ذراع مربعة أى حوالى ١٠٠٠ متر مربع .

(٥) ابن سلام : الأموال ص ٦٩ .

(٦) أبو يوسف : الخراج ص ٤٣ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٦٩ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٥٧ .

(٧) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٣٠ .

(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٠ ؛ ياقوت : معجم البلدان (مادة السواد) ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٤ .

والجزية على أهل الكوفة وقد قسم سكان الكوفة وسوادها ثلاثة أقسام كل حسب حالته المالية ففرض ثمانية وأربعين درهماً على الأغنياء وأربع وعشرين درهماً على متوسطى الحال واثنى عشر درهماً[١] على من دون ذلك ، وأعفوا النساء والأطفال والشيوخ وذوى العاهات[٢] ورجال الدين على أن تؤخذ هذه الجزية مرة واحدة فى كل سنة حسب الشهور القمرية[٣] .

٣ – الغنائم :

لقد كانت هذه الغنائم مورداً رئيسياً لبيت المال ولا سيما فى عصر الراشدين وبداية العصر الأموى عصر الفتوحات الإسلامية الواسعة ، حيث كانت الغنائم فى هذه المعارك كبيرة جداً . وكانت الحكومة تأخذ من هذه الغنائم خمسها وتوزع الأربعة أخماس الباقية على المقاتلة[٤] . عملا بالآية الكريمة « وما غنمتم من شىء فلله خمسه . . . . . » .

واهتمت الحكومة اهتماماً كبيراً بالغنائم فكانت تعين أشخاصاً يشرفون على جمعها وتوزيعها على المقاتلة . وكان الخليفة عمر بن الخطاب قد عين عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى على جمع الغنائم فى القادسية[٥] ، وعين عمرو ابن عمر المزنى على جمع الغنائم فى المدائن وسلمان بن الربيع على توزيعها[٦] والسائب بن الأقرع على تقسيم غنائم نهاوند[٧] وسلمان بن الربيع على تقسيم

---

(١) ابن سلام : الأموال ص ٤٠ ؛ أبو يوسف : الخراج ص ٤٢ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤٩ .

(٢) حسن ابراهيم : النظم الاسلامية ص ٢١ .

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٥١ .

(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٣٢ ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢١٨ .

(٥) الطبرى ج ٣ ص ٩ ؛ محمد حميد الله أبادى : مجموعة الوثائق السياسية ص ٢٣٠ .

(٦) الطبرى ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣١ ؛ ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٣٢ مصر ١٩٣٦ م .

(٧) الطبرى ج ٣ ص ٢١٨ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٢٥٣ ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٢ ؛ البيرونى : الجماهير فى معرفة الجواهر ص ٦٨ .

غنائم جلولاء[١] .

٤ ـ الضرائب على التجار :

كان لابد أن تفرض ضرائب معينة على التجار (الكفار) الذين يقدمون في دار الحرب إلى الكوفة . وقد فرضت عليهم الحكومة العشر . كتب أبو موسى الأشعرى إلى الخليفة عمر بن الخطاب عامله فى العراق بأن تجار المسلمين إذا دخلوا دار الحرب أخذوا منهم العشر فكتب إليه عمر بن الخطاب يأمره بأخذ العشر إذا دخلوا العراق وأخذ من تجار أهل الذمة نصف العشر[٢] . كما طلب عمر من أبى موسى الأشعرى أن يأخذ من تجار المسلمين ضريبة على تجارتهم أيضاً وهى ربع العشر[٣] . وتسمى هذه الضريبة التجارية « المكوس » وقد أشار الشاعر جابر جنى التغلبى إلى ذلك فقال :

وفى كل أسواق العراق أتاوة   وفى كل ما باع أمرؤ مكس درهم[٤]

وقد حرم الخليفة عمر بن عبد العزيز إقرار « المكوس » وقال المكس هو البخس الذى نهانا الله عنه بقوله ولا تبخسوا الناس أشياءهم ورفض أن يعمل به رغم ماتدره من ربح ونفع للمسلمين .

وقد استثنى من ذلك نصارى تغلب فعوملوا معاملة خاصة . قال زياد ابن حدير « أمرنى عمر أن أخذ من نصارى تغلب العشر »[٥] وقد جعل الخليفة عمر بن الخطاب حداً أدنى للتجارة التى تعفى من الضريبة وهى أن تكون قيمتها مائتى درهم وتؤخذ هذه الضريبة مرة واحدة فى السنة[٦] .

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ١٣٦ ، ٢٠٤ .

(٢) يحيي بن آدم القرشى : الخراج ص ١٧٣ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٥٣٠ .

(٣) نفس المرجع والصفحة .

(٤) الجاحظ : البخلاء ص ٢٩٦ .

(٥) ابن سلام : الأموال ص ٢٩ ؛ الدورى : النظم الإسلامية ص ١٣٥ .

(٦) ابن آدم : الخراج ص ٢٥ .

هذا وكان مقدار مايجبى سنوياً من ضرائب التجار يتوقف على الأحوال التجارية فى المدينة فكانت يزداد مقدارها بازدهار التجارة وتقل بتدهورها .

موارد أخرى :

طبق العرب فى بداية عهدهم بالجباية نظاماً خاصاً بهم تحكمه ظروف الفتح وطبيعة البلاد المفتوحة، فالمدن التى استسلمت للمسلمين بدون حرب أو مقاومة عوملت معاملة خاصة فيها الشىء الكثير من التسامح والرفق .

فقد صالح المسلمون أهل (رامهرمز) على ثمانمائة ألف درهم[١] وأهل (كرمان) على مليونى درهم وألفى وصيف[٢] ، وأهل (مرو) على مليونى ومائتى ألف درهم[٣] ، كما صالح خالد بن الوليد أهل الحيرة على مائة ألف[٤] درهم وقيل تسعين ألف درهم[٥] ، وصالحوا أهل (الأنبار) فى خلافة عمر بن الخطاب على أربعمائة ألف درهم وألف عباءة قطوانية فى كل سنة وقيل على ثمانين ألفاً[٦] . كما صالحوا أهل بانقيا (قرب الكوفة) على ألف درهم وطيلسان سنوياً وصالحوا أهل (همدان) على مائة ألف درهم[٧] وأهل الرى وقوس على خمسة آلاف درهم[٨] وأهل (أذربيجان) على ثمانمائة ألف درهم[٩] .وهى من فتوح أهل الكوفة وصالح سعيد بن العاص والى

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٧٢ .

(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٤٩ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٣٩٦ .

(٤) الطبرى : ج ٢ ص ٥٥٢ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٤ ؛ الطبرى ج ٣ ص ٥٥٢ .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٤٧ .

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٦ .

(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١٤ .

(٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢١ .

الكوفة أهل (جرجان) على مائتى ألف درهم[١] وأهل (كابل) على ألف ألف درهم[٢]، وأهل سجستان على مائتى ألف درهم[٣] و (مرو الروذ) ستين ألف درهم[٤] . أما المدن الأخرى التى فتحها المسلمون عنوة بحد السيف فكان لقواد المسلمين الحق المطلق فى فرض أى مبلغ يشاءون ويكون هذا عادة أكبر بكثير مما يفرض على المدن التى استسلمت .

وكانت هناك قاعدة عامة اتبعتها الدولة الإسلامية وهى أن يخصص لكل بلد واردات المقاطعات التى يفتحها جنوده ، ولكن الدولة اضطرت فى بعض الأحيان أن تدفع العطاء للمهاجرين والأنصار والمسلمين الأول حتى إذا لم يشتركوا بالفتوحات الإسلامية. كما أن واردات بعض المقاطعات كانت لا تكفى لسد حاجة الولاية التى فتحتها ،لهذا نرى الخليفة عمر يخصص لأهل (البصرة) واردات بعض المقاطعات التى فتحها الكوفيون وحدهم أو بالإشتراك مع البصريين(كنهاوند[٥] واصفهان[٦] أو قسم من الأهواز[٧] وتستر وهى من فتوح أهل الكوفة والبصرة معاً)[٨] .

وقد عمد عمر بن الخطاب إلى هذه الإجراءات لتتمكن ولاية البصرة من سد نفقات المقاتلة التى لم تكن وارداتها كافية لسد حاجتها[٩] . وكانت نهاوند من فتوح أهل الكوفة والدينور من فتوح أهل البصرة فلما كثر المسلمون بالكوفة واحتاجوا إلى أن يزدادوا فى النواحى التى كان خراجها

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٣٠ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨٩ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٨٩ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٩٧ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٣ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٨٧ .
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٠ ؛ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٥ .
(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٧٠ .
(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٧٣ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٨١ .
(٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٣

مقسوماً فيهم فصيرت لهم الدينور وعوض أهل البصرة نهاوند لأنها من أصبهان . فصار فضل ما بين خراج الدينور ونهاوند لأهل الكوفة وسميت نهاوند (ماه البصرة) والدينور (ماه الكوفة)[١] .

وقد تغيرت الأحوال فى العصر الأموى عندما أسلم قسم كبير من أهل الذمة حيث أدى إلى إعفائهم من الجزية، بالإضافة إلى إقتناء العرب للأراضى الخراجية ودفعهم العشر عنها بدل الخراج فضلا عن حاجة الدولة الماسة إلى المال للسيطرة على الوضع الداخلى وللإتفاق على حاجات مجتمع حضرى متطور ولتوسيع الجهاز الإدارى وزيادة نفقات البلاط الأموى .

إنّ هذه الأسباب حدت بالحكومة إلى تعديل النظام المالى الذى وضعه الخليفة عمر بن الخطاب . فقد فرضت ضرائب جديدة كهدايا النوروز والمهرجان ، وهى ضرائب اعتاد أهالى المملكة الساسانية تقديمها للملك على شكل هدايا فى عيدى (النوروز) أو الانقلاب الصيفى (والمهرجان) أو الانقلاب الشتوى وهى ضرائب ساسانية ألغاها الخليفة عمر بن الخطاب إلا أن معاوية أعادها وطالب أهل السواد أن يهدوا إليه هدايا فى هذين العيدين فبلغ مقـــدار هذه الهدايا (عشرة آلاف درهم)[٢] أى عشرة ملايين درهم فى السنة يضاف إليها واردات (الصوافى)[٣] التى بلغت وارداتها حوالى خمسين ألف ألف درهم من الكوفة وسوادها[٤] وقد كان على خراج العراق لمعاوية فى هذه الفترة مولاه عبد الله بن دراج .

وذكر اليعقوبى عن إستقرار خراج العراق فى عهد معاوية ولا سيما

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٣ ؛ ابن الفقيه : البلدان ص ٢٥٩ .

(٢) اليعقوبى : التاريخ جـ ٢ ص ١٩٤ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥ .

(٣) الصوافى : الأراضى التى كانت ملكا لكسرى وأهله والتى تركها أصحابها وهربوا

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ ؛ اليعقوبى : التاريخ ٢ ص ١٩٤ .

السواد إذ بلغت وارداته (مائة ألف ألف وعشرين ألف ألف درهم)[١] أى حوالى مائة وعشرون مليون درهم .

كما اتخذ الخليفة عبد الملك بن مروان إجراءات شاذة لمعالجة الأزمة فقد أمر عامله على الجزيرة (شمال العراق) الضحاك بن عبد الرحمن ابن الأشعرى بإحصاء دخل الفرد السنوى وطرح نفقته فى طعامه وأدامه وكسوته وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها،فوجد أن الذى يحصل بعد ذلك فى السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم بهذا طبقة واحدة[٢] .

وظلت هدايا النوروز هذه تجبى من الناس حتى جاء عمر بن عبد العزيز فأبطل هذه الضريبة ، واتخذ تدابير تتعلق بالعراق عامة وبالكوفة خاصة حيث أوصى عامله على الكوفة فقال «لاتحمل خراباً على عامر ولا عامرا على خراب ، انظر الخراب فخذ منه ماأطاق وأصلحه حتى يعمر ، ولا يؤخذمن العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذون فى الخراج إلا وزن سبعة ليس لها أيين ولا أجور الضرابين ولا هدايا النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا دراهم النكاح[٣] ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض »[٤] .

كما أن الأمويين أبقوا الجزية فى بعض الأحيان على بعض الموالى بعد إسلامهم لإعتقادهم بأنهم أسلموا رغبة فى التخلص من الجزية لا حباً فى الإسلام وكان الحجاج أول من حاول معالجة هذه المشكلة ووضع حلا لها

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ص ٢٠٧٢ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٤٩ .

(٣) كانت تؤخذ الجزية من البغايا ، ابن سلام : الأموال ج ٤٧ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٩٤ ؛ الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤

بعد أن أخبره عماله أن الخراج قد انكسر وأن أهل الذمة قد أسلموا ولحقوا بالأمصار[١]. وقد وضع الحجاج سياسته المالية هذه مدفوعاً بمصلحة الخزينة وليس بمصلحة المسلمين « من العرب والموالى» كما فرض الخراج على العرب الذين اقتنوا الأراضى الخراجية[٢] .

وقد وضع الحجاج الجزية على الموالى بعد إسلامهم كما كانت تؤخذ منهم وهم كفار[٣] . وقد أراد الحجاج الزيادة فى الضرائب فكتب إلى الخليفة عبد الملك « يستأذن فى أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه الخليفة وكتب إليه لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك وابن لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً »[٤] .

وظل الوضع كذلك حتى جاء عمر بن عبد العزيز فوضع حلا راعى فيه المبادىء الإسلامية العادلة من جهة وحفظ حقوق بيت المال من جهة أخرى ، وفأعفى الموالى بعد إسلامهم من الجزية وأبقى أرضهم خراجية . وجاء فى كتاب أرسله إلى عامله فى الكوفة يطلب منه « أن لا خراج على من أسلم »[٥] ، وأوصاه أيضاً « من أسلم من أهل الأرض فله ما أسلم عليه من أهل أو مال ، فأما داره وأرضه فأنها كائنة فى فىء الله عز وجل للمسلمين »[٦] .

ولكن سياسة عمر العادلة قد انتهت بوفاته ، ورجع خلفاء بنى أمية إلى

---

(١) الطبرى ، جـ ٨ ص ٣٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٦٨ ؛ ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٣٢٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٤ ص ٧٦ .

(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٤ .

(٥) البلاذرى : انساب الأشراف جـ ٧ ص ٤٠٥ (مخطوط) ، ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٣٢١ .

(٦) ابن آدم القرشى : الخراج ص ٣٤ .

وضعهم السابق . فنرى فى العراق أن عمر بن هبيرة قد زاد فى جباية النخيل والأشجار وأضر بالفلاحين كما أضر بأهل الخراج ، وأعيدت السخرة والهدايا التى كانت تؤخذ فى النوروز والمهرجان »[١] .

جباة المال :

لقد كان الخلفاء يعينون عمالا مستقلين عن الولاة والقواد للقيام بجباية الخراج وكانت تدفع منه حكومة الولاية أرزاق الجند ورواتب الموظفين وما تحتاجه الدولة من خدمات عامة ثم يرسل الباقى إلى بيت المال فى (المدينة) ليصرفه فيما خصص له[٢] .

وقد كان لهؤلاء العمال صلاحيات واسعة فى أغلب الأحيان فى اتخاذ مايرونه من الوسائل والأساليب لجبايتها، وقد اهتم الخلفاء أوالولاة باختيار الجباة من ذوى الكفاءة والأمانة والإخلاص فى العمل . وقد ذكر أبو يوسف الصفات التى يجب توفرها فيمن يتولى جباية الخراج فقال « أن يكون والى ذلك فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأى عفيفاً لا يخاف فى الله لومة لائم ... ولا يخاف منه جور الحكم أن حكم »[٣] . وليس لهؤلاء العمال مدة معينة لخدمتهم تعين عند توظيفهم وإنما يعتمد بقاؤهم على رضا الوالى أو الأمير بصورة خاصة وإخلاصهم فى عملهم .

وكان هؤلاء الموظفين أو العمال عادة من العرب ، الذين لديهم الكفاءة الخاصة للقيام بهذا العمل. وكانوا يراعون مراعاة خاصة فى بعض الامتيازات التى تمنح لهم . فقد زاد زياد ابن أبيه فى رواتب هؤلاء الموظفين حتى لا يلجأوا إلى الاختلاس[٤] .

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٣ ص ٥٥ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ١٩٥ .
(٣) أبو يوسف : الخراج ص ١٢٧ .
(٤) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ٢٧٩ .

كان بعض الولاة يفضلون إستخدام الأعاجم فى جباية الأموال لأنهم أبصر بالجباية من غيرهم كما أنه بإمكان الوالى أن يعاقبهم إذا أساءوا الإستغلال دون أن يخشى تدخل عشائرهم أو حقدهم على السلطان .

قال عبيد الله بن زياد « كنت إذا استعملت العربى يكسر الخراج ، فإذا اغرمت عشيرته أو طالبته أوغرت صدورهم ، وإن تركته تركت مال الله وأنا أعرف مكانه ، فوجدت الدهاقين أبصر بالجباية وأوفى بالأمانة وأوهن بالمطالبة منكم ، مع إنى جعلتكم أمناء عليهم لئلا يظلموا أحداً »[1] وكان زياد بن أبيه يرى أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعاجم .

كانت الإدارة المالية فى الكوفة سيئة جداً فقد استعمل الجباة أساليب وحشية فى جباية الأموال فكانوا يعذبون الأشخاص الذين يتأخرون عن دفع الجزية[2] .

كما أن سياسة الخلفاء والولاة لم تكن موحدة فى كيفية جباة الخراج ومعاملة عماله فقد تساهل بعضهم فى مراقبتهم وتغاضوا عنهم ترغيباً فى إبقائهم على ولائهم للدولة ، فاستطاع عدد كبير منهم جمع ثروات طائلة .

وقد تشدد البعض الآخر مع هؤلاء المختلسين فكانوا يصادرون أموالهم كما فعل الحجاج بأموال بازاد مرد بن الهريد[3] . وأن قسماً منهم كان يعذب حتى الموت ، وذكر اليعقوبى « إن هشام بن عبد الملك أمر خالد القسرى والى الكوفة بمحاسبة عمر بن هبيرة عن ولايته الكوفة وتعذيبه حتى الموت . ولما زادت إيرادات خالد القسرى

---

(١) الطبرى ، ج ٧ ص ٢٩ .

(٢) ابن سلام : الأموال ص ٤٣ .

(٣) المبرد : الكامل ج ١ ص ٢٦١ .

أمر هشام يوسف بن عمر بعد أن تولى أمر الكوفة بمحاسبة خالد وتعذيبه حتى الموت[١] . كما أمر الخليفة يزيد بن الوليد بمحاسبة يوسف ابن عمر وتعذيبه ثم قتله[٢] . وكان هؤلاء يعذبون فى موضع خاص يسمى « دار الإستخراج » حيث كانت تستخدم فيه شتى أنواع العذاب[٣] .

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٣ ص ٦٣ .
(٢) الطبرى ، ج ٩ ص ٤ .
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٨ — ٣٩ .

الفصل الثانى

المصروفات

١ — العطاء

٢ — الرزق

٣ — رواتب الموظفين

٤ — بيت المال



الفصل الثانى

المصروفات

العطاء :

إن الجيوش العربية المقاتلة التى تخرج إلى الفتح كان لابد لها من المال اللازم لتستعين به على أمورها ، فكانت الحكومة تخصص لهم مقداراً معيناً من المال يوزع على الجند فى أوقات معينة من السنة ، وقد ميز الخليفة عمر بن الخطاب بين الناس فى العطاء عندما وضع الديوان على عدة أسس هى: النسب للرسول أولا[1] ، والسابقة فى الإسلام ثانياً ومقدار حاجة الفرد ثالثاً وقد خص عمر المقاتلة الأولى بالأفضلية فى العطاء ، كما راعى بقية الناس فى العطاء بصرف النظر عن أصلهم وعشائرهم أو مكانتهم ، ولهذا كان عطاء الناس يختلف حسب أسبقيتهم فى الإسلام ، فمن أسلم قبل بدر كان عطاؤه أكبر ممن أسلم بعد بدر وهذا يأخذ عطاءاً أكثر ممن أسلم بعد الحديبية[2] . وهكذا ، فقد أعطى لكل من المهاجرين والأنصار الذين شهدوا بدراً (خمسة آلاف)[3] درهم ولكل من المهاجرين والأنصار الذين لم يشهدوا بدراً (أربعة آلاف)[4] درهم ولكل من أزواج النبى (اثنى عشر ألف درهم)[5] .

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٣١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٧ ؛ أبو يوسف : الخراج ص ٢٢ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٧ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ ؛ أبو يوسف الخراج ص ٥١ .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٧ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٠٩ ؛ أبو يوسف : الخراج ص ٥١ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٧ ؛ أبو يوسف : الخراج ص ٥١ .

أما فى الكوفة فقد اتبعت أسس أخرى فى تنظيم العطاء بأن فرض عمر ابن الخطاب لمن «ولى الأيام قبل القادسية كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين ألفين وفرض لمن بعد القادسية، واليرموك ألفاً ألفاً ثم فرض للروادف المثنى خمسمائة خمسمائة، ثم للروادف التليث بعدهم ثلاثمائة ثلاثمائة سوى كل طبقة فى العطاء قويهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين، وفرض لمن بعدهم، وهم أهل هجر العباد على مائتين . . ونساء أهل القادسية مائتين مائتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك وجعل الصبيان سواء على مائة مائة »[1] .

أما الحد الأدنى من العطاء فإنه «فرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل ما بين ألفين إلى ألف وتسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحداً عن ثلاثمائة »[2] .

أما اليعقوبى فيقول « أن عمر بن الخطاب فرض لأهل اليمن فى أربعمائة ولمضر ثلاثمائة ولربيعة مائتين »[3] .

وقد أكد الطبرى أن عمر بن الخطاب أعطى اليمانيين والحميريين عطاء قليلا وذلك لتأخرهم فى الانضمام إلى الجيوش الإسلامية[4] .

هذا وقد فرض عطاء خاص للأشخاص الذين يبدون بسالة وشجاعة فى المعارك إذ أخذوا عطاءاً أكبر مما أخذ غيره وقال « إن أهل البلاء يوم القادسية فضلوا عند العطاء بخمسمائة خمسمائة فى أعطياتهم وكان عددهم خمسة

---

(١) الطبرى، ج ٣ ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥١ .

(٣) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٣١ .

(٤) لما رأى الفاروق حسن بلائهم ... وكان بما يأتى فى الأمر أبصرا
فسن لهم ألفين فرضاً وقد رأى ... ثلاثمئتين فرض عك وحميرا

الطبرى ج ٣ ص ١٨٦ .

وعشرون رجلا أما أهل الأيام فإنه فرض لهم على ثلاثة آلاف فضلوا على أهل القادسية »[1] . يضاف إلى هذا أن الفارس فى المعارك يأخذ عطاءاً أكثر من الراجل ، وتكون عادة لفرسه سهمان وله سهم واحد أى يأخذ الفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم واحد[2] .

لم يقتصر العطاء فى عهد عمر بن الخطاب على العرب فقط وإنما شمل الموالى أيضاً فقد كتب عمر إلى أمراء الأجناد قائلا « ومن أعتقتم من الحمراء ، فأسلموا فالحقوهم بمواليهم ، لهم مالهم وعليهم ماعليهم ، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فأجعلوهم أسوتهم فى العطاء »[3] . أما من لاعشيرة له ولا من الموالى ففرض لهم ما بين مائتين وخمسون إلى ثلاثمائة »[4] .

هذا وقد فرض عمر عطاءاً لأشراف الأعاجم أيضاً منهم فيروز ابن يزدجرد دهقان نهر الملك ولخالد ولجميل ابنى بصبرى دهقان الفلوجه (وغيرهم من سبايا العراق) ألفين درهم[5] .

وقد فرض لأهل الهجر والعباد مائتين[6] . وفرض للأساورة بعد إسلامهم فجعلوهم أسوة للعرب فى العطاء ففرض ألفين ألفين (لمائة) منهم وألفين وخمسمائة لستة منهم[7] .

ولم يقتصر العطاء هذا على الأحياء فقد وإنما كان يعطى لورثة المتوفين

---

(١) الطبرى : ج ٣ ص ٧٢ .
(٢) ابن آدم : الخراج ص ١٨ ؛ أبو داود : السنن ج ٣ ص ٧٥ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٤ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٢٣٥ .
(٤) ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ٣ ص ٢١٢ قسم ١ .
(٥) اليعقوبى : التاريخ ٣٠ ص ١٠٩ .
(٦) الطبرى ، ج ٣ ص ١٠٩ .
(٧) الطبرى ، ج ٣ ص ١٨٦ .

منهم[١]. وقد ذكر البلاذرى «أن رجلا مات فى الحى بعد ثمانية أشهر مضت فى السنة فأعطاه عمر ثلثى عطائه»[٢]. كما أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان إذا استوجب الرجل عطاؤه ثم مات ، أعطاه ورثته[٣] ، ولم يقتصر العطاء على الرجال وإنما تعداهم إلى النساء ، فقد أعطيت نساء النبى (اثنى عشر ألفاً) درهم لكل واحدة منهن ، أما نساء الذين شهدوا بدراً فكان لكل واحدة منهن (خمسمائة)[٤] درهم،ونساء المسلمين بعد الحديبية إلى الأيام (ثلاثمائة)[٥] درهم ونساء أهل القادسية (مائتين) درهم[٦] .

كما أن العطاء شمل الأطفال أيضاً فقد خصص لكل طفل دون السابعة عشر (مائة)[٧] درهم فى السنة تأخذ عند الفطام ، لهذا نرى بعض الناس أخذوا يفطمون أولادهم قبل الأوان ليحصلوا على العطاء مبكراً[٨] .

شار أبو يوسف إلى مقدار العطاء الذى فرضه عمر بن الخطاب للأطفال قائلا «كان المنفوس إذا طرحته أمه مائة درهم فإذا ترعرع بلغ مائتين درهم فإذا بلغ زاده»[٩] . أما اللقيط فقد فرض له (مائة) وفرض له رزق يأخذه وليه كل شهر بقدر مايصلحه ثم ينقله من سنة إلى سنة وكان يوصى بهم خيراً ، ويجعل رضاعهم ونفقتهم من بيت المال[١٠] .

ولما تولى الخلافة على بن أبى طالب ساوى فى العطاء بين المسلمين والنصارى والموالى الذين كانوا قد انضموا إلى جيشه وحاربوا معه فلم يفضل

---

(١) ابن سلام : الأموال ص ٢٦٠ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٧ .
(٣) ابن سلام : الأموال ص ٢٦١ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١١٠ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ١١٠ .
(٥) الطبرى : نفس الجزء والصفحة .
(٦) الطبرى ج ٣ ص ١١٠ .
(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٨ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٢٣٨ .
(٨) ابن سلام : الأموال ص ٢٣٧ ، ٢٤٠ .
(٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٨ ؛ أبو يوسف : الخراج ص ٥٥ .
(١٠) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٣٨ .

أحداً على أحد وذكر اليعقوبى « أن النصارى الذين قاتلوا مع على فى واقعة الجمل لم يميز بينهم وبين المسلمين فى العطاء ، وسئل عن ذلك فقال قرأت ما بين الدفتين (يقصد القرآن) فلم أجد لولد اسماعيل على ولد اسحق فضل هذا وأخذ عود من الأرض فوضعه بين أصبعيه »[١] . وزاد مائة درهم على عطاء الجند السابق ليوم الجمل . وزاد الحسن بن على الأعطيات مائة مائة عند توليته الخلافة[٢] .

إن هذا العطاء لم يكن ثابتاً وإنما كان متغيراً بين الزيادة والنقصان تبعاً لواردات الدولة أو زيادة عدد أصحاب العطاء أو بالنسبة للعوامل السياسية والأزمات الاقتصادية .

وعلى هذا فقد أنقص الحجاج العطاء عندما تدهور اقتصاد العراق وانكسر خراجه وقلت وإرداته ، وللافاته هذه الأزمة بسبب سياسته الخرقاء أقدم على ذلك إذ لم تكف واردات الدولة لسد نفقات العطاء .

فأنقص الحجاج عطاء أهل العراق بعد فشل ثورة مصعب بن الزبير مائة درهم مما أدى إلى ثورة عبد الله بن الجارود[٣] احتجاجاً على هذا الإجراء . كما انقص العطاء أيضاً عندما ثار ابن الأشعث وانضم إليه عدد ضخم من أهل الكوفة[٤] .

وقد أشار الأصفهانى إلى موقف سعيد بن العاص وإلى الكوفة من العطاء ولا سيما عطاء المرأة فقال « كان سعيد قد بغضه أهل الكوفة لأمور منها أن عطاء النساء بالكوفة كان مائتى فحطه سعيد إلى مائة »[٥] .

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٦٠ .

(٢) الأصفهانى : مقاتل الطالبيين ص ٣٦ .

(٣) الطبرى : ج ٧ ص ٢١٤ .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٦١ .

(٥) الأصفهانى : الأغانى ج ١١ ص ٢٩ .

وقد أعطى عثمان[١] زيادة مائة درهم فى العطاء لكل شخص عندما تولى الحكم . وقد زيد العطاء أيضاً عندما طمع بنو أمية بالملك واحتاج معاوية إلى من يساعده ، فكان المال من جملة ما استخدمه فى هذا السبيل حيث أمر بزيادة (مائة درهم) لكل شخص عند توليته الحكم[٢] .

وكان معاوية كثيراً ما يأمر عماله بزيادة أعطيات أناس يعرف أنهم لايميلون إليه ولا يؤيدونه طمعاً فى الحصول على ولائهم له فقد أمر النعمان ابن بشر واليه على الكوفة بزيادة عطاء أهل الكوفة الذين لا يؤيدونه — فكان هؤلاء من أشد الناس تعصبا لعلى — أن يزيد فى أعطياتهم عشرة دنانير[٣] .

هذا وعندما أرسل يزيد جيشاً إلى الحجاز أمر أن يعطوا أعطياتهم كاملة ويعاون كل أمرىء منهم (بمائة دينار)[٤] وكذلك زاد الوليد الثانى العطاء عشرة دنانير وأهل الشام عشرين دينار[٥] . كما أن المختار الثقفى عندما استولى على الكوفة وجد فى بيت المال (تسعه آلاف الف) وزعها على جنده فأصاب كل واحد منهم خمسمائة درهم[٦] .وقد اعطى مصعب بن الزبير عطائين فى السنة لأهل البصرة[٧] . إلا أن هذه الزيادات فى العطاء لم تبق دائمة وإنما كانت عطاءات مؤقتة دفعت بمناسبة توليتهم الحكم أو لتثبيت سلطانهم .

لم يقتصر عطاء الأمويين على العرب وحدهم ، وإنما أعطوا الموالى

---

(١) الطبرى ، ج ٢ ص ٣٠٧ .
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ١٥٧ «مخطوط» .
(٣) اليعقوبى : التاريخ ج ١ ص ٢٠٧ .
(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٦ «مخطوط» .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ١٧٥ .
(٦) الطبرى ج ٧ ص ١٠٩ .
(٧) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٢٧١ .

وكان معاوية بن أبي سفيان أول من شملهم بالعطاء من بني أمية حيث أعطى لكل واحد منهم (خمسة عشرة) درهما ثم جعلها سليمان (خمسة وعشرون) درهما ثم جعلها هشام (ثلاثون)[1] درهما ولما جاء عمر بن عبد العزيز جعل الموالي والعرب في الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء بعد أن وجد عشرين الف منهم في العراق يغزون بلا عطاء ولا رزق[2] .

وكان مقدار العطاء يتغير بالنسبة لعدد المقاتلة الذين يضافون إلى الديوان قال التنوخي « وكان يضاف إلى من في العطاء اشخاص آخرين حسب رغبة الخليفة أو الأمير »[3] وكانت الأسباب العسكرية أهم هذه الأسباب التي تضطر إلى نقل عدداً كبيراً من المقاتلين إلى مناطق معينة . قال البلاذري « إن زياد بن أبيه نقل أربعين الفاً من مقاتلة العراق إلى خرسان »[4] واسكن الأشعث بن قيس من عرب الكوفة من أهل العطاء والديوان في أذربيجان عندما نقضوا أهلها عهد المسلمين[5] وقد أنقص العطاء في البصرة في عهد زياد بن أبيه وقال البلاذري « قال زياد إلى عرب البصرة إن عشائركم قد وردت علينا فاختاروا أن يأخذوا نصف أعطياتكم وارزاقكم فتقويهم بها مما لهم عندنا ، أو تكفينا كل عشيرة من فيها ، فمنهم من ضم عشيرته ومنهم من طابت نفسه بنصف عطائه[6] ورزقه » .

إن دفع العطاء في وقته المعين لم يكن متيسراً دائماً خاصة إذا لم يصل الخراج في وقته وفي هذه الحالة كان العطاء يدفع أقساطاً أو يؤجل دفعه عن وقته المعين ، إن عدم استقرار العطاء كان له أثر كبير في اضطراب

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ٤٠٠ .
(٢) الطبري ، ج ٨ ص ١٣٤ .
(٣) التنوخي : المستجاد ص ٢٣٤ .
(٤) البلاذري : فتوح البلدان ص ٤٠٠ .
(٥) البلاذري : فتوح البلدان ص ٣٢٤ ؛ الطبري ج ٣ ص ٣٠٧ .
(٦) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٢٦٠ « مخطوط » .

حياة الناس وأحوالهم المعيشية ولهذا أخذ بعض الخلفاء والولاة يهتمون بدفع العطاء فى وقته المحدد ويتخذونه وسيلة لكسب الجماهير وتأييدها فقد أعلن زياد بن أبيه عندما ولى العراق فى خطبة له قائلا « الأعطيات فى أيامها »[1] . كما أن يزيد بن معاوية وعد أن يجمع العطاء ويدفعه دفعة واحدة بعد أن كان أباه يدفعه ثلاثا[2] .

وكان العطاء يدفع سنوياً فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ويعطى فى شهر المحرم عند بداية السنة الهجرية ، قال الطبرى « إن عمر بن الخطاب أمر لهم (المقاتلة) بمعاونهم بالربيع من كل سنة وبإعطائهم فى المحرم من كل سنة وبفيئهم عند طلوع الشعرى فى كل سنة وذلك عند إدراك الغلات »[3] .

كما قال « إن مصعب بن الزبير عندما فشل عمر بن عبيد الله عامل ابن الزبير فى رد خطر الخوارج قال « والله ما أدرى ما الذى أغنى عنى أن وضعت عمر بن عبيد الله بفارس وجعلت معه جنداً أجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر وأوفيهم أعطياتهم فى كل سنة وأمر لهم من المعاون فى كل سنة بمثل الأعطيات »[4] . وكان هذا العطاء يجرى توزيعه على يد العرفاء حيث كان فى الكوفة فى أواخر العهد الأموى مائة عريف[5] .

إن أكثر سكان الكوفة كانوا يعتمدون فى معاشهم إعتماداً كلياً على العطاء الذى تدفعه الدولة لهم .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٥ ص ٧ .

(٢) الذهبى : تاريخ الاسلام جـ ٢ ص ٢٦٧ .

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٤) الطبرى : جـ ٧ ص ١٦٣ .

(٥) الطبرى جـ ٧ ص ١٥٢ .

وفى مقابل الحصول على العطاء كانت الحكومة تشترط على الفرد سكن[١] المصر أو الكوفة وأن يلبى دعوتها فى أوقات الحرب . أما إذا لم يفعل هذا فإن أسماءهم تمحى من سجل العطاء ويحرمون منه[٢]. وكان يعفى من الجندية العجزة والمسنون والذى بوسعهم إرسال بديلا عنهم[٣] .

أشرف العطاء :

لقد كان هناك نوع من العطاء يدعى (أشرف العطاء أو شرف العطاء) ويدفع هذا النوع عادة لأهل الأيام واهل السابقة فى الإسلام والذين اشتركوا فى الفتوحات الإسلامية الاولى تكريماً لهم فى اشتراكهم فى تلك الحروب التى أدت إلى ترسيخ أركان الإسلام وتثبيت دعائمه كما أن اشرف العطاء هذا كان يعطى للأشخاص الذين يبدون شجاعة وبسالة فائقة فى الحرب[٤] . وقد ذكر البلاذرى ان عمر بن الخطاب امر عمر بن العاص أن يفرض لخارجه ابن حذافة فى أشرف العطاء لشجاعته[٥] .

ولما جاء الأمويون أضافوا إلى أشرف العطاء أشخاصاً كان يبدون الولاء والإخلاص لهم قال الجاحظ (عندما توفى عبد الملك بن مروان وجلس ابنه الوليد دخل عليه رجل بين المهنئين بتولية الخلافة فبالغ له فى التهنئة ، فقال له الوليد من أنت ؟ فانتسب له . قال فى كم أنت قال فى مائة دينار ، فألحقه فى أهل الشرف »[٦].

---

(١) ابن سلام : الأموال ص ٢١٢ .

(٢) الطبرى ، جـ ٧ ص ٢١٤ .

(٣) المبرد : الكامل جـ ١ ص ٣٣٥ .

(٤) الطبرى جـ ٣ ص ٧٢ ، ٢١٨ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤١ .

(٦) الجاحظ : البيان والتبيين جـ ٢ ص ٢٠٢ .

وكان مقدار عطاء أهل الشرف يتراوح بين الفين[1] والفين وخمسمائة درهم[2] .

وكان أشرف العطاء هذا لا يورث لاحد ، لذلك كان الخلفاء والأمراء يضيفون دائماً إلى اشرف العطاء أشخاص آخرين يحلون محل الأشخاص الذين يتوفون .

قال البلاذرى « إن بابكر بن محمد بن عمرو بن حزم أمير المدينة من قبل عمر بن عبد العزيز فكتب إليه أن قوماً من الأنصار قد بلغوا اسناناً ولم يبلغ عطاؤهم الشرف ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر باثباتهم فى شرف العطاء فليفعل ، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز الشرف شرف الآخرة والسلام »[3] .

ولقد كان على أهل العطاء أن يجهزوا أنفسهم بالأسلحة ويذهبوا للقتال ولم تكن الحكومة مسئولة عن تجهيز المقاتلة بالسلاح كما هو الحال اليوم .

وقد جاء فى فتوح البلدان عن تجهيز المقاتلة أنفسهم بالسلاح « إن كثير ابن شهاب كان على الرى ودستى ، وقزوين . . وكان إذا غزا اخذ كل أمرى ممن معه بترس ودرع وبيضة ومسلة وخمس إبر وخيوط كتان ، وبمقص ومقراض ومخلاة والبيسه »[4] ولم يقتصر اشرف العطاء على العرب وحدهم وإنما شمل قسما من الموالى أيضاً ، فقد اعطى أبو موسى الاشعرى (لمائة وستة) أشخاص من الفرس أشرف العطاء بعد أن وافق الخليفة

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ١٨٦ .

(٢) الطبرى ، ج ٣ ص ١٠٩ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٠٤ — ٤٤٥ (مخطوط) .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١٤ .

عمر بذلك فأعطى إلى (مائة شخص) منهم (ألفين) وأعطى ألفين وخمسمائة لستة آخرين[1] منهم .

الرزق :

لقد أضاف الخلفاء إلى العطاء الذى كان يعطى للمقاتلة مقداراً معيناً من الحبوب توزع عليهم فى كل شهر ، وقد قرر عمر بن الخطاب أن يعطى لكل فرد من المقاتلة (جريبين)[2] من الحنطة شهرياً رزقاً له ، وقد قدر هذا المقدار من الرزق بالنسبة لحاجة الفرد اليومية ، وكان يوزع أحياناً إلى جانب الحبوب الزيت والخل ، قال البلاذرى « قال عمر بن الخطاب إنى فرضت لكل نفس مسلمة فى كل شهر مدى حنطة وقسطى زيت وقسطى خل »[3] ولم يقتصر هذا الرزق على المقاتلة فقط . وإنما تعداهم إلى عامة الناس[4] . حتى شمل العبيد[5] . فأصبح لهم نصيب من الرزق . كما أعطى المرضى والمساكين أيضاً وكان الوليد بن عبد الملك أول من أجرى على ذوى العاهات والمساكين والمجذومين الأرزاق[6] .

لم تكن كمية الرزق هذه ثابتة فى كل الظروف والأحوال وإنما كانت تتغير تبعاً للأحوال السياسية والظروف الاقتصادية ، فعند ما تسود البلد الاضطرابات والفتن كان لابد أن تقل واردات الأراضى الزراعية لانصراف الناس عن الزراعة وانشغالهم بأمور السياسة مما يؤدى إلى قلة الرزق الذى يوزع على الناس وعلى العكس من ذلك فان الرزق يزاد فى أوقات الرخاء . وعلى هذا الأساس فإن مقدار الزيادة والنقصان خاضعة

---

(١) الطبرى ج ٣ص ١٨٢ .

(٢) الجريب : (٣٦٠٠) ذراع مربع ويقصد به ما ينبت فى تلك المساحة : جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٧ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٢٤٧ .

(٤) الطبرى : ج ٣ ص ١١٠ ؛ البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٦ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٤٧ ؛ ابن سلام : الأموال ص ٢٤٧ .

(٦) اليعقوبى : التاريخ ٣ ص ٣٤ .

لظروف البلد وخير دليل على ذلك ما حدث فى زمن سعيد بن العاص فى الكوفة فى خلافة عثمان حيث أنقص الجريب وجعله خمسة أرطال ونصف بعد أن كان ثمانية أرطال[١] . وقد أثار هذا العمل موجة من الاستياء والتذمر بين الناس . وعند ما جاء الحجاج وتولى أمر الكوفة أرجع وزن الجريب إلى ثمانية أرطال كما كان الحال فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب[٢] .

وقد كان أهل الكوفة فى العصر الأموى يحرمون جميعاً من العطاء فى ظروف سياسية معينة ، وقد أشار الأصفهانى إلى أن المغيرة بن شعبة حبس أرزاق أهل الكوفة لأنهم مركز المعارضة للخلافة الأموية[٣] .

وكان أهل الكوفة يتنازلون عن عطائهم هذا لأسباب خاصة ويعطونه لأشخاص معينين . ذكر البلاذرى أن عامر بن مسعود أحد العمال الذين تولوا أمر الكوفة فى عهد ابن الزبير طلب من أهل الكوفة أن يتنازلوا عن أرزاقهم شهراً حتى يستعين بثمنها على الزواج[٤] قائلا « يا أهل الكوفة إنى تزوجت امرأة من بنى نصر بن معاوية فأعينونى بأرزاقكم شهراً ، فقال قائلى نعم فأخذ أرزاقهم كلها لشهر » .

لم يكن عدد الأشخاص الذين يأخذون العطاء ثابتاً لا يتغير وإنما كان عرضة للزيادة والنقصان . فكان يضاف إلى العطاء عدد كبير ولاسيما فى أوقات الأزمات الاقتصادية والمجاعات الشديدة بعد أن كان هؤلاء لا رزق لهم . قال اليعقوبى « لقد أصاب الناس جدب وقحط ومجاعة شديدة فى عام الرماد سنة ١٨ هـ . . فأجرى عمر بن الخطاب الأقوات فى تلك السنة على عيالات

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٩٨ .

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٣١ .

(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ١٦٥ ص ٢ .

(٤) البلاذرى : أنساب الإشراف ج ٥ ص ١٩١ .

قوم من المسلمين وأمر أن تكون نفقات أولاد اللقط ورضاعهم من بيت المال[١] . وتوزع الأرزاق هذه عادة على مستحقيها شهرياً[٢] .

وذكر البلاذرى أن مابلغ الناس عاشوراء قط فى أيام زياد إلا ويأخذون العطاء ولا رأينا الهلال إلا مشينا إلى دار الرزق فأخذنا الأرزاق لعيالاتنا[٣].

هذا خير ما يؤكد أن العطاء كان يدفع سنوياً فى أوائل شهر محرم وتدفع الأرزاق فى بداية كل شهر من أشهر السنة وقد كان سكان الكوفة يأتون بأنفسهم إلى دار الرزق لاستلام أرزاقهم بعد أن وقع التلاعب فى توزيعها .

لقد شكا الناس إلى زياد نقصان المكاييل التى يرزقون بها فدس من اتبع خدمهم الذين يتولون قبض أرزاقهم لهم فوجدوهم يشترون من أرزاقهم الطير ويلعب به والحلواء فخطب الناس قائلا « إنكم تحملون علينا ذنب أنفسكم فى أرزاقكم يبعث أحدكم خادمه يقبض رزقه فيشترى من رزقه ما اشتهى فتعهدوا وتولوا قبضها بأنفسكم »[٤] .

وقد كانت هذه الأرزاق (الحنطة والشعير) وغيرها تخزن عادة فى دار خاصة بها تسمى (دار الرزق)وقد بناها المسلمون لتكون أول أمرها مخزناً كبيراً لجمع غنائم الحروب[٥].واموال الصدقات قبل توزيعها بين المقاتلة[٦]، وكانت هذه الدار تقع عند رأس جسر الكوفة وكثيراً ما كان أهالى الكوفة

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٢) ابن سلام : الأموال ، ص ٢٤٧ .
(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤٣٦ (مخطوط) .
(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ (مخطوط) .
(٥) البراقى : تاريخ الكوفة ص ١٤٥ .
(٦) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .

يعطون صكوكا يأخذون بها أرزاقهم المخصصة لهم[١].

روانب الموظفين :

لقد كان فى الكوفة عدد كبير من العمال والموظفين يقومون بالأعمال الحكومية المختلفة لتسيير أمور الدولة . وكان هؤلاء العمال، والموظفين يتقاضون رواتب معينة تختلف عن رواتب الجنود . وقد أمر الخليفة عمر بن الخطاب بإعطائهم رواتب معينة تختلف عن رواتب الجنود بعد تدوين الدواوين وتعين أرزاق الجند ، وتختلف هذه الرواتب عادة باختلاف الوظيفة والعمل ، وكانت رواتب الولاة والعمال والقضاة فى قمة هذه الرواتب وأعلاها ، فقد خصص لعمار بن ياسر عند توليته الكوفة راتباً قدره (ستمائة) درهم فى الشهر[٢] . وخصص لعبد الله بن مسعود بعد توليه قضاء الكوفة فى ولاية عمار بن ياسر (مائة درهم) فى الشهر وربع شاه فى اليوم[٣]. كما أجرى عمر بن الخطاب لعثمان بن حنيف (خمسة دراهم) وربع شاه كل يوم عندما أرسله لمسح السواد[٤] (سواد العراق) .

أما بنو أمية فقد نال عمالهم امتيازات كثيرة جداً منحت لهم ترغيباً فى البقاء على ولائهم للبيت الأموى ،

فكان زياد بن أبيه يأخذ (خمسة وعشرين ألف درهم) سنوياً[٥]. وكان يعطى لعماله ألف درهم[٦] .

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٧٧ .

(٢) البراقى : تاريخ الكوفة ص ٢٣٩ ؛ جرجى زيدان : التمدن الاسلامى ج ١ ص ١٣٤ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٠ ، نفس المصدر ج ١ ص ١٣٤ .

(٤) نفس المصدر ص ٢٤٠ ، نفس المصدر ج ١ ص ١٣٤ .

(٥) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ٢٠٩ .

(٦) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ٢٠٩ .

هذا وقد ولى يوسف بن عمر أبو ليلى قضاء الكوفة وأجرى عليه (مائة وخمسون) درهم فى الشهر وقيل (مائتين) درهم[١] .

أما الموظفين الآخرين ولا سيما موظفو الدواوين فكانت لهم رواتب مختلفة كل حسب منصبه ، فكان رؤساء الكتاب مثلا يتقاضون(ثلاثمائة) درهم فى الشهر[٢]. وقد أعطى الحجاج بن يوسف ليزيد بن أبى مسلم فى كل شهر ثلاثمائة درهم حيث قلده ديوان الرسائل[٣].

أما صغار الموظفين من الكتاب فيأخذون رواتب تتراوح بين العشرين درهما والثلاثين والأربعين درهما فى الشهر[٤] .

بيت المال :

لعل أهم المؤسسات الحكومية فى مدينة الكوفة (بيت المال) الذى توضع فيه واردات المدينة من حصتها من الغنائم والجزية والخراج والصدقات وغيرها وتعتبر هذه الواردات ملكا مشتركا للمسلمين فى الكوفة تسجل بسجلات خاصة . ويشرف على بيت المال موظف مسئول سمى صاحب بيت المال يشرف على ما يرد بيت المال من الأموال أو يخرج منه ، ويوقع الموظف على جميع الصكوك التى تدخل أو تخرج من بيت المال لتكون نافذة المفعول[٥].

ونظراً لأهمية هذا الديوان فقد بناه سعد بن أبى وقاص فى الكوفة إلى جانب المسجد ودار الإمارة بعد أن نقب عليه وأخذ منه المال[٦] . وكان

(١) وكيع : أخبار القضاة ج ٣ ص ١٣٠ .
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٦ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٦ .
(٤) نفس المصدر ص ٧٩ .
(٥) آدم متز : الحضارة الاسلامية ج ١ ص ١٢٦ ، ١٢٧ .
(٦) الطبرى ، ج ٣ ص ١٤٨ .

أول من تولى أمر بيت المال فى الكوفة عبد الله بن مسعود[١] .

وكان بيت المال هذا يقوم بواجبات مهمة لعامة المسلمين فى الكوفة فكان يقرض الناس الذين تنزل بهم ضائقة مالية أو تشتد عليهم الأزمات فقام بيت المال مقام البنك الزراعى فى الوقت الحاضر ، فقد أقرض الحجاج الفلاحين من بيت المال مليونى درهم[٢] .

وذكر الطبرى بأن (العرجى) كان غازياً فأصابت الناس مجاعة فقال للتجار اعطوا الناس وعلى ما تعطون فلم يزل يعطيهم ويطعم الناس حتى أخصبوا فبلغ ذلك عشرين ألف دينار فألزمها العرجى نفسه وبلغ الخبر عمر ابن عبد العزيز فقال بيت المال أحق بهذا فقضى التجار ذلك من بيت المال[٣]. وإن بعض التجار كانوا يقترضون منه بعض المبالغ ليشتروا بها بضائع فى مقاطعة ما ثم يدفعون ما اقترضوه إلى بيت مال مقاطعة أخرى، فقد اقترض عبد الله بن عمر من بيت مال البصرة فى عهد أبى موسى الأشعرى مالا اشترى به بضاعة أخذها إلى الحجاز للمتاجرة بها ثم دفع ما اقترضه إلى بيت مال الحجاز[٤] . وتسمى هذه العملية اليوم (بالمقاصة) .

لم يكن الاقتراض من بيت المال هذا قاصراً على عامة المسلمين وإنما كان أمراء الكوفة نفسهم يقترضون منه أيضاً وذكر الطبرى أن سعد بن أبى وقاص عندما تولى الكوفة اقترض من عبد الله بن مسعود صاحب بيت المال مقداراً من المال ليستعين به على قضاء حاجته[٥] . كما اقترض من بيت

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ٣١١ .
(٢) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥ .
(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ١ ص ١٥٢ .
(٤) صالح العلى : التنظيمات فى البصرة ص ٢٥٥ .
(٥) الطبرى ، ج ٣ ص ٣١١ .

مال الكوفة الوليد بن معيط أميرها من عبد الله بن مسعود[١] .

وكان بيت مال الكوفة يقوم بواجبات اجتماعية كثيرة فكان يعطى الأشخاص الذين يرغبون فى الزواج وليس لديهم المال اللازم وذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن « أن أنظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه فكتب إليه إنى قد زوجت كل من وجدت »[٢].

وكانت هناك واجبات أخرى يقوم بها بيت المال فى الكوفة فقد سك النقود فى زمن الحجاج بن يوسف كما أنه قام بتبديل القطع الممسوحة من النقود . كما كان يتولى الإشراف على أموال من ليس له ولى من اليتامى[٣] .

أما واردات بيت المال هذه فتتكون من الخراج والجزية والصدقة والعشور وغيرها وترسل هذه الواردات إلى بيت مال الحجاز بعد أن يأخذ المقاتلة عطائهم وسد نفقات المصر ويجعل فى بيت المال الكوفة مقدار من المال يستخدم فى حالة الطوارىء والنوائب . وخير مثل على ذلك ماعمله زياد فى البصرة فقد ذكر البلاذرى « أن زياد كان يجبىء من كور البصرة ستين ألف ألف (ستون مليون) فيعطى المقاتلة من ذلك ستة وثلاثون ألف ألف ، ويعطى الذرية عشرة ألف ألف وينفق نفقات السلطان ألف ألف ، ويجعل فى بيت المال للبوائق والنوائب ألفى ألف ويحمل إلى معاوية ثلثى الأربعة آلاف ألف لأن جباية الكوفة ثلثى جباية البصرة »[٤] .

وعلى هذا فإن حصة بيت المال المركزى لا ترسل إلا بعد سد نفقات

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٥ ص ٣٠ .

(٢) ابن سلام : الأموال ص ٢٥١ .

(٣) ابن سلام : الأموال ص ٤٥٠ .

(٤) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤٣٦ (مخطوط) .

الكوفة وإعطاء الناس أعطياتهم. هذا وكان إرسال المال إلى بيت مال الخلافة في المدينة قبل إعطـاء الأعطيات يسبب مشاكل كثيرة جداً ولذلك نرى الولاة يراعون هذه الناحية مراعاة تامة، وليس أدل على ذلك من خطبة عبد الله بن مطيع أمير الكوفة فقال «إن أمير المؤمنين بعثني على مصركم وثغوركم وأمرني بجباية فيئكم ولا أحمل شيئاً مما يفضله عنكم إلا أن ترضوا عمل ذلك» [1].

(١) البلاذري : أنساب الأشراف ج ٦ ص ٣٣ (مخطوط) .

الفصل الثالث

مستوى المعيشة فى الكوفة

لقد عاش أهل الكوفة فى رخاء دائم ورغد من العيش . حيث كثرت الأموال عندهم واقتنوا الضياع الواسعة والاقطاعات الكبيرة(1) ،وامتلكوا الدور والقصور واقتنوا العبيد بأعداد كبيرة ، وذكر الأصفهانى أن غلة طلحة كانت كل يوم ألفاً وافياً(2) ، وأن طلحة بن عبيد باع أرضاً له بسبعمائة(3) ألف وملك ابن الزبير ألف مملوك يؤدون الخراج(4) ، ولما توفى خباب بن الأرت (وهو رجل من أهل الكوفة) ترك ثمانين ألف درهم(5) .

يضاف إلى هذا أن خيرات السواد كانت كثيرة جداً فقد زرعوا فيه كل ما يحتاجونه من مواد غذائية كالحنطة والشعير وغيرها حتى أنها كانت أغنى مدن العراق ، فعندما قامت ثورة ابن الأشعث كانت الكوفة مركزاً لتموين الجيوش المقاتلة معه بالأطعمة وغيرها .

وقد ذكر الطبرى فى معرض حديثه عن ثورة ابن الأشعث قال «إن أهل العراق تأتيهم مواردهم من الكوفة ومن سوادها فهم فيما شاءوا من خصبهم

---

(1) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٣ .
(2) الأصفهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ٨٩ .
(3) الأصفهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ٨٩ .
(4) الأصفهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ٩٠ .
(5) الأصفهانى : حلية الأولياء جـ ١ ص ١٤٥ .

وإخوانهم من أهل البصرة وأهل الشام فى ضيق شديد قد غلت الأسعار وقل عندهم الطعام وفقدوا اللحم وكانوا كأنهم فى حصار »[١] .

وقد وصف المقدسى الكوفة فقال : « هى كثيرة الخيرات حولها نخيل وبساتين ولهم حياض وقنى »[٢] .

وعلى هذا الأساس لم تكن الكوفة من أغنى مدن العراق فحسب وإنما كانت مصدراً لرخاء العراق ومورداً كبيراً لثروته .

وعلى ضوء هذه الحياة التى عاشها الكوفيون نستطيع أن نقدر أسعار الحاجات والسلع التى كانت تستهلك فى ذلك العصر ونريد أن نسأل هل أثر ارتفاع مستوى المعيشة الذى أشرنا إليه فى أسعار السلع بأسواق الكوفة ؟

فى الحقيقة من الصعوبة بمكان أن نحيط بأسعار ما كان يباع فيها إحاطة تامة . وإنما نستطيع أن نعطى صورة تقريبية لهذه الأسعار على ضوء النصوص القليلة التى بين أيدينا . لقد كانت الدولة توزع على سكان الكوفة بعض المواد الضرورية كالحنطة والشعير وغيرها[٣] . ولهذا خلت كتب التاريخ من الاشارة إلى أسعار هذه المواد ، ولم نجد إلا إشارة واحدة إلى أن العراق مر بأزمة إقتصادية لم يمر بمثلها من قبل فى أيام هشام ابن عبد الملك . قال المسعودى : « فقل الأفضال وانقطع الرفد ولم ير زمان أصعب من زمانه »[٤] ولعل هذه الأزمة أدت إلى ارتفاع أسعار المواد الغذائية لفترة مؤقتة .

---

(١) الطبرى ، ج ٨ ص ١٧ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١١٦ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف حـ ٧ ص ٤١٨ (مخطوط) .

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٣٩ .

وإن كانت هذه الحالة لا تعطينا صورة واضحة عن أسعار هذه المواد ، فقد كانت حالة طارئة وفى ظرف معين شاذ .

أما الملابس فلم يكن لها سعر ثابت وإنما اختلفت أسعارها تبعاً للمواد المصنوعة منه . فالملابس العادية كانت رخيصة جداً فنرى مثلا أن على بن أبى طالب اشترى قميصاً من أسواق الكوفة بثلاث دراهم(١) وأن حسن البصرى لبس ثوباً بستة دراهم(٢) . واشترى عمر بن عبد العزيز ثوباً بستة عشر درهماً(٣) . وأن هناك قصاناً أخرى كانت تتراوح أسعارها بين الثلاثين والأربعين درهم(٤) .

أما ملابس الطبقة الأرستقراطية الفاخرة فهى غالية الثمن بلا شك فنجد قميص الطيلسان يبلغ سعره مائة درهم(٥) والبرد اليمانى يبلغ سعرها مائة درهم(٦) . وسعر « الخف » تسع دراهم(٧) .

أما الأسلحة فكانت وفيرة فى أسواق الكوفة ، وكانت أسعارها تختلف باختلاف نوع الحديد ومكان الصنع وجودة الصناعة .

---

(١) الأصفهانى : حلية الأولياء ج ١ ص ٨٣ .

(٢) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٢٥١ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٣٨ (مخطوط) .

(٤) وكيع : أخبار القضاة ج ٣ ص ١١٢ .

(٥) نفس المرجع والصفحة .

(٦) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٣ قسم ١ ص ٣١ .

(٧) التنوخى : المستجاد من فعلات الأجواد ص ١٠٧ .

وذكر أن شخصاً اشترى من أسواق الكوفة سيفاً بألف درهم[١] .

أما أسعار الدور وأثمانها فتختلف أيضاً بالنسبة لسعتها وموقعها ومواد البناء التي بنيت بها ، فقد اشترى عبدالله بن عامر من خالد بن عقبة بن أبي معيط داره في سوق الكوفة بتسعين ألف درهم[٢] .

أما أسعار الدواب فانها كانت تتوقف على نوعها وحجمها وعمرها ويمكن أن نعرف مستوى أسعارها من الدية التي حددها[٣] عمر بألف دينار . . أو اثني عشر ألف درهم أو مائة من الإبل أو مائتين من البقر أو ألفين من الشاة[٤].ومن هذا يبدو أن سعر البعير كان مائة وعشرون درهما والبقرة ستون درهما والشاة ستة دراهم[٥] .

أما العبيد فان أسعارهم كانت تختلف باختلاف اللون والجنس والسن وبما يجيده من حرفة أو صناعة أو إجادته للشعر أو الأدب أو غيرها[٦] .

وقد ذكر وكيع أن أحد العبيد بيع في الكوفة بألف وأربعمائة درهم[٧]، واشترى شريح (قاضي الكوفة) عبدين بألف درهم وجارية من السوق[٨] بتسعمائة درهم[٩] .

---

(١) المبرد : الكامل ج ٣ ص ٩٣٠ .

(٢) التنوخي : المستجاد من فعلات الأجواد ص ١٧ .

(٣) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ١٥٤ .

(٤) ابن حنبل : المسند ص ٣٢٧ ؛ أبو حنيفة : المسانيد ج ٣ ص ١٧٩ ؛ صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ص ١٥٤ .

(٥) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية في البصرة ص ١٥٤ .

(٦) الأصفهاني : الأغاني ج ١ ص ١٢٩ .

(٧) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٨) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٧٢ .

(٩) وكيع : أخبار القضاة ج ٢ ص ٢٣٣ .

وقد ذكر أن تحديد أسعار العبيد يمكن استنتاجه من الفدية التى حددها عمر بن الخطاب لتحرير المسترقين من العرب[١] .

لهذا نرجح أن ارتفاع مستوى المعيشة فى الكوفة أدى إلى ارتفاع أسعار السلع فيها ربما عن غيرها من الأمصار الأخرى .

لهذا كانت الحكومة فى الكوفة حريصة كل الحرص على التدخل فى بيع السلع عاملة على تثبيت اسعارها حائلة دون ارتفاعها ، وقد اتبعت الدولة مبدأ حرية التجارة فلم تقيد نقل السلع بين مختلف مقاطعات الدولة الإسلامية ، ولم تحتكر تجارة أى بضاعة أو تمنع مبادلتها ، ولا ريب أن هذه السياسة أتاحت لبعض الأشخاص فرصة احتكار بعض السلع غير أن احتكارتهم كانت فى الغالب محلية ومؤقتة وفردية لاتدعمها الحكومة لذلك لم يكن لها تأثير كبير فى الأسعار ، والحق أن الناس كانوا ينظرون لمثل هذه الاحتكارات الفردية بشىء من النفور والريبة لكثرة الأحاديث المروية عن الرسول فى ذم الاحتكارات[٢] . وقد اتخذت الدولة بعض التدابير والإجراءات التى من شأنها أن تؤثر فى تحديد الأسعار بطريقة غير مباشرة ، فكانت مثلا تجبى ضرائبها من الزرع بالنقد والعين وبهذا تخفف عن كاهل الفلاحين بعض الأعباء فلا يضطرون إلى بيعها بأسعار رخيصة لتسديد الضرائب وبما إن ضرائب الدولة ثابتة فكان هذا يؤدى إلى ثبات الأسعار نسبياً . ثم أن الدولة كانت تدفع إلى المقاتلة وعيالاتهم مقداراً معيناً ثابتاً من العطاء كان من شأنه أن يحدد القوة الشرائية لهؤلاء المقاتلة والعرب المستهلكين . كما أن الحكومة كانت توزع عليهم مجاناً القمح والشعير مما ضيق مجال التلاعب فى أسعار المواد الضرورية

---

(١) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ١٥٦ .

(٢) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ١٥١ .

للمعيشة[١] .

إن الثراء الفاحش والمال الوفير الذى امتلكته الطبقة الغنية فى الكوفة والفراغ والشباب الذى توفر لهذه الطبقة ليفسر لنا بعض الظواهر الاجتماعية التى أشرنا إليها ، فقد أدى ذلك إلى أن تنزلق الارستقراطية فى طريق اللهو والمجون بالصورة التى بيناها ، ومن هنا ندرك كيف يستطيع المستوى الاقتصادى أن يؤثر فى الحياة الاجتماعية تأثيراً واضحاً .

---

(١) صالح العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة ص ١٥٢ .

الباب الخامس

مدينة الكوفة والمجتمع العراقى

١ ــ أثر الكوفيين فى الحياة السياسية .

٢ ــ أثر الحركات السياسية فى الوضع الاجتماعى والاقتصادى .

٣ ــ الحياة الأدبية فى الكوفة .

٤ ــ الصلات بين الكوفة والأمصار الاسلامية الأخرى .

الفصل الأول

أثر الكوفة فى الحياة السياسية

تمهيد :

لم يكن من المعقول أن تنتهى هـــذه الدراسة العمرانية والاجتماعية والاقتصادية دون أن نبين الدور الكبير الذى لعبته الكوفة كمدينة ولعبه الكوفيون كشعب فى حياة العراق فى القرن الأول الهجرى ، فقدكانت هذه المدينةحاضرة العراق وقلبهالنابض تنطلق منها التأثيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية فتؤثر فى العراق كله بل لقد امتد أثرها إلى العالم الإسلامى كله وقد تركت الأوضاع السياسية فى الكوفة خاصة وفى العراق عامة أثرها البارز فى الاتجاهات الاجتماعية والاقتصادية .

الكوفيون والفتوحات :

كان مجتمع الكوفة فى الحقيقة من أهم المجتمعات المدنية فى تاريخ العرب وقد أثر فى الحياة الإسلامية فى العصر الأموى وتأثر بها ، فمن قبيل هذا التأثير ما قام به الكوفيون من دور هام فى الفتوحات الإسلامية .

لقد قلنا سابقاً أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما أمر ببناء الكوفة مدينة للجيوش الإسلامية المقاتلة فى العراق أرادها أن تكون « قيروانا يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار »[1]. كما أرادها أيضاً أن تكون على طرف

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٤ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٤٥ .

الصحراء لا يفصل بينها وبين العاصمة نهر أو جسر[1] . لتكون على اتصال دائم مع العاصمة .

ولذلك بنيت الكوفة لتكون معسكراً تتجمع فيه الجيوش الإسلامية المقاتلة ومركزاً لتموين الجيوش وإمدادها بالمساعدات ولا سيما الجيوش المقاتلة فى الساحة الشرقية ، كما أنها كانت مركزاً لحماية ثغورها من الغارات التى قد تشنها الجيوش الفارسية . ولهذا أصبحت الكوفة قاعدة عسكرية ضخمة لانطلاق الجيوش الإسلامية نحو الشرق . وقدشهدت الساحة الشرقية للفتوحات الاسلامية معارك طاحنه وبطولات رائعة خاضها الكوفيون بكل بسالة وشجاعة وصبر وضربوا لنا مثالا رائعاً فى التضحية والفداء فى سبيل المبادىء والقيم الإنسانية والمثل العليا التى نادى بها الاسلام .

لقد كان للكوفيين فضل كبير فى فتح الأقاليم الشرقية إذ قل أن تجد معركة من المعارك إلا وللكوفيين فيها النصيب الأوفى والحظ الأكبر فضلا عن أن أكثر المعارك فى الشرق اقتصرت عليهم وحدهم .

وفى خلافة عمر بن الخطاب كانت بداية انطلاق الكوفيين نحو الفتح فى أطراف العراق وخارجه. فخرجت منها ثلاثة جيوش ذهب الجيش الأول منها بقيادة سهيل بن عدى لفتح (الرقة) والجيش الثانى قاده عبد الله بن عتبان لفتح (نصيبين) والجيش الثالث قاده الوليد بن عتبة لإخضاع عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ[2] .

ولما أراد عتبة بن غزوان أمير البصرة أن يفتح الأهواز طلب المساعدة من سعد بن أبى وقاص أمير الكوفة فأمده بجيش من أهلها واستطاع الجيشان (من الكوفة والبصرة) أن يفتحا الأهواز . كما أرسل سعد بن أبى وقاص

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٤ ؛ الطبرى ج ٣ ص ١٤٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٢ ص ٤١٤ .

جيشاً من الكوفيين وحدهم لفتح رامهرمز والسوس وتستر ، وقد اشتركت الجيوش البصرية معهم فى فتح (تستر) وفتح نهاوند[١] وقد أراد الخليفة عمر بن الخطاب أن يتوغل فى أكثر من جهة فى الشرق بعد أن استطاع أن يفتح المدن والولايات الواقعة على أطراف العراق ولهذا طلب الخليفة من عامله على الكوفة (بعد أن تم لهم فتح نهاوند) عمار بن ياسر أن يرسل (عروة بن زيد الخيل الطائى) إلى الرى ودستبى فى ثمانية آلاف[٢] .

هذا وقد فتحت قزوين وزنجان على يد الكوفيين عندما ولى المغيرة ابن شعبة إمارة الكوفة[٣] . كما غزا المغيرة بن شعبة اذربيجان من الكوفة سنة ٢٢ هجرية[٤] وفتحها . وفى ولاية الوليد بن معيط فى عهد عثمان غزا بأهل الكوفة الديلم[٥] . ولما جاء سعيد بن العاص لإمارة الكوفة بعد (الوليد بن أبى معيط) غزا الديلم وقزوين فكانت ثغرا لأهل[٦] الكوفة وغزا طبرستان[٧] أيضاً . هذا وقيل أن سلمان بن ربيعة توجه إلى أرمينيا فى خلافة عثمان بجيش من أهل الكوفة لأمداد حبيب بن مسلمة الفهرى[٨] وفى سنة ٣٢ هجرية توغل عبد الرحمن بن ربيعة الباهلى فى بلاد الخزر حتى وصل (بلنجر) وهى أكبر مدنهم ثم ذهبت فرقة من الكوفيين إلى جيلان وجرجان[٩] .

ولكن هذه المدن التى خضعت للمسلمين ما لبثت أن نقضت العهد وثار

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٠٠ .
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١٣ .
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١٧ .
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٢ .
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦١٨ .
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣١٨ .
(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٣٠ .
(٨) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٩٨ .
(٩) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٣٠ .

قسم كبير منها ، فما كان من جيوش الكوفيين إلا أن عادت إليهم مرة أخرى وأرغمتهم على الطاعة والخضوع ،وفى إمارة الوليد بن عتبة للكوفة انتفضت أذربيجان وامتنعت عن دفع ما كان قد صالحت عليه فغزاها الوليد بجيش من الكوفيين وأرغمها على أن تؤدى ما كانت قد صولحت عليه[١] .

ووزعت حاميات من أهل الكوفة فى بعض الأمصار لحمايتها وبسط نفوذ المسلمين عليها ، فأسكن الأشعث بن قيس فى أذربيجان أناساً من عرب الكوفة عندما نقضت عهد المسلمين[٢]. وأنزل الأشعث جماعة من أهل العطاء والديوان من أهل الكوفة مدينة أردبيل[٣] .

ولم تقتصر بطولات أهل الكوفة على الشرق وساحاته وإنما كان لهم مع الروم دوراً كبيراً ، فقد أرسل الخليفة عثمان إلى الوليد بن أبى معيط ، عامل الكوفة يومها يأمره أن يمد المسلمين فى قتالهم مع الروم من أهل الكوفة[٤] ، فسير لهم جيشاً كبيراً بلغ ثمانية آلاف .

أما فى عهد بنى أمية ، فكان الكوفيون سلاحا ماضياً فتا كا بيد الحكام الأمويين يرمون الثوار بهم فسرعان ما كانت تخمد هذه الثورات بقسوة وقوة بطشهم ، وقد نقل زياد بن أبية خمسين الفاً وعيالاتهم من أهل البصرة والكوفة إلى خرسان[٥] موطن الثورات ومركز المعارضة ضد الامويون . كما أراد تعريب خراسان بهم وجعل العناصر العربية غالبة .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٣ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٤ .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٢٤ .

(٤) الطبرى ، ج ٥ ص ٤٦ .

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٠٠ .

ومن هذا نستنتج أن جيوش الكوفيين كانت الطليعة الثورية فى سبيل نشر الإسلام فى ربوع واسعة من العالم .

وعلى هذا قدر الخليفة عمر بن الخطاب جهاد الكوفيين فى الفتوحات وتضحياتهم ودورهم الطليعى . واعترافاً منه بالجميل والعرفان لهم قال « الكوفة جمجمة الإسلام وكنز الإيمان وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء وأيم والله ينصرن الله بأهلها فى مشارق الارض ومغاربها »[1] يحرزون ثغورهم ويمدون أهل الأمصار[2] .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ س ١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان س ٢٨٧ .

الفصل الثانى

أهل الكوفة وفتنة عثمان

قد يكون غريباً أن نذكر أن التركيب الاجتماعى للكوفة حدد لها دورها فى الحياة السياسية ، ذلك أن الهجرة إليها قد جلبت أناساً مختلفين فيما بينهم اختلافاً كبيراً فى عقائدهم ومدنياتهم فمنهم البدوى والحضرى ومنهم اليهودى والمسيحى ومنهم العربى والفارسى .

إن هذا الخلط بين الناس أثر فى أخلاق أهلها وعاداتهم وطبائعهم . وقد ظهر ذلك فى وصف حذيفة بن اليمان لهم فى خطاب له قائلا « يا معشر أهل الكوفة أنكم أول ما مررت بنا كنتم خيار الناس فغيرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خلال أربع : بخل ، وخب ، وغدر ، وضيق ، ولم تكن فيكم واحدة منهن ، فنظرت فى ذلك فإذا ذلك فى مولديكم فعملت من أين أتى . فإذا الخب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الأهواز »[1] .

وهذا الاختلاط أدى إلى تكوين مجتمع عجيب فى قيمه وأخلاقه وصفاته ، بل أدى هذا التزاوج بين هذه الأهواء المتنافرة والصفات المتناثرة إلى أن أصبحت مدينة الكوفة موطناً للشغب ومسرحاً للفتن والاضطراب .

فوقف أهلها من الحكم — أياً كان الحكم — وقفة الناقد المتربص يحصى كل زلة وكل خطيئة مهما كانت صغيرة وتافهة الأمر الذى جعلهم يهزئون بسياسة الولاة ولا يرضون عن أمير أو والى بل تجرأوا عليهم واتهموهم بالضعف تارة وبالفسق والفجور تارة أخرى ، فقداتهموا سعد بن أبى وقاص

---

(١) الطبرى ، ج ٣ ص ٢٢٠ .

بأنه ضعيف لا يحسن الصلاة لطيبته وتساحه مع المسلمين ، واتهموا المغيرة ابن شعبة والوليد بن معيط بالفسق والفجور وشرب الخمر لموقفهما القوى الحازم من أهل الكوفة حتى أن الخليفة عمر بن الخطاب وهو الحريص على وحدة العرب وقوتهم ، غضب من أهل الكوفة غضباً شديداً وتبرم بنفاقهم وشغبهم .

كتب أهل الكوفة إلى عمر عن سعد بن أبى وقاص يتهمونه بأنه لا يحسن الصلاة فعزله [١] .

وأشار اليعقوبى بأن « ولى عمر بن الخطاب مكان سعد عمار بن ياسر ، ثم قدم أهل الكوفة فقال كيف خلفتم عمار بن ياسر أميركم ، قالوا مسلم ضعيف فعزله ... وولى مكانه المغيرة بن شعبة ، فسألهم عن المغيرة فقالوا أنت أعلم به وبفسقه فقال ما لقيت منكم يا أهل الكوفة أن وليتكم مسلماً تقياً قلتم هو ضعيف ، وإن وليتكم مجرماً قلتم هو فاسق »[٢].

كما تهموا عمار بن ياسر بأنه ليس بأمير ولا يحتمل ما هو فيه[٣] . وقد نال الوالى سعيد بن العاص من أهل الكوفة ما لم ينله أمير من قبل « فقد اعتدوا بالضرب الشديد على صاحب شرطته حتى غشى عليه وهو جالس فى مجلس الأمير سعيد بن العاص»[٤] .

وقد تنبه سعيد بن العاص لهذا الخطر الداهم فكتب إلى عثمان يقول « أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة والغالب على تلك البلاد روادف وأعراب لحقت حتى ما ينظر

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٧ .
(٢) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٣٣ .
(٣) الطبرى : ج ٤ ص ٢٦٢ .
(٤) الطبرى : ج ٣ ص ٢٦١ ؛ ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٨٧ ؛ طه حسين : الفتنة الكبرى ج ١ ص ١١٠ .

إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها ، فكتب إليه عثمان . أما بعد ففضل اهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وتتبين من نزلها بسببهم تبعاً لهم .. واحفظ لكل منزلته وأعطهم جميعاً بقسطهم من الحق »[1] .

ولكن عثمان لم يكن مقدراً خطورة الحالة فى الكوفة وإنما اعتبرها حالة عارضة ونزوة طارئة لا تلبث أن تزول ، ولذلك أخفق فى إيجاد العلاج اللازم لهذا الوضع الخطير ، مما أدى إلى أن تستشرى هذه الحالة حتى وصلت إلى حدود فاقت تصور عثمان وتخيلاته . ولم يقتصر نقد الكوفيين على الولاة وإظهار مثالبهم وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك حين أخذوا ينتقدون الخليفة عثمان نفسه ويحرضون أهل الأمصار بالثورة عليه وعلى حكمه وأرسلوا الرسائل والكتب إليهم يقولون لهم فيها « إن أردتم الجهاد فمكانه عندنا فى المدينة وجاء الجواب من الكوفة أولا »[2] فلم تلبث الأمصار أن اتبعتها وصارت الكوفة مركزاً لقيادة المقاتلة ضد الحكومة .

ولم يقف ثوار الكوفة عند هذا الحد وإنما قادوا حملة المقاومة هذه متوجهين إلى المدينة وتبعهم أهل البصرة وأهل مصر[3] متظاهرين (بالعمرة) وما أن وصلوا المدينة حتى أعلنوا أنهم يريدون مناقشة عثمان فى سياسته وسياسة عماله الجائرة ، وقد تنبه عثمان إلى شرر الثورة المتطاير فوعدهم خيراً وكتب لأهل الامصار « أن قد رفع إلى أهل المدينة أن عمالى وقع منهم إضرار بالناس ، وقد أخذتهم بأن يوافونى فى كل موسم فمن كان له حق فليحضر يأخذه بحقه منه أو من عمالى »[4] . ولكن بطانة السوء من أقربائه

---

(١) الطبرى : ج ٥ ص ٦٣ .

(٢) ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها ص ٤٢ .

(٣) ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٩٣ .

(٤) ابن خلدون : التاريخ ج ٢ ص ٣٩١ .

التى استأثرت بالحكم كانت حجر عثرة فى طريق الإصلاح فأفسدوا عليه الأمر حتى جعلوه ينكث ما وعد به ، فمرت الأيام والشهور دون أن يعزل عثمان عاملا من أقربائه أو يحاسبهم .

وعلى هذا قرر ثوار الكوفة والأمصار الأخرى أن يتوجهوا إلى المدينة ولما وصلوا اليها حاصروا دار عثمان ثم قتلوه على الرغم من دفاع كثيرين من الصحابة عنه ولا سيما على بن أبى طالب وأبنائه .

* * *

الامام على وأهل الكوفة :

وقع الثوار فى حيرة من أمرهم بعد أن قتلوا الخليفة عثمان وكانوا يعلمون أن لا بد من إمام يبايع فى أسرع وقت قبل أن يستبد ولاة عثمان ويستقلوا فى الأمصار ويرسل معاوية بن أبى سفيان - أقوى ولاته - إلى المدينة جنده ليخضعها ويعاقب الثائرين على ما قاموا به .

فعرض المهاجرون والأنصار يؤيدهم الثوار على الإمام على الإمامة ، وألحوا عليه فى قبولها وهم يبايعونه كما بايعوا الخلفاء من قبله وحاول الإمام على الامتناع فلم يستطع لكثرة إلحاحهم عليه . فجلس على منبر النبى كما جلس الخلافاء الثلاث من قبله وأخذ البيعة .

وقد حاول الإمام على إزالة أسباب الفتنة التى أدت إلى قتل الخليفة عثمان فعمل أول ما عمل على عزل عمال عثمان وولاته وكان معظمهم من أقاربه وعشيرته . ولم يقبل نصيحة ابن عباس ولا المغيرة بن شعبة فى إقرار معاوية وابن عامر وعمال عثمان على أعمالهم حتى تأتيه بيعتهم ويسكن الناس وتستقيم الأمور ثم يعزل منهم من يشاء وقال : « لا أداهن فى دينى ولا أعطى الدنية فى أمرى » فقيل له اخلع من شئت واترك معاوية فإن فى معاوية

جرأة وهو فى أهل الشام يستمع منه وله حجة فى إثباته بما كان من عمر ابن الخطاب إذ قد ولاه الشام وقال له لااستعمل معاوية يومين . وكان دينه يمنعه من ذلك لأنه كثيراً ما لام عثمان على توليته هؤلاء العمال ، وكثيراً ما أنكر على هؤلاء العمال سياستهم فى الناس .

كان اختيار العمال على الأمصار أول ما فكر فيه الإمام على بعد أن فرغ من بيعة أهل المدينة وبعثهم إلى أعمالهم بعد أن اختارهم اختياراً حسناً . وقد أقر الإمام على أبى موسى الأشعرى على الكوفة . وقد رد معاوية العامل الذى ولاه على الشام . وقد بالغ على فى التدقيق فى محاسبة عماله وولاته حتى غضب أكثرهم وخسر نصرتهم ومنهم عبد الله بن عباس بعد أن كان من أكبر أنصاره . وجرت مكاتبات طويلة بين الإمام على ومعاوية اتهم معاوية فيها على بالتحريض على مقتل عثمان وتصميمه على الأخذ بثأره منه .

لقد أرسل أهل الكوفة الرسل يطلبون من الإمام على القدوم إليهم وكان مالك بن الأشتر زعيم الكوفة رسولهم إليه يطالبه القدوم إلى الكوفة قائلا : « يا أمير المؤمنين إنا والله لم نكن من المهاجرين والأنصار فإنا من التابعين بالإحسان وأن القوم وإن كانوا أولى بما سبقونا إليه فليسوا بأولى بما شركناهم فيه وهذه بيعة عامة والخارج منها طاعن مستعيب فبعض هؤلاء الذين يريدون التخلف عنك باللسان فأبو فأدبهم بالحبس »[1] .

وعلى هذا قرر الإمام على الذهاب إلى الكوفة وعارضه أهل المدينة وأشاروا عليه بعدم الذهاب إلى العراق فقال لهم : « إن الأموال والرجال فى

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٥٢ .

العراق ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريباً منها »[1] . وجاء الإمام على الكوفة واتخذها عاصمة له ومركزاً لشيعته وصارت مركزاً لمعارضة الحكم الأموى وظلت على معارضتها لهم حتى زوال حكمهم .

وما كاد الإمام على ينتقل إلى الكوفة حتى خرج عليه ثلاثة من كبار الصحابة هم طلحة والزبير اللذان أدعيا أنهما بايعا على على كره منهما وعائشة أم المؤمنين زوجة النبي التى كانت تكره علياً . وقاد الثلاثة تمردهم على على فى جزيرة العرب وراسلوا أهل البصرة فى الإنضمام إليهم فى المطالبة بدم عثمان وكان لهم بها صنائع وأعوان ولأهلها حب لطلحة وذهبوا إلى البصرة واستولوا عليها سنة ٣٦ ﻫ فخرج إليهم على من الكوفة ، وقاد أعداداً غفيرة من الكوفيين وانتصر بهم على البصريين فى معركة حاسمة عرفت « بواقعة الجمل » قرب البصرة فى جمادى الثانية سنة ٣٦ ﻫ . قتل فيها طلحة والزبير وعقر جمل عائشة ثم أرجعها على مكرمة معززة إلى مكة بصحبة أخيها محمد بن أبى بكر وأربعة عشرة امرأة من أهل البصرة ، وأما الإمام على فقد أخذ البيعة لنفسه من أهل البصرة وانتظم له أمر العراق والحرمين ومصر واليمن وخراسان وفارس .

كتب الإمام على إلى معاوية — بعد أن استتب له أمر العراق — بالبيعة والطاعة فأبى ذلك ، وادعى أن علياً حرض على قتل الخليفة الشرعى عثمان ولا زال يحمى الثوار ولا يمكن الاعتراف به حتى يسحق دعاة الفوضى . وعلى هذا أخذ معاوية يحرض أهل الشام على قتال على بحكم أنه ابن عم الخليفة المقتول الذى يقع عليه عبء الثأر دون سواه وقد علق معاوية قميص عثمان ملطخاً بالدماء وأصابع زوجته نائلة على منبر مسجد دمشق فالتف حوله أهل الشام وناصروه على الانتقام والأخذ بالثأر وخرج بهم لملاقاة جيش على الزاحف

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص ١٥٢ .

نحوه ومعه أهل العراق وهم دون أهل الشام طواعية للنظام وأقلهم ولاء وعطاء وثباتاً على العهد وأكثرهم غدر وخذلان ، وقد التقى الجيشان فى سهل صفين غرب نهر الفرات سنة ٣٧ هـ وجرت معارك عدة حامية قتل فيها الألوف من جيش معاوية وكاد على أن ينتصر على معاوية ، ولما أيقن معاوية أن النصر بات عنه بعيداً لجأ إلى نصيحة عمرو بن العاص برفع المصاحف على أسنة الرماح للاحتكام إليها وعرف على بالخديعة وطلب من جنده مواصلة القتال ولكن فريقاً منهم قد انخدع بهذه الخدعة ووافق على أن يكون القران هو الحكم ونزولا على إرادة الأكثرية من جنده قبل على التحكيم واختار أنصار على أبا موسى الأشعرى وكان يريد على ابن عمه عبد الله بن عباس على حين اختار معاوية عمرو بن العاص وحدد نهاية شهر رمضان سنة ٣٧ هـ . موعداً للتحكيم « بدومة الجندل » ورجع معاوية بجنده إلى الشام وعلى إلى الكوفة فدخلها بقسم من جنده أما الفريق الآخر فتخلف بظاهر الكوفة فى مكان اسمه النخيلة واعتزلوا عنه وسموا بالخوارج (لخروجهم على مبدأ التحكيم) لأنهم اعتبروا قبول التحكيم معناه أن على شك فى خلافته التى هى وديعة من الله .

وفى نهاية شهر رمضان سنة ٣٧ هـ اجتمع الحكمان أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص «بدومة الجندل» واتفقا معاً على خلع على ومعاوية وترك أمر الخلافة بين المسلمين . وخرجا إلى مكان الاجتماع لإعلان قرارهم على الناس وصعد أبو موسى الأشعرى المنبر وأعلن خلع على ومعاوية ثم تبعه عمرو فأعلن خلع على وتثبيت صاحبه معاوية . وحينئذ أدرك أبو موسى الأشعرى غدر عمرو بن العاص .

ومما لاشك فيه أن هذا القرار أصلا أكثر إجحافاً بعلى منه بمعاوية لأنه أفقد علياً الخلافة ولم يفقد معاوية شيئاً كما أن هذا القرار زاد فى فرقة المسلمين واختلافهم بإثارة الجدول والمناقشة من جديد فيمن يتولى الخلافة أوحول

أحقية علي أو معاوية بالخلافة . وقد أدت نتيجة التحكيم إلى اعتزال عدد من المسلمين علياً والتحاقهم بالخوارج وكانوا يقولون « لاحكم إلا الله » .

وعلى هذا فقد عزم الإمام عليّ على إعداد جيش قوى لمواجهة معاوية ، وقد حاول قبل ذلك أن يوحد أهل العراق قبل ملاقاته معاوية ولكن سرعان ماظهرت طبيعة الكوفيين فخذلوه وتقاعسوا عن نصرته ، فحاول أن يجمع كلمتهم على شيء فلم يوفق حتى ملهم ويئس من إصلاحهم ، وليس أدل على ذلك من قوله فى خطبة له « أيها الناس المجتمعة أبدانهم المختلفة أهواؤهم . كلامكم يوهي الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . . أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العد بكم »[1] .

ثم يقول أيضاً « لقد أصبحتم غرضاً ترمون ولا ترمون ويغار عليكم ولا تغيرون ويعصى الله عز وجل منكم وترضون .. يا أشباه الرجال ولا رجال حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال »[2] .

أما معاوية فكان أهل الشام جميعاً فى طاعته استطاع أن يخلق منهم جيش قوى متماسك تحت قيادته يؤمن إيماناً عميقاً بسلامة قضيته . وأخذ معاوية يبعث الغارات على ولايات علي ولا يستطيع علي أن يرد هذه الغارات أو يعمل شيئاً ودانت لمعاوية أخيراً مكة والمدينة واليمن ثم مصر اخيراً وقد دانت الخلافة لمعاوية بعد أن اغتيل الامام علي صباح يوم ١٧ رمضان وهو يصلي الفجر سنة ٤٠هـ — ٥٦٠ م على أثر طعنة مسمومة من عبد الرحمن ملجم[3] .

---

(١) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٥٢ — ٧٥٣ .

(٢) ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج ١ ص ١٤١ ؛ المبرد : الكامل ج ١ ص ٢١ ؛ الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٤٩ .

(٣) الطبرى : ج ٦ ص ٨٤ ؛ المسعودى : التنبيه والإشراف ص ٢٥٧ ؛ اليعقوبى : لتاريخ ج ٢ ص ١٨٨ .

الخوارج :

سرعان ما وجد الخوارج فى طبيعة الكوفيين ما وافق هواهم بعد خذلهم للإمام على وتقاعسهم عن نصرته وكان أكثر الخوارج من عرب الجزيرة البدو الذين استوطنوا الكوفة والبصرة بعد فتح العراق حيث لم تستطع الحياة المدنية أن تؤثر فى طباعهم وأخلاقهم البدوية[١] . وأهم هذه القبائل (بنو تميم ، والأزد ، وربيعة) ، وهم الذين لم يسلموا يوماً بفضل قريش وبحقها فى الخلافة .

ولقد انحاز هؤلاء الخوارج إلى حوراء فى ناحية الكوفة بعد رجوع على من صفين وكان عددهم حينذاك إثنا عشر ألفاً ، ولذا سموا بالحرورية ، وكان زعيمهم شبث بن ربعى وعبد الله بن الكراء[٢] .

وقد ناجزهم الإمام على بن أبى طالب فاستأمن إليه ابن الكواء مع عشرة من الفرسان ، وانحاز الباقون إلى النهروان ، وأمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبى[٣] ، وقد قاتلهم على بالنهروان فتفرق منهم عدد إلى باقى الأقطار كعمان وكرمان واليمن وغيرها[٤] ، وقد كانت معركة النهروان هذه بعيدة الأثر إذ أنها زادت من سخطهم على السلطان وزادتهم تمسكا بإيمانهم . ولم ينتشر مذهب الخوارج بين عرب الكوفة وحدهم ، بل انضم عدد كبير من موالى الكوفة إلى جيش الخوارج حيث كان جيش على بن أبى طالب يضم عدداً ضخماً من موالى الكوفة فخرج منهم كثيرون وانضموا إلى الخوارج .

قال اليعقوبى « وقد خرجت عصابة من موالى الكوفة وكان أميرهم

---

(١) Nicholson : Literary History of Arabs, p. 208.

(٢) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٢٤ ؛ البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٧.

(٣) البغدادى : الفرق بين الفرق ص ٦٧ — ٦٨ .

(٤) الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ١٢٥ .

أبو على من أهل الكوفة وكانت أول خارجة خرجت من الموالى »[1] .

وقد أكد المبرد وجود الموالى بجيش الخوارج بقوله « عندما انشق بعض الخوارج على قطرى بن الفجاءة انفصل إلى عبد ربه الصغير — وهو من الموالى — أكثر من الشطر وجلهم من الموالى والعجم ، وكان هناك منهم ثمانية آلاف»[2] .

ومن العوامل التى أدت إلى انضمام الموالى إلى الخوارج رغبتهم فى التخلص من الخراج . وقد أشار بن الأثير إلى ذلك فى حديثه عن خروج الخريت زعيم الخوارج وقتاله معقل بن قيس بقوله « واجتمع على الخريت الناجى علوج من أهل الأهواز كثير أرادوا كسر الخراج ، واصوص وطائفة أخرى من العرب ترى رأيه وطمع أهل الخوارج فى كسره فكسروه وأخرجوا سهل بن حنيفة من فارس وكان عاملا لعلى عليها . . وقد رتب الخريت أصحابه فجعل معه من العرب ميمنة ، ومن معه من أهل البلد والعلوج ميسرة ومعهم الأكراد[3] .

على أن بعض الموالى حاربوا الخوارج تحت لواء المهلب بن أبى صفرة[5] وكان أشهر من قاتل الخوارج من الموالى فيروز حصين ومواليه الذين وقفوا إلى جانب المهلب بن أبى صفرة فى الأهواز[6] .

ولم يفتر نشاط الخوارج بالكوفة فى العهد الأموى إنما خلقوا مشكلة مستعصية حاولوا أن يحلوها بالموادعة واللين أولا على يد المغيرة

---

(١) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١١٥١ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٣ ص ٧٠٩ .

(٤) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٦٦ — ١٠٧٨ .

(٥) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١١٠٣ .

ابن شعبة الذى سار فيهم سيرة على ، فكان يقول : « قضى الله ألا تزالون مختلفين وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون »[1] فتغاضى عن الكثير من أعمالهم وا كتفى بالتهديد والوعيد وقد وقف المغيرة فى المسجد خطيباً بعد أن بلغه أن الخوارج يتآمرون عليه فقال « إننى لا أود استعمال العنف ولا أريد أن يعصب الحليم التقى بذنب السفيه الجاهل ، فكفوا أيها الناس سفهائكم قبل أن يشمل البلاد عوامكم وقد ذكر لى أنّ رجالا منكم يريدون أن يظهروا فى المصر بالشقاق والخلاف وأيم الله لا يخرجون فى حى من أحياء العرب فى هذا المصر أبدتهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم »[4] ولكنه اضطر أخيراً أن يجهز لهم جيشاً بلغ ثلاث آلاف[5] . وقد نكبهم فى معارك عدة ولا سيما بعد أن وجد أن التهديد والوعيد سلاحاً لا يجدى .

ولما تولى زياد أمر العراق اشتد فى أمر الخوارج فجعل يستقصى أمورهم ويتتبع أفرادهم أينما كانوا ، وقد قتل زياد من الخوارج وعبس آلافاً كثيرة .

ولم يكن عبيد الله بن زياد أقل قسوة من أبيه فى معاملة الخوارج ، فقد نكل بهم أشد التنكيل حتى امتلأت بهم السجون[3] . ولكن هذا لم يزدهم إلا إصراراً .

هذا ولما تولى الحجاج أمر العراق كانت مشكلة الخوارج الشىء الوحيد الذى أقاقه وشغله عن الفتوحات زمناً طويلا . وقد جهز إليهم جيشاً

---

(١) الطبرى : جـ ٦ ص ١٠٠ .

(٢) نفس المرجع ص ١٠٥ .

(٣) نفس المرجع ص ١٠٨ .

(٤) المبرد : الكامل جـ ٣ ص ١٠٠٤ .

ضخماً بقيادة المهلب بن أبي صفرة وندب إليهم من أهل الكوفة وحثهم على القتال وعاقب كل من تقاعس منهم[١] .

وقد استطاع الخوارج أن يهزموا عدة جيوش وجهها الحجاج إليهم ، ولكنه استطاع أخيراً بقيادة المهلب أن يقضى عليهم قضاء تاماً فى حروب دامت سنين طويلة .

انتشر التشيع فى الكوفة حتى أصبحت من أهم مراكز الدعوة الشيعية فى العالم الإسلامى . وقد اتجه الشيعة بعد قتل المختار إلى الدعوة السرية إذ لم تمكنهم الظروف من المحاربة جهراً على حين غلبت الروح البدوية على الخوارج فناضلوا ضد الأمويين جهاراً على نحو ما رأينا . إذن فإن تحول الشيعة فى الكوفة إلى المقاومة السرية أمراً محتوماً والتزموا بمبدأ التقية الذى يبيح إخفاء وكتمان ما تكنه الصدور من العقائد ، وأصبحوا بذلك أقدر الفرق الإسلامية على العمل فى الخفاء ، ونظمت الدعوة السرية تنظيما دقيقاً ولم يخف على الأمويين ميل الناس الواضح إلى عقيدة الشيعة الذى أفزعهم وأرق نومهم ، فبعث هشام بن عبد الملك إلى واليه يوسف بن عمر يقول : « أما بعد فقد علمت بحال أهل الكوفة فى حبهم أهل هذا البيت ووضعهم إياهم فى غير مواضعهم لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم على ما هو كائن حتى حملوهم من تفريق الجماعة على حال استخفوهم فيها إلى الخروج »[٢] .

وعلى هذا فقد صارت الكوفة معقل من أهم معاقل الثورة ضد بنى أمية طوال العصر الأموى .

---

(١) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١١٢٢ .

(٢) الطبرى ، ج ٢ ص : ٢٦ .

لذا عامل الولاة الأمويين أهل هذه المدينة معاملة قاسية ظلت تئن تحت وطأتها أعواماً طويلة وقد استهل زياد ابن أبية سياسة الإرهاب هذه فقتل وقطع الأيدى وبقر البطون على الظن والشبه ، قال البلاذرى: «كان زياد أول من أشد أمر السلطان وأكد الملك لمعاوية وألزم الناس الطاعة ، وتقدم بالعقوبة وجرد السيف وأخذ بالظنة وعاقبه على الشبهة . . وخافه الناس فى سلطانه خوفاً شديداً فقطع الأيدى وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل »[1] .

ثم جاء عبيد الله بن زياد فلم يكن أقل قسوة عن أبيه . وقد بلغت سياسة الإرهاب الذروة فى عهد الحجاج الذى سام أهل الكوفة سوء العذاب وبدأ يستأصل المعارضة فرداً فرداً ولم تأخذه فى ذلك رحمة ولا شفقة . فأشاع فى المدينة جواً رهيباً من الخوف والفزع لم تشهده الكوفة من قبل حتى قيل إن عدد الأشخاص الذين قتلهم الحجاج صبراً بلغوا مائة وثلاثين ألفاً . ولقد تمثلت هذه السياسة فى انتقامه من أنصار بن الأشعث بعد فشل ثورته .

وكان من الطبيعى أن يتخذ الدعاة العباسيين الكوفة مركزاً لحركة المقاومة السرية فنظموا أنصارهم على شكل خلايا سرية وأخذوا يخططون للثورة على الأمويين . فكانوا يصدرون الأوامر والتعليمات لأنصارهم فى البلاد الاسلامية المختلفة وخاصة خراسان التى كانت سند الثورة المتين . واتخذ أبو سلمة الخلال — زعيم الحركة — الكوفة مقراً لقيادته .

وظل قادة الحركة يبثون دعوتهم ويعبئون صفوف المناصرين لهم من أهل الكوفة والعراق وخراسان على الثورة منتظرين ساعة الخلاص من الحكم الأموى الجائر . ولما سنحت الفرصة أعلنوها ثورة عارمة شملت أقاليم واسعة من الدولة الاسلامية ، فأعلنت الثورة فى خراسان فى ٢٥ رمضان سنة

---

(١) أنساب الأشراف ج ٤ ص ٤٣٣ ، ٣٢٢ (مخطوط) .

١٢٩ هـ بزعامة أبى مسلم الخراسانى الذى عرف كيف يستفيد من ثورات أهـــل خراسان على الأمويين وتذمرهم من سياستهم الجائرة ، ومن الأسباب التى ساعدت أبو مسلم الخراسانى على قيادة هذه الثورة هى : وجود عناصر ناقمة على الحكم مجتمعة فى منطقة خراسان بعيدة كل البعد عن الشام مركز الخلافة . ووجود مجموعة كبيرة من الشيعة الزيدية فيها . يضاف هذا إلى وجود أعداد كبيرة من الموالى الذين يقاسون سوء العذاب من الأمويين بالإضافة إلى الخلافات بين جند الأمويين العرب وبين القبائل اليمانية والقيسية فضلا عن وجود الخراسانيين الأشداء الذين وصفهم الإمام محمد بن على فى إحدى خطبه لدعاة خراسان بقوله « عليكم بخراسان فإن هناك العدد الكثير والجلد الظاهر وهناك صدور سليمة ، وقلوب فارغة ولم تقتسمها الأهواء ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومناكب وكواهل وهامات وأصوات هائلة ولغات فخمة تخرج من أجسام منكرة ، وبعد فإنى أتفاءل إلى المشرق ، ولى مطلع سراج الدنيا ومصباح الخلق »[1] . واتجهت جيوش خراسان إلى العراق بعد أن استولت على العاصمة مرو وعجز الوالى الأموى نصر بن سيار الدفاع عنها ، ودخلت الكوفة سنة ١٣١ هـ وفر منها العامل الأموى ، وسلمت مقاليد الأمور إلى أبى سلمة الخلال وزير آل محمد حتى قدم أبو العباس السفاح فدخل قصر الإمارة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة مائة واثنتين وثلاثين[2] . ثم خرج إلى المسجد واعتلى المنبر وألقى أول خطبة له ثبت فيها حق بنى العباس فى الخلافة فبايعه الناس هناك .

* * *

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٣ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٥ .

الفصل الثالث

أثر الحركات السياسية فى الوضع الاجتماعى والاقتصادى

تأثر المجتمع الكوفى اجتماعياً واقتصادياً بالحركات السياسية والثورات والفتن التى أشرنا إليها تأثيراً كبيراً ، فقد كانت الكوفة كما رأينا مركزاً تجارياً وصناعياً هاماً ، وزراعياً ايضاً .

ومما لاشك فيه أن أوضاعها الاقتصادية قد تأثرت كثيراً بالثورات والفتن كثورة الخوارج وثورة بن الأشعث وغيرها . كما تأثرت بسياسة بعض الولاة الجائرة ، فاضمحلت الزراعة لإهمال الرى وانشغال الفلاحين بالثورات والفتن ، كما تعطلت التجارة وكسدت لفقدان الأمن والطمأنينة فى البلاد وعدم السيطرة على الطرق التجارية وغيرها .

فقد تولى الحجاج أمر الكوفة والحالة الاقتصادية مزدهرة ، وليس أدل على ذلك من قول عبد الملك بن عمر الليثى « بينما نحن بالمسجد الجامع بالكوفة يومئذ ذو حال حسنة يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه إذ أتى آت فقال هذا الحجاج قد قدم أميراً على العراق»[1] . وقد كان حكم الحجاج وبالا على الكوفة ، فقد عالج تمرد أهلها على السلطان الأموى بقسوة متناهية ، فلم يقنع بإخماد أصواتهم بالقوة بل أخذ يستأصل الشر من جذوره ، ولكن أهل الكوفة لم يذعنوا أو يستكينوا لوعوده فقاوموا حكم الحجاج بكل قوة فقامت الثورات الداخلية والفتن نتيجة لسياسة البطش والإرهاب التى سار عليها .

ولما قامت ثورة ابن الأشعث قام لنصرتها عدد كبير من الموالى الذين

---

(١) المبرد : الكامل ج ١ ص ٣٣٣ .

لاقوا كثيراً من ظلم الحجاج وقسوته ، وقد أساء الحجاج إلى الوضع الاقتصادى أبلغ إساءة ، فقد أمر بطرد الموالى الذين اشتركوا فى ثورة ابن الأشعث وحرم عليهم العودة إلى المدن وأجبرهم على الرجوع إلى قراهم وظلوا بعيدين عن الكوفة حتى موت الحجاج فعادوا إليها فى خلافة سليمان بن عبد الملك .

إن هؤلاء الموالى كان لهم النصيب الأوفى فى المجهود الصناعى والزراعى فى الكوفة فلما عوملوا على هذا النحو فقدت الصناعة والزراعة اليد العاملة النشيطة الماهرة ، كما عاقب الحجاج المحرضين على الثورة من العرب بصورة رهيبة فهاجر كثير منهم وتفرقوا فى الآفاق ، وفرض الضرائب الباهظة عليهم فناء تحت وطأتها الذين بقوا فى الكوفة جزاء لهم على تمردهم . وقد ذكر ابن خرداذبة الضائقة الاقتصادية التى عانتها الكوفة فى زمن الحجاج : «أن الخراج انحط عصر الحجاج انحطاطاً لا نظير له لعسفه وخرقه وظلمه»[1] .

كما يضيف ابن عبد ربه إلى ذلك قوله «إن عبد الملك بن مروان قال لعباد بن زياد . . . قدم الحجاج العراق فكسر الخراج وأفسد القلوب»[2]. كما أشار البلاذرى إلى التدهور المالى وانخفاض خراج العراق انخفاضاً كبيراً فقال «وانكسر الخراج فى أيامه فلم يحمل كثير شىء ولم يحمل الحجاج فى جميع العراق إلا خمسة وعشرين ألف ألف درهم» بينما كان الخراج فى عهد عبيد الله ابن زياد (مائة وخمسة وثلاثين) مليون درهم[3] حيث انخفض خراج السواد إلى أربعين ألف ألف درهم أى حوالى أربعين مليون

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ص ١٥ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ح ٥ ص ٨ .

(٣) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ٧ ص ٤٤٤ (مخطوط) ؛ الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٦٧ .

درهم[١].

وسبب ذلك أن مشاريع الري والزراعة فى العراق أهملت فأدى ذلك إلى حدوث الفيضانات نتيجة لبثوق كثيرة لم يهتم الحجاج بسدها . وقيل إن عدم إهتمام الحجاج بذلك كان كرهاً للدهاقين لأنه اتهمهم بالميل إلى ابن الأشعث حين خرج عليه[٢].

ونتيجة لحدوث الفيضانات تكونت البطائح الشاسعة التى غمرت مساحات كبيرة وواسعة من الأراضى الزراعية التى كانت تزرع قبل ذلك وتغل محصولا زراعياً وافراً . ومما يظهر لناسعة (البطائح)[٣] الأراضى المغمورة بالمياه ما ذكره البلاذرى من أن الحجاج طلب من الوليد ثلاثة آلاف درهم لإصلاحها فاستكثرها الوليد[٤].

كما تناقصت واردات الكوفة بسبب هجرة الفلاحين وأهل القرى الذين تركوا قراهم وأراضيهم الزراعية فحرمت هذه الأراضى من الأيدى العاملة. وقد وصلت مشاكل الهجرة إلى الذروة فى زمن الحجاج مما اضطر إلى إصدار أمر بإرجاع من كان له أصل فى القرى إلى قراهم[٥] وأمر أن يختم على يد كل منهم اسم قريته ليعاد إليها[٦].

على أن هذا الإجراء لم يحل الازمة الخانقة بل زادها تعقيداً ، فاضطر

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٠ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩١ .

(٣) البطائح : أراضى زراعية غمرتها مياه الفيضان فكونت سطوح مائية واسعة تسمى الأهوار .

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٢ ؛ قدامه بن جعفر : الخراج ص ٢٤١ .

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٤١٦ ؛ المبرد : الكامل ج ٣ ص ٤٥٠ .

الحجــاج إلى سيطرة على الشئون المـالية والإدارية فأمر بتعريب الدواوين[١] ، كى يستطيع أن يشرف على الشئون المالية والإدارية ومعاقبة المقصرين والمختلسين وقد صادر الحجاج أموال عدد كبير من الموظفين الذين اختلسوا . ومن أخفى ماله كان يلقى أنواعاً بشعة من التعذيب[٢] .

وقام الحجاج بتسليف الزراع من بيت المـال لتخفيف حدة الأزمة التى كانوا يعانونها ، فأقرض الفلاحين مليونى درهم[٣] من بيت المـال ، كما عمد إلى إنقاص العطاء للناس لملافات هذه الأزمة التى أدت إلى إنقاص واردات بيت المـال . ولم يكتف بهذا بل انقص عيار العملة[٤] ، كما فرض الجزية على الموالى بعد إسلامهم[٥] .

وخير مايصور لنا ما نال أهل الكوفة من أذى فى حياتهم الاقتصادية فى عهد الحجاج من أن يزيد بن المهلب أبى أن يقبل ولاية العراق بعد الحجاج قائلا « إن العراق قد أخربها الحجاج وأنا اليوم رجاء أهل العراق ومتى قدمتها واخذت الناس بالخراج وعذبتهم عليه صرت مثل الحجاج »[٦] .

وقد تولى سليمان بن عبد الملك الخلافة والحالة الاقتصادية فى الكوفة خاصة والعراق عامة متدهورة فأراد أن يعالج المشكلة فسمح للموالى بالعودة إلى المدن لكى تستعيد الحياة الاقتصادية سيرتها الأولى ، ولكن الموالى عادوا إلى الكوفة بأخلاق غريبة وصدور انطوت على الحقد والكراهية ،

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٩٨ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٨

(٣) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٥٤

(٥) ابن الأثير : الكامل ج ٤ ص ٧٦

(٦) الطبرى ، ج ٨ ص ١١٣

فلم يعملوا على إزالة هذه الأزمة الاقتصادية او انفراجها وإنما أزادوا الأمر تعقيداً ولما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كان راغباً فى الإصلاح فكتب إلى واليه على الكوفة يقول له « سلام عليك أما بعد فإن أهل الكوفة قد أصابهم بلاء وشدة جور فى احكام الله وسنة خبيثة سنها عليهم عما السوء .. ولا تحمل خرابا على عامر وخذ منه ما أطاق واصلحه حتى يعمر ولا يؤخذ من العامر إلا وظيفة الخراج فى رفق وتسكين لأهل الأرض ولا تأخذون أجور الضرابين ولا هدية النوروز والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفتوح ولا أجور البيوت ولا درهم النكاح ، ولا خراج على من أسلم من أهل الأرض »[1] .

ولم تستطع سياسة عمر بن عبد العزيز أن تصلح المجتمع الكوفى أو تنقذه من التدهور الاقتصادى حيث كان هذا التدهور أعمق مما تصوره الخليفة سليمان وعمر وسار الوضع من سيء إلى أسوأ ، وظل أهل الكوفة يشكون من سوء الأحوال الاقتصادية زمناً طويلا .

لم تكن سياسة الحجاج هى السياسة الوحيدة التى أساءت إلى الوضع الاقتصادى فكانت ثورة الخوارج من الثورات التى أضرت وأثرت على الوضع الاقتصادى تأثيراً بالغاً . فقد دفع تجار الكوفة مبالغ طائلة لتجهيز الجيوش لمقاتلتهم وليس أدل على ذلك من قول المهلب بن أبى صفرة وهو يحرض أهل البصرة على حرب الخوارج « إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم »[2] هذا وقد كثرت غارات الخوارج على الكوفة[3] وسلبوا الناس أموالهم الأمر

---

(١) البلاذرى: أنساب الأشراف جـ ٧ ص ٤٠٧ (مخطوط) ؛ الطبرى جـ ٨ ص ١٣٩ ؛ ابن الأثير : الكامل جـ ٥ ص ٤٤ .

(٢) المبرد : الكامل جـ ٣ ص ١١١٣ .

(٣) الطبرى ، جـ ٧ ص ٣٤٩ .

الذى جعل التجار يحجمون عن جلب البضائع من الخارج كما تعرضت الأسواق[1] والطرق التجارية هى الأخرى إلى النهب والسلب فأدى ذلك إلى عرقلة النشاط التجارى عرقلة تامة ورأس المال حساس سريع الفرار. وقد أشار المبرد إلى ذلك بقوله « لقد قدم من خوارج البصرة إلى الكوفة، فلما خالطوا سوادها وواليها الحرث بن عبد الله القباع فتثاقل عن الخروج وكان جباناً.. والخوارج يعيثون[2] فساداً.

وكان عبث الخوارج على هذا النحو دعى المهلب بن أبى صفرة إلى أن يبعث إلى التجار بعد أن وجد أن بيت المال عاجز عن تجهيز الجيش الذى أعده لمحاربة الخوارج قائلا « إن تجارتكم مذحول قد كسدت عليكم بانقطاع موارد الأهواز وفارس فهلم فبايعونى واخرجوا معى أوفكم انشاء الله حقوقكم فناصروه فأخذ من المال ما يصلح به عسكره »[3].

ولهذا تعاون تجار الكوفة بصورة خاصة مع الدولة تعاوناً كبيراً فى سبيل القضاء على الخوارج فكان منهم عيوناً للدولة يترصدون حركاتهم وسكناتهم ويوافونها بأخبارهم. وقد أشار الطبرى إلى إن رسالة وصلت إلى عروة بن المغيرة والى الكوفة[4] من أحد الدهاقين قال فيها « أن تاجراً من تجار الأنبار من أهل بلادى أتانى فذكر أن شبيب (أمير الخوارج) يريد أن يدخل الكوفة فى أول الشهر »[5].

لم تقتصر أضرار الخوارج على التجارة وحدها، وإنما كان لغاراتهم المتكررة على سواد الكوفة أثرها الكبير فى تدهور الزراعة، فأدت هذه الغارات إلى هرب الفلاحين من القرى وهجرهم الأراضى الزراعية التى ظلت بدون زراعة كما أن هذه الغارات المتكررة على السواد أدت إلى

(١) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٥٤.
(٢) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٩٠ — ١٠٩١.
(٣) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٦٠.
(٤) كان قد ولاه الحجاج بعد أن خرج إلى البصرة لمحاربة الخوارج.
(٥) الطبرى، ج ٧ ص ٢٣٣.

إهمال الحكومة والفلاحين لمشاريع الري فانفجرت البثوق وعجز الناس عن سدها فانتشرت الفيضانات التي غمرت مساحات واسعة من الأراضي الصالحة للزراعة وكونت المستنقعات[1] حول الكوفة التي أثرت بدورها على صحة السكان . وأن هذا كله أدى إلى قلة الواردات وبالتالي كسر الخراج الذي هو عمود الواردات ، وليس أدل على ذلك من قول سعيد بن المجالد حينما وقف خطيبا في أهل الكوفة يحرضهم على قتال الخوارج : «يا أهل الكوفة أنكم قد عجزتم ووهنتم وأغضبتم عليكم أميركم أنتم في طلب هذه الأعاريب العجف منذ شهرين وهم قد خربوا بلادكم وكسروا خراجكم »[2] .

كما وقف الحجاج خطيباً في أهل الكوفة يطلب منهم الدفاع عن أرضهم وبلدهم ومقاومة الخوارج فقال : « أيها الناس والله لتقاتلن عن بلادكم وعن فيئكم »[3] .

هذا وقد استولى الخوارج على خراج الدولة حيث قاموا بجبايته وصرفه على نفقاتهم وحاجاتهم الخاصة دون أن يعطو للدولة شيئاً منه . قال المبرد : « لقد طرد الخوارج عمال السلطان عن الأراضي الزراعية وجبوا الفيء »[4] وقد أقام ابن الماحوز (وهو من الخوارج) يجبي كور الأهواز ثلاثة أشهر فضج الناس إلى الأحنف بن قيس فأتى القباع فقال : « أصلح الله الأمير إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا فلم يبق إلا أن يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزلا »[5].

وقد خطب المهلب بن أبي صفرة في جيشه يحرضه على قتال الخوارج

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٩٢ .

(٢) الطبري ، ج ٧ ص ٢٢٩ .

(٣) الطبري ، ج ٧ ص ٢٤٣ .

(٤) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٣١ .

(٥) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٦٨ .

قائلا : « امثل هؤلاء يغلبونكم على غيثكم »[١] .

كانت بيوت الأموال عرضـــة لنهب الخوارج وسلبهم . فقد ثار الخريت بن راشد من الخوارج (زعيم بنى ناجية فى الكوفة) فى ثلثمائة من قومه فى الكوفة[٢] ثم غادروها فجعلوا لا يمرون ببلد إلا انتهبوا بيت ماله حتى صاروا إلى سيف عمان[٣] . ولم يقتصر ضرر الخوارج على التجارة والزراعة والخراج وإنما تعداها إلى أرواح الناس فكان الخوارج يقتلون من يعترض طريقهم فضلا عن أنهم كانوا يعترضون الناس فى الطرق ويسلبون أموالهم وأمتعتهم حتى ضج الناس فى ذلك فشكوهم إلى الأحنف بن قيس أمير البصرة فجهز لهم جيش لمحاربتهم ، أشار المبرد إلى ذلك قائلا « وأقام نافع فى الأهواز يعترض الناس ويقتل الأطفال فإذا أجيب إلى المقاله جبى الخراج وفشا عماله فى السواد فارتاع لذلك أهل البصرة فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليه ، وقالوا ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان وسيرتهم ما ترى ، فقال الأحنف إن فعلتهم فى مصركم — إن ظفروا به — كفعلهم فى سوادكم فجدوا فى جهاد عدوكم فاجتمع إليه عشرة آلاف رجل »[٤] .

وقد انقلبت غالبية أهل الكوفة والبصرة على الخوارج آخر الأمر فاشتركوا فى قتالهم رغبـــة فى التخلص منهم وحباً بأن يعم الأمن والاستقرار فى ربوع العراق . قال المبرد : « وقد استعان بعض خلفاء بنى أمية بأهل الكوفة على قتال الخوارج فقد أمر عبد الملك بن مروان أخاه بشر بن مروان عندما كان والياً على الكوفة بأن يمد المهلب بن أبى صفرة

(١) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ .
(٢) الطبرى : ج ٦ ص ٦٥ .
(٣) اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ص ١٧٠ .
(٤) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١٠٤١ ، ١٠٤٢ .

بجيش من أهل الكوفة قوامه ثمانية آلاف رجل،[1] .

إن الحياة السياسية المضطربة التى عاشها الكوفيون خلال حكم الحجاج على الخصوص ، انتهت بهم إلى تدهور الحياة الاقتصادية وجعلتهم يحيون حياة الفقر والعوز نتيجة للحروب المتواصلة والفتن المستمرة كل ذلك أدى إلى سخط أهل الكوفة وكرههم الشديد للأمويين وحكمهم ، وجعلهم يسارعون لاغتنام أى فرصة تنذر بتغيير الأحوال . فما أن بدأت الدعوة العباسية فى الكوفة حتى انضم إليها خلق كثير معتقدين أنها الطريق الوحيد للخلاص من هذه الأوضاع السيئة .

(١) المبرد : الكامل ج ٣ ص ١١١٥ .

الفصل الرابع

الحياة الأدبية فى الكوفة

بعد أن عرضنا فى إيجاز الحياة السياسية وأثرها فى الحياة الاقتصادية فى الكوفة فى الفترة التى حددناها للدراسة رأينا أن نعرض للحياة الأدبية والثقافية التى تأثرت إلى حد كبير بالحياة الاجتماعية والسياسية .

والذى لا شك فيه أن الكوفة فى هذه الفترة كانت من أغنى البلدان الإسلامية من الناحية الثقافية ، فكانت ملتقى التيارات الحضارية ، كالحضارة البابلية والأشورية والكلدانية والفارسية واليونانية[1] . فأصبحت بذلك مركز ألللاشعاع الفكرى ، ومما ساعد على ذلك موقعها الجغرافى حيث أنها بنيت على مقربة من الحيرة فتأثرت تبعاً لذلك بكثير من مقوماتها الثقافية والفكرية والاجتماعية .

كما لعب الموالى دوراً كبيراً فى مجتمع الكوفة فى تطور الحياة الفكرية والعقلية وازدهارها حتى أننا نلاحظ أن معظم العلماء كانوا من الموالى حيث استطاعوا أن ينهضوا بالعلم نهضة واسعة ، فهناك سعيد بن جبير[2] (مولى بنى والبة) الذى قال فيه عبد الله بن عباس

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٧٦ .

(٢) لما قبض على سعيد بن جبير وكان قد خرج مع ابن الأشعث على الحجاج قال له الحجاج أما قدمت الكوفة وليس يؤم بها إلا عربى فجعلتك إماماً ؟ قال بلى . قال إنما وليتك القضاء فضج أهل الكوفة وقالوا لا يصلح القضاء إلا لعربى ، فاستقضيت أبا بردة بن أبى موسى الأشعرى وأمرته أن لا يقطع أمراً دونك ؟ قال بلى ، قال أوما جعلتك فى سمارى وكلهم من رؤوس العرب ؟ قال بلى ، قال فما أخرجك على .

ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ٢ ص ١١٥ ؛ ابن العماد : شذرات الذهب ج ١ ص ١٠٩ .

عند ما آتاه أهل الكوفة يسألونه « لا تسألونى وفيكم ابن أم دهماء؟ يعنى سعيد بن جبير»[1] . كذلك (الفراء) مولى بنى أسد وحماد (الراوية) مولى بنى سعد وهو الذى جمع المعلقات السبع[2] . وأبو حنيفة الإمام الأعظم كان من الموالى أيضاً .

وثمة عامل آخر أدى بالكوفة إلى أن تصبح مكاناً علمياً وفكرياً ذلك أن الاضطراب السياسى جعل الكوفة « ميداناً لاضطراب عقلى يتخذ من هـــذا الاضطراب السياسى موضوعاً للجدول والمناقشة »[3] فأدت إلى ظهور مذاهب سياسية ودينية التى دار حولها الجدل المذهبى والخصومات العقلية مثل هل لعلى يد فى قتل عثمان ؟ وهل أصاب على فى التحكيم ؟[4]. ومن المخطىء ومن المصيب؟[5] وغيرها من المناقشات الجدلية التى أثرت فى الحياة ، وعمقت التفكير وشغلت الأذهان فترة طويلة من الزمن . وعلى نحو ما تقاطر إلى البصرة والكوفة أهل المدن المجاورة فى العراق والشام وفارس من طلاب الرزق فإنهم أيضاً تقاطروا يطلبون العلم والمعرفة من موطنه فى الكوفة بعد أن أصبحت الكوفة « بؤرة العلم والأدب وملتقى العلماء والأدباء والشعراء يزدحمون فى المسجد أو غيره للمفاخرة والمناظرة والمناشدة »[6] .

وضربت الكوفة مثلا بارزاً فى شتى مجالات الثقافة ومختلف نواحى العلم والمعرفة ، كما أخذت العلوم الدينية مكان الصدارة فى الحيـاة الفكرية .

---

(١) ابن سعد : الطبقات الكبير ج ٦ ص١٧٩ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٤٨ .
(٣) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٢١٠ (غير مطبوع).
(٤) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٢١٠ (غير مطبوع) .
(٥) أحمد أمين : فجر الإسلام ص١٨٢ .
(٦) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٠ — ٢٤١ .

١ ـ القرآن :

اهتم علماء الكوفة بالقرآن والحديث والتشريع وغير ذلك من العلوم الدينية ، وصارت الكوفة مركزاً هاماً من مراكز قراءة القرآن واقراءه وتفسيره ، ويرجع الباحثون الفضل فى ذلك إلى ابن مسعود الذى يعتبر أستاذ مدرسة القراءة الأكبر فى الكوفة بدون منازع ، نظراً لاصطحابه الرسول وملازمته أياه وأخذه القرآن كله عنه . وقد بعثه عمر ابن الخطاب إلى الكوفة ليعلمهم كما طلب عمر من أهل الكوفة أن يأخذوا عنه ، هذا وقد التف حول ابن مسعود جماعات من الكوفيين كانوا التلاميذ الأول لمدرسة القراءة بالكوفة فتعلموا عنه العلم وتأدبوا بآدابه ، وبلغ عدد هؤلاء العلماء والقراء عدداً كبيراً ، وكان ثلاثة من أئمة القراءة السبع كانوا من الكوفة مثل (عاصم بن أبى النجود) مولى بنى جذيمة[١] ، وعلى بن حمزه أبو حسن الكسائى الذى انتهت إليه رآسة الاقراء فى الكوفة[٢] . وأبو عمرو بن العلاء من تميم .

٢ ـ الحديث :

كان الكوفة نصيب كبير فى جمع الأحاديث وتدوينها ، فكانت مركزاً رئيسياً لوضعه ونتيجة لظهور الشيعة الذين كانوا يحاولون تأييدمذهبهم وتقوية حججهم فى المطالبة بالخلافة للبيت العلوى عن طريق جمع الحديث عن الرسول .

وقد اشتهر من محدثى الكوفة الشعبى[٣] الذى كان له باعاً طويلا فى هذا الميدان .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٤٣ .

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ٢٣٥ .

(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٤٧ .

٣ ـ الفقه :

أسدت الكوفة للتشريع الإسلامى خدمات جلى فقد كان قيامها فى بيئة أجنبية متحضرة تتصارع فيها تيارات لم تعرفها البيئة العربية التى ظهر فيها الإسلام حيث وسعت من دائرة الأبحاث الفقهية وجعلها أكثر ملائمة لظروف الحياة الاجتماعية الجديدة التى لم يواجهها الإسلام فى موطنه الأول[١] .

وكان ابن مسعود هو الرائد الأول لمدرسة التشريع فى الكوفة لتلمذته على يد عمر بن الخطاب الذى سار على طريقته فى الاجتهاد واستعمال الرأى حيث لا نص من كتاب ولا سنة ، وتلقى ابن مسعود التشريع الإسلامى عن عمر وبالتالى لقنه لتلاميذه الكثيرين الذين حملوا راية الإفتاء فى الكوفة وتولى القضاء فيها . ومن المعروف ان مدرسة التشريع فى الكوفة التى توجت بأبى حنيفة هى مدرسة الرأى فى التشريع الإسلامى وهى تقابل مدرسة الحديث التى ظهرت فى الحجاز[٢] .

ومن العوامل الأخرى التى هيأت لظهور مدرسة الرأى فى الكوفة دون غيرها من الأمصار الإسلامية الأخرى ، أن العقلية الكوفية تختلف اختلافاً كبيراً عن العقلية المكية أو المدنية نظراً لما تتمتع به الكوفة من حضارة ومدنية كبيرة ، فالعقلية الكوفية عقلية متحضرة مثقفة بثقافات متعددة فى حين أن العقلية المكية أو المدنية عقلية بدوية انحصرت ثقافتها فيما كان بين أيديها من قرآن وحديث ، وهذا من غير شك يجعل العقلية الكوفية أكثر مرونة وأشد استجابة لعوامل التطور وأقدر على التكيف والملائمة مع ما يحيط بها من ظروف حضارية[٣] .

هذا فضلا عن أن تعدد الطبقات فى المجتمع الكوفى جعل فقهاء الكوفة يواجهون مشكلات من نوع جديد مما دفعهم أن يعتمدوا على عقلهم فى سبيل استنباط أحكام لمثل تلك القضايا والمشكلات .

---

(١) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٢٩٤ (غير مطبوع) .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ج ١ ص ٢٤١ ، ٢٤٣ .

(٣) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٢٢٥ (غير مطبوع) .

٤ - علوم اللغة :

لعبت الكوفة دوراً هاماً فى الحياة اللغوية ، إذ أنها كانت أكثر اهتماماً وأوسع نشاطاً في رواية الشعر والأخبار فوضع علماؤها مذهباً فى النحو يخالف مذهب البصريين وصنفوا فيه كتب كثيرة تتردد أسماءها فى الكتب القديمة التى تتناول تاريخ النحو العربى ورجاله بالدراسة[1] .

وقد شارك علماء اللغة فى الكوفة أمثال الكسائى والفراء وأبو عمر الشيبانى وابن الأعرابى فى جمع اللغـــة العربية وتدوينها وحفظها مشاركة كبيرة .

وقد اهتم العرب بالنحو بعد انتشار اللحن وخصوصاً فى قراءة القرآن وعندها وجدوا أنهم بحاجة شديدة إلى ضبط قواعد اللغة ولاسيما بعد اختلاط العرب بالأعاجم الذى أدى إلى إفساد اللغة[2] .

وقد تجلى الطابع القومى العربى لدى علماء الكوفة فى تشبثهم باللغة العربية والتراث اللغوى والأدبى للقبائل العربية القديمة حيث كانوا أكثر احتراما لكل مايروى عنها ، وأشد إيماناً بأن كل مانطقت به العرب صحيح وصالح لأن يستعمله الناس ويقيسوا عليه[3] .

وظهر ذلك جلياً فيما قام به أبو عمرو الشيبانى من جمع شعر القبائل العربية كل قبيلة على حدة فى كتاب مستقل ويعتبر هذا العمل الذى بذله الشيبانى « أهم عمل علمى متكامل منظم يستحق التنويه به »[4] .

ظهرت فى الكوفة أيضاً طائفة من الرواة يرون الشعر والأخبار وأيام العرب وأشهر هؤلاء الرواة حماد الرواية[5] والمفضل الضبى ، وتكونت فى

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ١٧ ص ١٢٧ .

(٣) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص٢١٣ (غير مطبوع) .

(٤) يوسف خليف حياة الشعر فى الكوفة ص٢٤٦ (غير مطبوع) .

(٥) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٢٣٨ (غير مطبوع).

الكوفة مايشبه مدرسة مستقلة خاصة فى الرواية لها طابعها المميز ، وأسلوبها المنفرد مما جعلها تتفوق على البصرة فى هذا الميدان .

وليس معنى هذا أن الكوفة اقتصرت على نفسها مكتفية بما فيها من علماء وإنما أخذ النشاط الفكرى والعقلى صورة أخرى هى ما يمكن أن نسميها « الصلاة الثقافية » المتبادلة بينها وبين الأمصار العراقية الأخرى وخاصة البصرة فكانت ترسل الوفود التعليمية إليها وكانت تتلق طلاب العلم وعلماء اللغة الذين يفدون إليها لينهلوا من مورد الشعر فيها فهى موطن روايته وجمعه ، وقد أشارت المراجع إلى أن خلف الأحمر البصرى كان يأتى الكوفة ليكتب من أهلها الشعر وكذلك أبو نواس وابن المقفع[1] وثلاثتهم من البصرة . ويبدو أن من العوامل التى تشجع على هذا ما كانت تمتاز به الكوفة من بيئة طبيعية جميلة وحياة اجتماعية لاهية ، بما فيها من دور غناء وشراب ومن لهو ومجون فضلا عن أنها كانت تحيط بها أديرة كثيرة يباع فيها الخمر ويقدم للشاربين[2] .

على كل حال كانت الحياة الفكرية والعقلية والفنية أشد ما تكون قوة وحيوية فى القرن الأول الهجرى ، فقد أسهمت الكوفة مساهمة فعالة فى كثير من جوانب العلم والفن ، والكتابة والنثر والشعر والسياسة والتصوير والخلق والابتكار ، مما جعل عندها مزية خاصة هى الإبتداع فى التصوير فى الأدوار الثقافية العربية كافة[3] .

---

(١) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٢٥١ .
(٢) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٢١٠ (غير مطبوع) .
(٣) يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة ص ٢٤٦ (غير مطبوع) .

الفصل الخامس

الصلات بين الكوفة والبصرة والأمصار الإسلامية الأخرى

لقد قطعت الكوفة شوطاً بعيداً فى المدنية والحضارة وأصبحت مركزاً للإشعاع الفكرى والحضارى تمد الأمصار بنور حضارتها وإشعاعات فكرها ، ولم تبق هذه الحضارة مقتصرة على مدينة الكوفة وحدها وإنما تجاوز أثرها أسوارها وانطلق فى العراق كله بل غمر أمصاراً أخرى من العالم الإسلامى .

كانت الكوفة والبصرة هما المصران الوحيدان فى العراق فى ذلك الوقت فكان من الطبيعى أن تكون بينهما علاقات متينة ومستمرة منذ تمصيرها ، فكانت الأحداث التى تحدث فى الكوفة سرعان ماتجد صداها فى البصرة وما عرف من شىء فى البصرة إلا وعرف فى الكوفة . وقد وجد عدد كبير من الكوفيين مقاماً ، ومستقراً لهم فى البصرة بعد أن هرب قسم كبير منهم لأسباب سياسية ولا سيما فى زمن المختار الذى أخذ يقتل قتلة الحسين فهرب إليها عدد كبير إلى هناك حيث تعاونوا مع مصعب بن الزبير وشجعوه على الذهاب إلى الكوفة وقتل المختار . كما أن اتساع التجارة والرغبة فى الربح والكسب شجع قسما كبيراً من أهل الكوفة على السفر إلى البصرة والاشتغال بالتجارة هناك ، واتخذ عدد من البصريين الكوفة مدينة لهم ومقاماً لأنها عاصمة الدولة الإسلامية ومركز الفقه والحديث واللغة وقراءة القرآن ورواية الشعر والأدب .

وبالطبع انتقل العلم والمعرفة إلى البصرة بواسطة هؤلاء الذين شدوا

الرحال من الكوفة وألقوا عصا الترحال فى البصرة واستقروا بها طلباً للتجارة .

على أن البصرة سبقت الكوفة إلى الاستقرار والهدوء مما ساعد أهلها على الاشتغال بالعلوم والاستفادة من الثقافات والعلوم التى انتقلت إليها مع العناصر الأجنبية الوافدة من الفرس والهنود واليونان وغيرهم . فى هذه البيئة المستقرة الهادئة بدأت بواكير العلوم . ولقد كان التنافس بين هذين المصريين شديداً وقوياً جداً ومحتدماً من نواحي متعددة ففى الناحية الحزبية والسياسية نجد الكوفة علوية ومعارضة كل المعارضة للأمويين وحكمهم ، كما كان الخلاف واضحاً من الناحية العلمية ، فأهل الكوفة أصحاب فقه وحديث وقراءة ، وأهل البصرة أصحاب علوم وفلسفات لأنهم أكثر اختلاطاً بالأجانب من أهل الكوفة وأكثر حرية فى اعتناق المذاهب المختلفة والأخذ بالثقافات الوافدة ، ولكن الكوفة كانت بعيدة كل البعد من الأخذ بالثقافات الأجنبية لكثرة من فيها من الصحابة والتابعين والفقهاء .

كل هذه العوامل عمقت أسباب الخلاف والتنافس بين المصرين وكان من نتائج هذا التنافس أنهم كانوا يتناظرون فى مجالس الخلفاء والأمراء . وقد تناولت هذه المناظرات الناحية الثقافية ، فكان التنافس على أشده بين نحاة الكوفة ونحاة البصرة فى عهد الكسائى وسيبويه وكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى ظهور مذهبين للإعراب منها المذهب الكوفى ومنها المذهب البصرى . ولم يقتصر التنافس هذا على النحو فقط وإنما شمل جميع النواحى العلمية تقريباً وتعصب كل بلد لعلمائها تعصباً ظاهراً فالبصريون والكوفيون فى الفقه والكوفيون والبصريون فى المذاهب الدينية وعلم

الكلام والكوفيون والبصريون في الأدب[١] .

أشار الجاحظ إلى عدد من المناظرات التي جرت بين عامة الناس في الكوفة والبصرة فقال « سئل خالد بن صفوان عن الكوفة والبصرة فقال نحن منابتنا قصب وأنهارنا عجب ، وسماؤنا رطب وأرضنا ذهب ، وقال الأحنف (وهو من أهل الكوفة) نحن أبعد منكم سرية وأعظم منكم بحرية ، وأغذى منكم بريه . وقال أبو بكر الهذلي (وهو بصري) نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً وديباجاً وخراجاً ونهراً عجاجاً »[٢] .

وقال محمد بن عطارد ، إن الكوفة قد سفلت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وعمقها فهي مريئة مريعة عذبة ثرية ، إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور وإذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد وورده وياسمينه ، وماؤنا عذب وعيشنا خصب[٣] .

وقال الحجاج : الكوفة بكر حسناء والبصرة عجوز بخراء أوتيت من كل حلي وزينة[٤] .

ولم تقتصر علاقة الكوفة الخارجية على مدينة البصرة وحدها وإنما تعدتها إلى مدن أخرى خارج العراق ، فاتصلت بالحجاز ، عاصمة الخلافة ومركزها

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٨١ .

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٩٠ ؛ ابن تيمية : عيون الأخبار ج ١ ص ٢١٧ .

(٣) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٢٢٠ .
وقال ابن عياش لأبي بكر الهذلي يوماً فاخرة عند أبي العباس إنما الكوفة مثل اللهاة من البدن يأتيها الماء ببروده وعذوبته والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيره وفساده .

ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٢٢٠ .

(٤) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج ١ ص ٢٢٠ .

السياسى لأعوام طوال . وكانت التجارة بين البلدين قوية ونشطة طوال العام ، وكان التجار ينشطون كثيراً فى مواسم الحج حيث كانت كناسة الكوفة محطة تجارية مهمة تمركزت فيها الأعمال التجارية التى تتعلق بالحجاز.

واتصلت الكوفة بالشام أيضاً ، ولا سيما دمشق وكونت معهما علاقات تجارية متينة ، وكانت هذه العلاقات والاتصالات مستمرة طوال العام . وكان لنهر الفرات الأثر الكبير فى استمرار هـــذا الاتصال فضلا إلى الطرق التجارية البرية التى ساعدت على تقوية هذه العلاقة واستمرارها .

واتصل أهل الكوفة فى مصر وكونوا لهم علاقات متينة . فقد شغل عدد من أهل الكوفة وظائف كبيرة فى مصر ، فولى محمد على بن مسروق الكندى — وهو كوفى — القضاء فى مصر[1] . وأثر أهل الكوفة تأثيراً واضحاً فى الثقافة المصرية فى ذلك العصر فكان أهل مصر يروون الحديث عن محدثى الكوفة[2] .

* * *

تقدم الفن المعمارى فى الكوفة تقدماً كبيراً ولاسيما فى أيام زياد بن أبية[3]. وكانت مدينة بغداد أول مدينة عراقية تأثرت بالكوفة فى نواح متعددة ولاسيما بالفن المعمارى الكوفى فقد ساهم عدد غير قليل من الفنيين والمعماريين فى بناء بغداد ، وقد ذكر اليعقوبى « أن المنصور كتب إلى كل بلدة فى حمل من فيه ممن يفهم شيئاً فى البناء لحضره مائة ألف من أصناف المهن والصناعات »[4] .

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٤٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ٢٦٢ (٢٥٩) ٢٥٤ .

(٣) Creswell, vol. I, p. 33.

(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٢٣٨ .

وأغلب الظن أن من بين هؤلاء المعماريين والفنيين الذين جلبوا إلى بغداد عدد كبير من أهل الكوفة لما لهم من خبرة قديمة فى فن البناء . كما صارت أسواق الكوفة نموذجاً وقدوة لأسواق بغداد[١] . وإن (دارالرزق) فى الكوفة أصبحت نموذجاً لغيرها من المدن الأخرى حيث بنيت (دار الرزق) فى البصرة على غرار ما فى الكوفة .

ولما بنى المعتصم مدينة سامراء جلب من الكوفة صناع الزيت لصناعة الدهون والعطور[٢] . كما جلب إليهـــا صناع الخزف من الكوفة والبصرة[٣] . ولم يقتصر تأثير الكوفة فى مدن العراق على الفن المعمارى والصناعات وإنما تعداها إلى أمور أخرى ، فقد كان لصيارفة الكوفة فضل كبير فى تقدم فن الصيرفة فى العراق بصورة عامة وبغداد بصورة خاصة حيث تعلم يهود بغداد فن الصيرفة عن صيارفة الكوفة وأتقنوه[٤] .

هذا ولم يقتصر تأثير الكوفة على العراق وحده فى نواحى الحياة الحضارية وإنما تعداها إلى أمصار متعددة كالشام والحجاز ومصر .

فقد استعان معاوية بن أبى سفيان ببنائين من العراق فى بناء منشآته فى الشام ، كما استعان عبد الله بن الزبير فى تعمير وإعادة بناء الكعبة بمعماريين من العراق . وعندما بنيت (دار الرزق) فى الفسطاط كانت على غرار (دار الرزق) فى الكوفة[٥] .

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .

(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٢٦٤ .

(٣) اليعقوبى : البلدان ص ٢٦٤٠ .

(٤) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٣ .

ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٢ .

وقد لعب الخط الكوفى دوراً كبيراً فى نواحى الحياة الحضارية لعناية الكوفيين به عناية فائقة ، فانتشر فى سائر أنحاء العالم الإسلامى واستعمل فى كتابات المصاحف وقطع النقود وفى العمائر وشواهد القبور وسائر الكتابات التذكارية وظل يستعمل الخط الكوفى حتى القرن السادس الهجرى[١] .

استعمل الخلفاء العباسيون فى بغداد الخط الكوفى فى مبانى بغداد وسامراء وغيرها ، كما استعمل فى تزيين العمارات وزخارف البناء فى شرق الأردن[٢] ومصر[٣] .

لقد عاشت الكوفة عصرها الذهبى خلال القرنين الأول والثانى ، وكان هذان القرنان يملآن مراحل النشأ والتطور والازدهار فى تاريخ الحضارة الإسلامية فى الكوفة ، وهما اللذان شهدا أزهى مراحل حياتهما الأدبية والعقلية والفنية .

ولما بنيت مدينة بغداد فى منتصف القرن الثانى تحول النشاط الحضارى والعقلى والأدبى إليها فكان هذا إيذاناً بأفول نجم الكوفة وضعف شأنها وبداية انحدارها ، وقد بلغ هذا الانحدار أشده فى أوائل القرن الرابع ، حيث فقدت مركزها السياسى وضعف شأنها وأصبحت مدينة للعلوم الدينية ومركزاً للفقه والحديث .

---

(١) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٢٦ .

(٢) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٤٥ .

(٣) زكى حسن : فنون الإسلام ص ٢٣٧ .

فهرس الأمكنة والبقاع

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(ف)

(ق)

(ل)

(م)

فهرس القبائل

فهرس الاعلام

(ب)

(ج)

(ح)

(خ)

(ن)

(و)

(ه)

(ى)

المراجع العربية

المخطوطات

١ — البلاذرى : أنساب الأشراف (١٢) جزء . مخطوط دار الكتب — الرقم — ٤٨٥٦ .

٢ — قدامة بن جعفر : الخراج (ا) النسخة التيمورية دار الكتب
(ب) النسخة التركية — مكتبة كبرولى .

٣ — صارم الدين إبراهيم بن عبد القادر بن أحمد : التنبيه على ماوجب من إخراج اليهود من جزيرة العرب . مكتبة الأمبروزيانا — إيطاليا .

المطبوعات

٤ — ابن الأثير : عز الدين على بن محمد (توفى ٦٣٠ ﻫ)

٥ — (ا) الكامل فى التاريخ (١٢) جزء . طبعة ليدن سنة ١٨٦٧ م
(ب) أسد الغابة فى معرفة الصحابة (٤) أجزاء القاهرة ١٣١٢ ﻫ

٦ — أحمد أمين : (ا) فجر الإسلام ، القاهرة ١٣٧٤ ﻫ — ١٩٥٥ م

٧ — (ب) ضحى الإسلام (٣) أجزاء القاهرة ١٩٢٨ م

٨ — ابن آدم : يحي (توفى ١٨٨ ﻫ)
الخراج ، القاهرة ١٣٤٨

٩ — آدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، جزءان — القاهرة ١٣٧٧ ﻫ — ١٩٥٧ م

١٠ — الأصطخرى : أبو اسحق إبراهيم (توفى منتصف القرن الرابع الهجرى)
المسالك والممالك (تحقيق محمد جابر عبد العال) القاهرة ١٩٦١ م

١١ — الأصفهانى : على بن الحسين (توفى ٣٥٦)
(ا) الأغانى (٢١) جزء ، طبع محمد الساسى — القاهرة ١٣٢٣ ﻫ

١٢ — (ب) مقاتل الطالبيين ، طبعة النجف ١٣٥٣ ﻫ

١٣ — الأصفهانى : أبو نعيم (توفى ٤٣٠ ﻫ)
حلية الأولياء (١٠) أجزاء القاهرة ، ١٣٥١ ﻫ — ١٩٣٢ م
١٤ — ابن أبى اصيبعة : (توفى فى نهاية القرن السابع الهجرى)
طبقات الأطباء (جزءان) القاهرة ١٨٨٤ م
١٥ — الألوسى : محمود شكرى
بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب (٣ أجزاء) بغداد ١٣١٣ ﻫ
١٦ — انستاس الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ، بغداد ، ١٩٣٩ م
١٧ — البراقى : حسين بن أحمد (توفى ١٣٣٢ ﻫ)
تاريخ الكوفة ، ط النجف سنة ١٩٦٠ م
١٨ — البغدادى : عبد القاهر بن طاهر
الفرق بين الفرق ، مصر ١٩٢٤ م
١٩ — البكرى : عبد الله بن العزيز (توفى ٤٨٧)
معجم ما استعجم (٤ أجزاء) ط ١٩٥١ م
٢٠ — البلاذرى : أحمد بن يحيى (توفى ٢٧٩)
(ا) فتوح البلدان ، مصر ١٩٥٩ م
٢١ — (ب) أنساب الأشراف: طبعة فلسطين (أورشليم) ١٩٣٦ م
٢٢ — بنيامين : رحلة بنيامين (أنظر تريتون ، أهل الذمة فى الإسلام)
٢٣ — البيرونى : محمد بن أحمد (توفى ٤٤٠ ﻫ)
الجماهر فى معرفة الجواهر ، حيدرآباد ١٣٥٥ ﻫ
٢٤ — التنوخى : أبى على المحسن بن على (توفى ٣٨٤)
المستجاد من فعلات الأجواد (تحقيق ونشر كرد على)
دمشق — ١٣٦٥ ﻫ ١٩٤٦ م
٢٥ — تريتون : أهل الذمة فى الإسلام (ترجمة حسن الحبشى) مصر ١٩٤٩ م
٢٦ — الثعالبى : أبى منصور عبد الملك بن محمد النيسابورى (توفى ٤٢٩ ﻫ)

(ا) يتيمة الدهر ، ٤ أجزاء
٢٧ — (ب) فقه اللغة ، مصر ١٣١٨ ﻫ
٢٨ — الجاحظ : عمر بن بحر (توفى ٢٥٥ ﻫ)
(ا) البيان والتبيين (٣) أجزاء ، القاهرة (١٣٦٦ ﻫ — ١٩٤٧ م)
٢٩ — (ب) التاج فى أخلاق الملوك (تحقيق أحمد زكى) القاهرة ١٣٢٢ﻫ — ١٩١٤ م
٣٠ — (ﺣ) التبصر بالتجارة (اعتناء حسنى عبد الوهاب التونسى) مصر ١٩٣٥
٣١ — (ى) البخلاء — تحقيق (طه الحاجر) مصر ١٩٥٨ م
٣٢ — (ﻫ) ثلاث رسائل ، ط القاهرة ١٣٤٤ ﻫ
٣٣ — ابن جبير : أبى الحسين محمد بن أحمد (توفى ٦١٤ ﻫ)
رحلة بن جبير ، بغداد ١٣٥٦ ﻫ ١٩٣٧ م
٣٤ — جرجى زيدان : (ا) التمدن الإسلامى (٤) أجزاء طبعة الهلال
٣٥ — (ب) تاريخ آداب اللغة العربية (٤) أجزاء ط الهلال — ١٩٥٧
٣٦ — الجهشيارى : محمد بن عبدوس (توفى القرن الرابع)
الوزراء والكتاب، ط أولى، مصر ١٣٥٧ ﻫ — ١٩٣٨ م
٣٧ — ابن أبى الحديد : محمد بن أبى أحمد الحسينى (توفى ٤٠٤)
شرح نهج البلاغة (٢٠) جزءا مصر (مطبعة دار الكتب العربية الكبرى)
٣٨ — ابن حزم : أبى محمد على بن أحمد (توفى ٤٥٦ ﻫ)
(ا) الفصل فى الملل والأهواء والنحل (٤) أجزاء ط أولى مصر ١٣٤٧ﻫ
٣٩ — (ب) جمهرة أنساب العرب (نشر وتحقيق بروفنسال) ١٩٤٨ م
٤٠ — حسن إبراهيم حسن :
(ا) النظم الإسلامية — القاهرة ١٩٥٩ م

٤١ — (ب) تاريخ الإسلام السياسى (٣) أجزاء طبعة ١٩٤٥ — ١٩٤٦ م

٤٢ — ابن حنبل : أحمد بن محمد (توفى ٢٤١ هـ)
المسند ٦ أجزاء القاهرة ١٣١٣ هـ

٤٣ — أبو حنيفة : النعمان بن ثابت (توفى ١٥٠ هـ)
جامع المسانيد ، جزءان حيدر أباد ١٣٣٢ هـ

٤٤ — ابن حوقل : محمد (توفى القرن الخامس الهجرى)
المسالك والممالك — ليدن ١٨٧٢

٤٥ — الخربوطلى : على حسنى
تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى — مصر ١٩٥٩ م

٤٦ — ابن خرداذبه : (توفى حوالى ٣٠٠ هـ)
المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ م

٤٧ — ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد — توفى ٨٠٨ هـ
(ا) مقدمة ابن خلدون ، المطبعة البهية المصرية

٤٨ — (ب) العبر وديوان المبدأ والخبر (٧) أجزاء ١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

٤٩ — ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس (توفى ٦٨١ هـ)
وفيات الأعيان (٦) أجزاء، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٦٧ هـ — ١٩٤٨ م

٥٠ — أبو داوود : سليمان (توفى ٢٧٥ هـ)
السنن (تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد) (٤) أجزاء القاهرة ١٣٥٤ هـ — ١٩٣٥ م

٥١ — الدميرى : كمال الدين (توفى ٨٠٨ هـ)
حياة الحيوان ، جزءان بولاق ١٢٨٤ هـ

٥٢ — الدورى : عبد العزيز
(ا) تاريخ العراق الاقتصادى فى القرن الرابع الهجرى ،
مطبعة المعارف — بغداد ١٩٤٨
٥٣ — (ب) النظم الإسلامية ، ط أولى — بغداد ١٩٥٠ م
٥٤ — ديمومبين : النظم الإسلامية (ترجمة الشماع وفيصل السامرا)
ط بغداد — ١٩٥٣
٥٥ — ديماند : الفنون الإسلامية (ترجمة أحمد محمد عيسى)
٥٦ — الدينورى : أبو حنيفة أحمد بن داود (توفى ٢٨٢ ﻫ)
الأخبار الطوال ، ليدن ١٨٨٨ م
٥٧ — الذهبى : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان — (توفى ٧٤٨ ﻫ)
تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام (٤) أجزاء
القاهرة ١٣٦٨
٥٨ — ابن رسته : أحمد بن عمر (توفى أوائل القرن الرابع الهجرى)
الأعلاق النفيسة — ليدن ١٨٩١ م
٥٩ — زكى محمد حسن : (ا) فنون الإسلام ط أول ١٩٤٨ م
٦٠ — (ب) أطلس الفنون الزخرفية والتصاوير الإسلامية.
من مطبوعات كلية الآداب والعلوم ، بغداد —
القاهرة ١٩٥٦ م
٦١ — سبط الجوزى : يوسف بن قز (توفى ٦٥٤ ﻫ)
تذكرة الخواص
٦٢ — السرخسى: محمد بن سهيل
المبسوط (٣٠) جزء القاهرة ١٣٢٤ ﻫ
٦٣ — سعاد ماهر : مجـــلة كلية الآداب (خزف الرقة) ج ٢ مجلد
١٦ ديسمبر ١٩٥٤ م

٦٤ - ابن سعد : محمد (توفى ٢٣٠ ﻫ)
الطبقات الكبير (٨) أجزاء ط ليدن ١٣٢٢ ﻫ — ١٣٣٨

٦٥ - السكرى : محمد بن حبيب (توفى فى أواخر القرن الثالث الهجرى)
المحبر — حيدر أباد ١٩٤٢م

٦٦ - ابن سلام : أبو عبيد القاسم (توفى ٢٢٣ﻫ)
الأموال (تحقيق محمد حامد الفقى) سنة ١٣٥٣ ﻫ

٦٧ — الشابشتى : أبو الحسن على بن محمد (توفى ٣٨٨ ﻫ)
الديارات . مطبعة المعارف — بغداد ١٩٥١ م

٦٨ — شوقى ضيف : التطور والتجديد فى الشعر الأموى — القاهرة ١٩٥٩م

٦٩ — الشوكانى : محمد بن على بن محمد (توفى ١٢٥٥ ﻫ)
نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار (٨) أجزاء مصر ١٣٤٧ﻫ

٧٠ — الشهرستانى : محمد بن أبى القاسم (توفى ٥٤٨)
الملل والنحل (هامش كتاب الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم) الطبعة الأولى مصر ١٣٤٧ ﻫ

٧١ — الصابى : هلال بن المحسن بن إبراهيم (توفى ٤٤٨ ﻫ)
تحفة الأمراء بتاريخ الوزراء ، بيروت ١٩٠٤ م

٧٢ — صالح أحمد العلى : التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى ، بغداد — ١٩٥٣ م

٧٣ — صفى الدين عبد المؤمن : مراصد الإطلاع فى معرفة الأمكنة والبقاع (٨) أجزاء القاهرة ١٩٥٥ م

٧٤ — الصولى : أبى بكر محمد بن يحيى (توفى ٣٣٦ ﻫ)
أدب الكتاب (تحقيق محمد بهجه الأثرى) مصر ١٣٤١ ﻫ

٧٥ — الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير (توفى ٣١٠ ﻫ)
(١) تاريخ الرسل والملوك ١١ جزء ٤ — ١١ المطبعة الحسينية القاهرة ٢١٠ ﻫ — ٩٢٢ م

٢ — ٣ مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٣٩ م

٧٦ — (ب) التفسير (٣٠) جزءا — القاهرة (١٣٢٣—١٣٣٩) ه

٧٧ — طه حسين : (١) الفتنة الكبرى ، جزءان — مصر ١٩٥٩ م

٧٨ — (ب) حديث الأربعاء (٣) أجزاء — مصر ١٩٣٧ م

٧٩ طه الهاشمى :- مجلة المجمع العلمى العراقى (خالد بن الوليد فى العراق)
ج ١ مجلد ٣ سنة ١٩٥٤ م

٨٠ - ابن عبد البر : القرطبى (توفى ٣٢٨ ه)
الاستيعاب فى معرفة الأصحاب .ط حيدرأباد ١٣١٩

٨١ — ابن عبد الحكم : أبى محمد بن عبد العزيز (توفى ٢١٤ ه)
فتوح مصر وأخبارها ليدن ١٩٢٠ م

٨٢ - ابن عبد ربه : أحمد بن محمد (توفى ٣٢٨ ه)
العقد الفريد (٦) أجزاء ١٩٤٠ ، ١٩٥٦ م

٨٣ - ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول — بيروت ١٨٩٠

٨٤ — ابن عساكر : على بن محمد (توفى ٥٧١ ه)
تاريخ دمشق (٥) أجزاء ط الشام ١٩٢٩ م

٨٥ - العسقلانى : ابن حجر (توفى ٨٥٢ ه)
الإصابة فى معرفة الصحابة (٨) أجزاء القاهرة ١٩٠٧ م

٨٦ - ابن العماد : أبى الفلاح بن عبد الحى (توفى ١٠٨٩ م)
شذرات الذهب (٨) مجلدات ١٣٥٠

٨٧ — العمرى : ابن فضل الله (توفى ٧٤٩ ه)
مسالك الأبصار فى الممالك والأمصار ، مصر ١٣٤٢ — ١٩٢٤

٨٨ — ابن الفقيه الهمدانى : (توفى فى القرن الخامس الهجرى)
مختصر البلدان ، ليدن ١٣٠٣ م

٨٩ — فليب حتى : تاريخ العرب المطول (٤) أجزاء بيروت ١٩٥٣ م
٩٠ — ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم (توفى ٢٧٦ ﻫ)
(ا) عيون الأخبار (٤) أجزاء. مصر دار الكتب ١٩٢٥ ؛
١٩٣٠
٩١ — (ب) الأشربة — دمشق ١٩٤٧
٩٢ — (ح) الإمامة والسياسة — مصر — مطبعة مصطفى الحلبى
٩٣ — قدامة بن جعفر : أبو الفرج (توفى — ٣٣٧ ﻫ)
الخراج ط ليدن ١٨٨٩ م
٩٤ — القلقشندى : أبي العباس أحمد (توفى ٨٢١ ﻫ)
صبح الأعشى فى صناعة الانشا (١٤) جـــزء القاهرة
١٣٣١ﻫ—١٩١٣م
٩٥ — الكندى : رسالة فى عمل السيوف ، ط ، بغداد — ١٩٦٢
٩٦ — لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية (ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس
عواد) بغداد ١٩٥٤ م
٩٧ — ماسنيون : خطط الكوفة (ترجمة تقى المصعبى) صيدا ١٩٤٦ م
٩٨ — مالك : أنس (توفى ١٧٩ ﻫ)
المدونة (٤) أجزاء — القاهرة ١٣٢٤
٩٩ — الماوردى : على بن محمد (توفى ٤٥٠ ﻫ)
الأحكام السلطانية ، ليدن (١٨٥٣)
١٠٠ — المبرد : محمد بن يزيد (توفى ٢٨٥ ﻫ)
الكامل (٣) أجزاء (تحقيق زكى مبارك) مصر ١٩٣٦م
الجزء الثالث — تحقيق (أحمد شاكر) مصر ١٩٣٧ م
١٠١ — مجلة الجمعية الآسيوية الملكية سنة ١٩٣٠
١٠٢ — محمد حميد الله الحيدر أبادى : مجموعة الوثائق السياسية فى العهد
النبوى والخلافة الراشدة القاهرة ١٩٤١م

١٠٣ — المسعودى : على بن الحسين (توفى ٣٤٦ ﻫ)
(ا) مروج الذهب (٤) أجزاء ١٣٥٧ ﻫ — ١٩٣٨
١٠٤ — (ب) التنبيه والإشراف — القاهرة ١٩٣٨ م
١٠٥ — المقدسى : محمد بن احمد (توفى فى القرن الخامس)
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم — ليدن ١٨٧٧ م
١٠٦ — المقريزى : أحمد بن على (توفى ٨٤٥)
شذور العقود (أنظر انستاس الكرملى)
١٠٧ — ناصر خسرو : سفر نامه (ترجمة يحيى الخشـــاب) القاهرة ١٣٦٤ ﻫ — ١٩٤٥ م
١٠٨ — ابن النديم : محمد بن إسحق (توفى ٣٨٣ ﻫ)
الفهرست — مصر ١٣٤٨ ﻫ
١٠٩ - نصر بن مزاحم : (توفى ٢١٢ﻫ)
موقعة صفين — جزءان القاهرة ١٣٦٥ ﻫ
١١٠ — النقشبندى : الدينار الإسلامى — جزءان ١٩٥٣ م
١١١ — النوبختى : أبى محمد الحسن بن موسى (توفى ٢٠٢ ﻫ)
فرق الشيعة — المطبعة الحيدرية ، النجف — ١٣٥٥ — ١٩٣٦ م
١١٢ — النويرى : أحمد بن عبد الوهاب (توفى ٧٤٢)
نهاية الأرب فى فنون الأدب ، مصر ١٩٢٥ م
١١٣ - وكيع : محمد بن خلف بن حيان (توفى أوائل القرن الرابع الهجرى) أخبار القضاة (٣) أجزاء تعليق وتصحيح عبد العزيز المراغى مصر ١٢٦٩ ﻫ — ١٩٥٠ م
١١٤ — ولهاوزن : الدولة العربية وسقوطها (ترجمة يوسف العش . دمشق ١٣٧٦ ﻫ — ١٩٥٦ م)

١١٥ — ياقوت الحموى : (توفى ٦٢٦ ﻫ)
معجم البلدان (١٠) مجلدات . مصر ١٩٠٦ م

١١٦ — اليعقوبى : أحمد (توفى ٢٨٤)
(ا) التاريخ ، ثلاثة أجزاء ، النجف ١٣٥٨ ﻫ

١١٧ — (ب) البلدان ، ليدن ١٨٩١ (ملحق كتاب الأعلاق النفيسة) لابن رسته

١١٨ — يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة حتى نهاية القرن الثانى الهجرى (غير مطبوع)

١١٩ — يوسف غنيمة :
(ا) الحيرة ، بغداد ١٩٣٦ م

١٢٠ — (ب) تجارة العراق قديماً وحديثاً — بغداد ١٩٢٢

١٢١ — أبو يوسف : يعقوب (توفى ١٨٢)
الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ ﻫ

المراجع الأجنبية

1. Boissonnade, Life and Work in Medieval Europe, London 1937.
2. Creswell, Early Muslim Architecture A.D. 622-750, Oxford.
3. Dozy, Dictionnaire des noms des vêtements arabes, Amsterdam 1845.
4. Fisher, A History of Europe.
5. Nicholson, Literary History of the Arabs, London 1923.
6. Mendelson, Slavery in the Ancient Near East, 1946.
7. Pope, A Survey of Persian Art, vol. III, Oxford 1939.
8. Répertoire, Chronologique dépigraphique arabe, vol. I, 1931, Le Caire.

فهرس

صفحة

الفصل الثانى

بعض مظاهر الحياة الاجتماعية التى اشترك فيها جميع السكان

الباب الثالث

الحالة الاقتصادية

الفصل الأول

صفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الباب الرابع

التنظيمات المالية فى الكوفة

الفصل الأول

صفحة

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الباب الخامس

الفصل الأول

مدينة الكوفة والمجتمع الكوفى

الفصل الثانى

الفصل الثالث

صفحة

الفصل الرابع
الحياة الأدبية فى الكوفة

الفصل الخامس

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩	١٥	جزء	جزءاً
١٨	١٠	حد	أحد
٣١	٢٠	مكاناً	مكان
٣١	»	العاجزين	العاجزون
٤٧	١٦	الف	الفاً
٤٨	٣	السبع	السبعة
٥٢	١٤	معنة	معينة
٥٢	١٥	ذا	ذو
٥٣	١٤	لايدعو	لا يدع
٥٥	١٣	أول	أدل
٥٥	١٣	فى	من
٥٧	٢٣	حيث تحولت	بعد تحول
٨٠	١٤	أبا عمرة	أبو عمرة
٨٠	٢٠	أعداءه	أعدائه
٨٥	١	ثلاث	ثلاثة
٨٧	١٧	يسترضونهم	يسترضى
٨٩	١٩	ونسأئهم	نسأئهم
٩٥	١٨	صفلهم	صلفهم
٩٦	١٦	أربعة	الأربعة
١٠٢	١٧	شيء	شيئاً
١٠٣	٥	دمائهم	دماءهم
١٠٦	٢	والخلفاء	الخلفاء
١٠٦	٦	رزاقهم	رزقهم
١٠٨	٦	المسيحيون	المسيحيين
١٢١	١٠	منزلا	منزل
١٢٤	١٧	يتهانووا	يتهانوون
١٢٧	٧	ويزعموا	ويزعمون
١٢٧	١٢	فرحين	فرحون
١٢٨	٩	حصاناً	حصان
١٣٥	١٨	أبي موسى	أبا موسى
١٥٣	٦	كأثيواب	كاثواب
٢٠٩	١٥	أعملهم	عملهم
٢٣٢	٧	العباد	والعباد
٢٣٩	١٠	عمر بن العاص	عمرو بن العاص
٢٤٠	١٥	دستى	دسبتى
٢٤٥	١	أبو ليلى	أبا ليلى
٢٧٠	٩	عبد الله بن الكراء	عبد الله بن الكواء


م. سرمد حاتم شكر



رقم الإيداع بدار الكتب ١٧٦٣/١٩٧١

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ ش ضريح سعد بالقاهرة